*الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
Ministère de l'enseignement supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة وهران 1
Université d'Oran 1
أحمد بن بلة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية.
Faculté des Science Humaines et des Science Islamiques

قسم الحضارة الإسلامية.

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة والدراسات القرآنية الموسوم بـ:

الخطاب القرآني.

دراسة في قضايا الإعجاز عند المفسرين.

إعداد الطالب الباحث
عقـــاب بن زيـــان

إشـــــراف الأستاذ الدكتور
محمـد زعـــراط.

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د قلايلية العربي	أستاذ	رئيسا	جامعة وهران1
أ.د محمد زعراط	أستاذ	مقررا	جامعة وهران1
أ.د سليماني عبد القادر	أستاذ	عضوا	جامعة وهران1
أ.د عرابي أحمد	أستاذ	عضوا	جامعة تيارت
أ.د صدار نور الدين	أستاذ	عضوا	جامعة معسكر
أ.د سلامي عبد الفادر	أستاذ	عضوا	جامعة تلمسان

السنة الجامعية : 1441هـ / 2019م- 2020م


بسم الله الرحمن الرحيم

قبس

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)﴾ [الإسراء:88]

كلمة شكر وعرفان:

بداية أشكر الله على نعمه الظاهرة والباطنة.

و في الحديث "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ".فإني أعبر عن خالص شكري، وعظيم امتناني، لمشرفي الأستاذ الدكتور محمد زعراط على تشجيعه، ومساعدته، وتوجيهه ودعمه لي خلال إنجاز هذه الرسالة، والذي سار معي في هذا البحث خطوة خطوة، ولم يتوان لحظة واحدة في تقديم يد المساعدة العلمية والمعنوية لي وخاصة ثقته التي منحني إياها.

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى لجنة المناقشة الموقرة التي شرفتني بقبول مناقشة هذا البحث.

وأشكر كل القائمين على كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية بصفة عامة، وعلى قسم الحضارة بصفة خاصة؛ لاهتمامهم بما يثري هذا الفن وتبني ودعم المهتمين به.

كما أشكر كل من ساهم في إنجاح هذا العمل، وأسأل الله الشاكر العليم أن يكون خالصا لوجهه الكريم.

إهداء

أهدي ثمرة عملي:

- إلى أمي ثم أمي ثم أمي شفاها الله وأطال عمرها.
- إلى أبي عليه آلاف الرّحمات.
- إلى الزوجة الكريمة وأبنائي الأعزاء.
- إلى كل الأحبة والأصدقاء.
- إلى أوّل من علمني حرفا.

المقدمـــة

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صل أفضل صلواتك على سيدنا محمد أسعد مخلوقاتك، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى كل عبد مصطفى، وبعد:

فما زال هذا القرآن المجيد الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(42)﴾[فصلت:42] آية باقية ومعجزة خالدة إذ هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم للتحدي والإعجاز ، وللهداية والإرشاد، المتعبد بتلاوته وحفظه والعمل به ، والمنقول إلينا بالتواتر.

فالقرآن الكريم هو كتاب الله المعجز في بلاغته وأسلوبه ونظمه وفي تأثير هدايته، وقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا القرآن معجزة عقلية للأمة الإسلامية والإنسانية، ولا يزال آية باقية تتحدى الأمم والأجيال على مرّ العصور والدهور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد اهتم جمهور العلماء قديما وحديثا بالقرآن بحثاً ودرساً وتفسيرا وشرحاً وحفظا، وتأصيلا وتقعيدا، واهتموا بخصائصه ومزاياه التي كان بها وحيا معجزا تحدى الله به الأجيال كلها أن تأتي بمثله أو بسورة من مثله كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88)﴾ [الإسراء:88]

ونظرا لعظمته وقدسيته تفانى العلماء في دراسته، والبحث في خصائصه، وبالأخص في إعجازه البلاغي والعلمي، وعلى الرغم من هذا الاهتمام المتزايد تجاه كتاب الله بصفة عامة، وتجاه قضية الإعجاز بصفة خاصة، فإن الدارس لهذه القضية يلمس تلك الآراء المتباينة والرؤى المختلفة في طريقة تناولها وبيان وجوه الإعجاز فيها.

كل هذا يبين لنا أهمية الخطاب القرآني وشرفه في تأصيل النظريات اللغوية والإعجازية والأصولية، والمقاصدية، والفقهية ... وشرفه إنما هو من شرف القرآن، ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه.

فبات من المؤكد إذن أن دراسة قضية الإعجاز عند المفسرين وصياغتها صياغة علمية تتناسب مع قيمتها اللغوية والفكرية، يستحق أن يفرد له بحث علمي خاص، ذلك أن البحث في هذه القضية يتناول موضوعا هاما برزت فيه حيوية البحث من حيث كونه موضوع الفكر المعاصر والقراءات الجديدة اللغوية واللسانية والمنهجية.

فكان لابد إذ ذاك من الوقوف على حقيقة الإعجاز وبيان مدى أهمية معرفة ذلك تثبيتا وترسيخا لإيمان المؤمنين، ودحض شبهات المشككين في القرآن الكريم.

إشكالية البحث:

يندرج موضوع الرسـالة حول الخطاب القرآني ضمن سلسلة البحوث الإعجازية التي تناولت النص القرآني بواسطة جملة من التفـاسير سواء ما تقادم منها لدى العصور الإسلامية، أو لدى المتأخرين، وقد راودتني فكرة البحث في موضوع " الخطـاب القرآني"

من الوجهة الإعجازية ومن خلال التفاسير على اختلاف مناهجها لما شكله موضوع الإعجاز ومنظومة التفسير من تكامل وتقارب علميين.

ومن خلال ما سبق ذكره فإنّ الإشكال المطروح هنا هو: ما مدى علمية الدراسات القرآنية في قضية الإعجاز القرآني، علما أن التفاسير قد تنوعت من أثرية إلى عقلية، إلى لغوية إلى صوفية، ومـــا حقيقة إشكالية الإعجاز في القرآن الكريـــم؟ وما حقيقة الإعجاز في كل من القضايا البلاغية واللغوية والتاريخية والاجتماعية والحضارية؟ وما نظرة العلماء القدامى والمحدثين لذلك؟ وما هي الأسباب وراء حركة التأليف في هذه القضية؟ وما أثر اختلاف ثقافة العلماء في تحديد حقيقة الإعجاز القرآني؟.

وإذا كان كذلك، فما علاقة الإعجاز بالخطاب القرآني خاصة؟ وإلى أي مدى يمكن أن يكون تحديد حقيقة الإعجاز مؤثرا في القضايا اللغوية والفقهية والأصولية ومعتبرا في الأثر والنظر؟.

ثم بعد هذا كله، ما مدى علمية أقوال المفسرين في قضية الإعجاز؟ وما هي المناهج المستخدمة في تحديد حقيقة ذلك؟

كل هذه التساؤلات أدت إلى البحث في هذا الموضوع، فجاء موسوما بـــ

"الخطاب القرآني. دراسة في قضايا الإعجاز عند المفسرين."

أسباب اختيار الموضوع:

وكان وراء اختيار هذا الموضوع – إضافة إلى ما سبق– مجموعة أسباب ودوافع منها:

1–الأهمية البالغة لقضايا الإعجاز في الحياة المعاصرة، خاصة وأن العلم والزمن والدراسات تثبت أنّ القرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه منزل من حكيم حميد.

2– إبراز فلسفة لغة الخطاب القرآني.

3– محاولة إبراز مزايا القرآن الكريم وخصائصه باعتباره معجزة خالدة.

4– إن بحث هذا الموضوع، دليل على أصوله العريقة، وأركانه الثابتة، وفروعه الممتدة إلى يومنا هذا، والذي يؤكد إلى درجة اليقين أن القرآن الكريم هو كتاب خالق الأكوان والانسان والجان.

5– إبراز مكانة اللغة العربية في مسايرة ركب التطور في مختلف المجالات، فوجب إذ ذاك محاولة لم وجمع شتات هذا الموضوع من كتب التفسير واللغة في رسالة علمية تكون خلاصة وزبدة في هذا الموضوع.

الدراسات السابقة في الموضوع:

في الحقيقة هناك دراسات مختلفة حول قضية الإعجاز، إلا أنها كانت دراسات من وجهة محدودة في تخصص معين، أمّا كدراسة شاملة تأصيلية لهذا الموضوع، ففي حدود علمي أنها متناثرة، فالإمام الشافعي في كتابه "الرسالة" تكلم عن الأغمض من فنون وبلاغة اللسان العربي، ثم جاء الذي له السبق في تشييد صرح قواعد اللسان العربي في تحصيل مقصود الشارع؛ وهو أبو المقاصد الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات".

وأما الدراسات الحديثة فقد جاءت متناثرة وغير محددة بدراسة هذا الموضوع، ومن الموضوعات المطروحة في هذا، بحث الدكتور نعمان جغيم، الموسوم ب: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، وهو عبارة عن بحث تكميلي لنيل درجة الدكتوراه، وكذا بحث الدكتور أحمد الريسوني الموسوم ب: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي.

منهج البحث:

الحق أنّ طبيعة المادة المدروسة هي التي تحدد منهج بحثها، ومن هنا كان المنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج الوصفي القائم على وصف الظواهر اللغوية والتحليل والاستنتاج، وذلك بعرض النصوص والآراء مع تحليلها ومقارنتها، ثم استخلاص حقيقة قضايا الإعجاز، وعلى ضوء هذا التحليل والمقارنة والاستنتاج نستخلص مدى علمية آراء ومواقف أهل اللغة والتفسير في موضوع الإعجاز.

هذا بالنسبة للمنهج العام للبحث، أما فيما يخص المنهج الشكلي فكان كما يلي:

1- عزو الأقوال إلى أصحابها من خلال ذكر اسم المؤلف، ثم عنوان الكتاب مع رقم الطبعة إن وجد، ودار النشر، ثم تاريخ الطبع، وأخيرا الجزء ثم الصفحة. هذا عند ذكره لأول مرة، فإن أعيد اكتفيت بذكر صاحب الكتاب مع عنوانه، ثم الجزء والصفحة.

2- تخريج الآيات القرآنية من خلال ذكر السورة ورقمها معتمدا في ذلك على رواية حفص عن عاصم، مع ذكرها في المتن.

3- تخريج الأحاديث النبوية من خلال كتب الحديث المشهورة بذكر الكتاب، والباب، ورقم الحديث، إن أمكن مع الجزء والصفحة، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما

اكتفيت بهما، دون تعليق عليه، وإن كان في غيره من كتب السنة، رجعت إلى كتب تخريج الحديث للنظر في درجته، ومدى صحة الاستدلال به.

4- تفسير ما خفي معناه من المفردات والتراكيب والمصطلحات الواردة في الهامش غالبا مع كتابة بعض التعليقات بما له حاجة ومناسبة.

5- عند إيراد المصادر والمراجع أقدم بالذكر ما تعرض للفكرة بدرجة أكبر وأغزر.

6- محاولة تنسيق مادة المذكرة وترتيبها وتنظيمها وعرضها بشكل يساعد على سهولة استيعابها، مع الحرص على سلامة اللغة وعرضها بأسلوب أصولي لغوي، وذلك على قدر الاستطاعة والوسع.

7- قد أقتصر على ذكر عنوان بعض المصادر والمراجع مختصرا عند كثرة تكراره.

8- ما ذكر بين "..." فهو منقول حرفيا، وأما ما تصرفت فيه أو نقلته بمعناه فلا أضع العلامتين،وأكتفي بالإحالة عليه في الهامش.

9- ذيلت الرسالة بفهارس عامة كما هو موضح في خطة البحث.

خطة البحث :

لبيان حقيقة الإعجاز بمختلف أنواعه العلمية واللغوية والبلاغية وغيرها، كان لابد من استقراء المادة العلمية من مراجعها الأصلية، ومحاولة جمعها وعرضها عرضا مناسبا في كل فقرة من فقرات البحث بالاعتماد في هذا –بعد عون الله– على مؤلفات المفسرين واللغويين.

ومن هنا جاءت الدراسة كما يلي:

لقد قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، خصصت المقدمة لبيان إشكالية البحث، وأسباب اختيار الموضوع، والهدف من هذا الاختيار، والكتب التي تناولت هذا الموضوع بالدراسة، وطريقتي في تناوله وتحريره.

أما الفصل الأول: فقد خصص لحقيقة الإعجاز.

وأما الفصل الثاني فقد خصص للضوابط المنهجية للخطاب القرآني.

وأما الفصل الثالث فخصص لوجوه الإعجاز في الخطاب القرآني.

أمّا الخاتمة فنبهت فيها على بعض كبريات القضايا المهمة، وبعض التوصيات التي يقتضيها المقام.

مصادر ومراجع البحث:

في الواقع أن عُمدة ما في هذا البحث من المادة العلمية أستقرئ من كتب المفسرين واللغويين وبدرجة أولى، كدلائل الإعجاز للجرجاني، وابن قتيبة.

ولكن هذا لا يمنع من الاستعانة بمصادر ومراجع أخرى في شتى الفنون كعلوم القرآن والمؤلفات القديمة والمتأخرة، وكتب التراجم والسير والقواميس والمعاجم وغيرها مما له علاقة بالموضوع.

العقبات التي واجهت البحث:

ختاما، أضع هذا البحث بين يدي الأساتذة الكرام، ولا يخلو أي بحث في طريقه من عقبات سرعان-بعون الله- ما ذُللت ومعضلات ما لبثت -بتوفيق الله- أن فُكت، حتى تم هذا العمل بعناية الله وكرمه، ومن هذه العقبات:

1. تشتت المادة العلمية وتفرقها بين أجزاء كتب التفسير، ممَّ صعب علي لمَّ شتاتها وضم ما تناثر منها تحت سياق واحد.

2. صعوبة عرض المادة العلمية المتعلقة بالإعجاز لاختلاف أسلوبها ولغتها ومنطلقاتها ووجهاتها ومذاهبها الفكرية والعقائدية.

وبعد: وبالرغم مما بذل في هذا البحث من جهد فإنه لا يخلو من أخطاء، شأن كل أعمال البشر، فما كان مني من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأسأل الله الرحمن الرحيم: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ البقرة:[286]

فاللهم أخرجنا من ظلمات الوهم، وأكرمنا بنور الفهم، وسهل أخلاقنا بالحلم، وانفعنا بنور العلم، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وأسأل الله تعالى أن يلطف بنا في الدنيا والآخرة، إنّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

الفصل الأول:

حقيقة الإعجاز القرآني

* حقيقة الإعجاز والمعجزة
* اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن
* علاقة الإعجاز بالخطاب القرآني
* أثر قواعد اللغة العربية في بيان وضبط الخطاب القرآني
* أثر الفصاحة في بيان الخطاب القرآني وضبطه

حقيقة الإعجاز والمعجزة:

إنّ التساؤل الذي يتعين أن يُطرح في بداية هذا الفصل هو ماذا يستفيد الباحث من التعرف على حقيقة الإعجاز؟

وإذا كان الباحث يتشوق في ذلك إلى أن يزداد اليقين بوجود خالق لهذا الكون – الله عز وجل، وأن يقرأ القرآن الكريم بتمعن وتفهم للمعانى، وأن يكون القرآن مصدر العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وأن يتحلى المسلم بأخلاق الإسلام ويكثر من الأعمال الصالحة فإن معرفة الإعجاز القرآني أصبحت ضرورية خاصة في عصر التطور العلمي المتسارع وظهور آيات الله في الكون.

الإعجاز لغة و اصطلاحا:

أ. لغة: حددت الكثير من المعاجم العربية مفهوم الإعجاز تحديداً معجمياً.

فهو مشتق من العجز. والعجز: الضعف أو عدم القدرة، والإعجاز مصدر «أعجز»: وهو بمعنى الفوت والسبق"[1]

فالإعجاز في اللغة يدور حول إثبات العجز، وهو الضعف والقصور عن فعل الشيء، وأصله التأخر عن الشيء وهو ضد القدرة، ومنه المعجزة. فالقرآن معجز بنفسه أي: المراد به الإعجاز، كما أن المقصود به بيان الأحكام، والمواعظ، وقص أخبار من قص في القرآن من الأمم، دليل التحدي: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: 88]

[1]- ابن منظور لسان العرب، ط: 06، دار صادر، بيروت، (1417هـ- 1997م) مادة «عجز»، ج 5، ص370.

أي: فأتوا بمثله إن ادَّعيتم القدرة، فلما عجزوا، تحداهم بعشر سور، ثم بسورة، ثم بحديث مثله.وفي القران الكريم آيات كثيرة تدل على التحدي منها قوله تعالى: ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة:3] وقوله تعالى ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: 46]، و﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: 20]، و﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور:57]، وفي سور اخرى آيات كثيرة (الأنعام[134]، يونس[53] وهود[33] والعنكبوت[22] والشورى [31]).

جاء في لسان العرب لابن منظور: العجز: نقيض الحزم، عجّز فلان رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم، كأنه نسبه إلى العجز، والعجز: الض عف، تقول: عجزت عن كذا أعجِز.والمعجزة بفتح الجيم وكسرها مفعلة من العجز وعدم القدرة، وأعجزه الشيء؛ عجز عنه. ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان أي فاتني، والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام. "[1]

وبهدا فالعجز معناه الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان إذا فاتني، ومنه قول الأعشى:

فذاك ولم يعجزْ منَ الموتِ ربَّه ولكن أتاهُ الموتُ لا يتأنقُ"[2]

فقد حددت الأمثلة السابقة مفهوم العجز تحديدا لغوياً، فرجع ابن منظور إلى جذره اللغوي ليقف على دلالته اللغوية، ثم انتقل في الأخير إلى دلالة أخرى فكان معنى الإعجاز الفوت والسبق.

[1]- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص:42.

[2]- المصدر نفسه، مج:10، ص:45.

وفي اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة"[1].

"فلفظ المعجزة مَأْخُوذ من الإعجاز وَذَلِكَ أَنَّك تَقول عجز فلَان عَن كَذَا عَجزا إِذا لم يقدر عَلَيْهِ وَلم يقم بِهِ وأعجزته إعجازا إِذا جعلته يعجز وَتقول أعجزني الشَّيْء إِذا فاتك وَلم تقدر عَلَيْهِ

وَكلهَا رَاجِعَة إِلَى أَن الْعَاجِز عَن الشَّيْء هُوَ الَّذِي لَا يتَمَكَّن منه وَلَا يقدر عَلَيْهِ وقد جاءت المعجزات لتدل على صدق الأنبياء وقد سميت معجزات لأنها غير قابلة ليؤتى بمثلها فهي خالقة للعجز لدى من تحدتهم المعجزة، وهده الأمور التي يقع العجز عِنْدهَا تسمى معْجزَة بالتوسع وَذَلِكَ من تسمية الشَّيْء باسم غَيره إِذا جاوزه أَو كَانَ مِنْهُ بِسَبَب." [2]

وأمّا في القاموس المحيط: "العَجْزُ والمعْجِزُ والمعْجَزَةُ، وتفتح جيمهما، والعَجَزَان محركة، والعُجُوز بالضم: الضعف... وأعجزه الشيء؛ فاته، وفلانا وجده عاجزا وصيّره عاجزا، والتعجيز التثبيط والنسبة إلى العجز، ومعجزة النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة."[3]

وقوله تعالى (معاجزين) أي يعاجزون الأنبياء وأولياءهم، يقاتلونهم ويمانعونهم ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله تعالى، أو معاندين مسابقين أو ظانين أنهم يعجزوننا"[4]

---

[1]ـ ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ القرطبي (ت: 671هـ)، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: 2، 1384هـ - 1964 م، دار الكتب المصرية – القاهرة ج:01، ص:96.

[2]ـ ينظر: القرطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ص: 239.

[3]- ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، ط:06، مؤسسة الرسالة، (1419هـ-1998م)، ج:04، ص:516.

[4]- المصدر نفسه، ص:516

ويبدو أن هذا العالم دقق في اللفظ، فانطلق من العام إلى الخاص، إذ أتى بالجذر اللغوي وحدد معناه، ثم انتقل إلى تعداد أغلب الدلالات السياقية لهذا المفهوم، وكشف بذلك عن التطور الدلالي الذي أصاب هذا اللفظ، وكشف أيضاً عن طواعيته وليونته من خلال هذه الاستعمالات المتعددة ليصل إلى لفظ معجزة فعرّفه بأنه ما أعجز به الخصم عند التحدي، وينتقل بعدها إلى النص القرآني ليقف على دلالته القرآنية، فالتقى بذلك مع ابن منظور في أن اللفظ يعني التثبيط والفوت والسبق كما وقفا كلاهما عند قوله تعالى (معاجزين).

وعرفها الأشعري بقوله: "المعجزة فعل خارق للعادة مقترن بالتحدي، سليم من المعارضة، ينزل منزلة التصديق بالقول من حيث القرينة، وهو منقسم إلى خرق المعتاد وإلى إثبات غير المعتاد."[1]. فالعرب وهم أهل الفصاحة تعذر عليهم فعل مثل القرآن فيما اختص به من وجوه الإعجاز. وعالج المعجم الوسيط هذه الوحدة المعجمية بادئاً بالدلالة الحسية "عَجَزَتِ المرأة عجوزاً: كبرت وأسنت. وعجزت عن الشيء عجْزاً وعَجَزَاناً: ضَعُفَ ولم يقدر عليه. ويقال: عجز فلان: لم يكن حازماً.. وأعجز فلان: سبق فلم يدرك، وأعجز الشيء فلاناً: فاته ولم يدركه. ويقال: أعجزه فلان، وأعجزه: صيّره عاجزاً. وأعجزه فلانا: وجده عاجزاً، وعاجز فلان: ذهب فلم يوصل إليه ولم يقدر عليه. يقال طلبته فعاجَزَ: سبق فلم يُدرك... والمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبي تأييداً لنبوته، والمعجزة: ما يعجز البشر أن يأتوا بمثله"[2]

[1]- الشهرستاني: الملل والنحل: تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج:02، ص:93.

[2]- ينظر: نصر حامد أبو زيد: الاتجاه العقلي في التفسير: ط:01، دار التنوير، بيروت، 1982م، ص:100.

وغطى هذا المعجم هذا اللفظ بكل جوانبه الدلالية وأنواعها الحسية والمعنوية المجردة، والمعجمية والسياقية، ليقف في الأخير عند الدلالة الاصطلاحية الدينية، وبذلك شمل كل معاني اللفظ.

وهكذا فإنّ المعاجم العربية تتبعت هذا اللفظ معجمياً، كما سجلت بعض الدلالات المستحدثة، والسياقية المرتبطة بالنص الديني، وعلاقة الإعجاز بالله والعباد، وقد حرص علماء اللغة على ربط الحسي بالمجرد في تحديد هذا المفهوم. أمّا ابن خلدون فقد كانت له وجهة متميزة. قال: "إعجاز القرآن إنما هو في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال، منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة وصفها وتركيبها"[1].

فكشف هذا العلامة عن الدلالة الاصطلاحية لهذا اللفظ انطلاقاً من تعريف شامل وتام، واجمل، بذلك، الحديث من كل جوانبه، فكان الإعجاز يختص بوفاء الدلالة بجميع مقتضيات الأحوال، وهو يمثل قمة الكلام من خلال الألفاظ من حيث الانتقاء والجودة والوصف والتركيب. وبهذا تميز ابن خلدون عن بقية العلماء بابتعاده عن تحديد الإعجاز تحديداً لغوياً وبشكل عام، ليصل إلى تحديد مفهوم الإعجاز تحديداً دقيقاً يجمع بين العلمية والكمال دون الابتعاد عن سياق القرآن الكريم وارتباط الإعجاز به.

والواقع أن مفهوم الإعجاز يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم ويقترن أيضاً بالتحدي والمعارضة، وبخصائص اللغة العربية ومدى طواعيتها على تقبل نمطين من الكلام الأول إلهي

[1]- ينظر:أحمد مصطفى المراغي: تاريخ علوم البلاغة العربية، ط:01، مصطفى البابي الحلبي. 1950م، ص: 49.

سماوي، والثاني بشري أرضي. قال محمود محمد شاكر: "فإذا صحّ أن الإعجاز كائن في وصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي مبين"[1]، وأنّ خصائصه مباينة للعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم، لم يكن لتحديهم به معنى إلا أن تجتمع لهم وللغتهم صفات بعينها:

أولا :أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً، قادرة بطبيعتها أن تتحمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه.

ثانيا: أن أهلها قادرون على إدراك هذا الحاجز الفاصل بين الكلامين.

وهذا إدراك دال على أنهم قد أتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسرار وجوهه، قدراً وافراً يصح معه أن يتحداهم بهذا القرآن، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه، وأنّ تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل.

ثالثاً: أنّ البيان كان في أنفسهم أجلّ من أن يخونوا الأمانة فيه، أو يحوروا عن الإنصاف في الحكم عليه، فقد قرّعهم وعبرهم وسفه أحلامهم وأديانهم، حتى استخرج أقصى الضراوة في عداوتهم له، وظل مع ذلك يتحداهم، فنهتهم أمانتهم على البيان عن معارضته ومناقضته.

لقد وُفق هذا الدارس في الوقوف على أهم خصائص العرب ولغتهم، وعلاقة كل ذلك بإعجاز القرآن الكريم المفضي إلى الإيمان به والتصديق برسوله من دون البشر، وفي

[1] -عدنان محمد زرزور، علوم القرآن- مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، ، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ط1، 1979م، ص: 230.

هذا قمة التحدي وإثبات العجز. وشرح عبد العزيز عبد المعطي هذه الأسباب بكثير من التفصيل والتوسع."[1]

وأما مالك بن نبي فقد حدد مفهوم الإعجاز بالقول: "أهل اللغة يرون أنّ الإعجاز هو الإيقاع في العجز. وأهل الإصلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن إلى خصومه من المشركين ليعجزهم بها. فأما حين تريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر لحجة، وإدراك المسلم لحجة الإسلام بخاصة فلا بد من مراجعة القضية في ضوء التاريخ" [2]

وبذلك يكون قد حدّد هذا المفهوم في الإطار اللغوي، والإطار الديني، والإطار التاريخي ليستشهد بعد ذلك بآيات التحدي في القرآن الكريم، ولينتقل إلى مستوى آخر من التحديد، فيقول "فالإعجاز هو بالنسبة إلى شخص الرسول الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها، وهو بالنسبة إلى الدين وسيلة من وسائل تبليغه. وهذان المعنيان للإعجاز يضفيان على مفهومه صفات معينة:

أولاً: أن الإعجاز كحجة لا بد أن يكون في مستوى إدراك الجميع، وإلا فاتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم، فهو تنكرها من حسن نية أحياناً.

ثانياً: ومن حيث كونه لتبليغ دين: أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثالثاً: ومن حيث الزمن: أن يكون تأثيره بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه. وهذه

[1]- ينظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ط:04، دار المعارف ، مصر، ص:29.

[2]- ينظر:نصر حامد ابوزيد: الاتجاه العقلي في التفسير، ط1 دار التنوير بيروت 1982م، ص 100، 101.

الصفة الثالثة تحدد نوع صلته بالدين، الصلة التي تختلف من دين إلى آخر، باختلاف ضرورات التبليغ"[1] ويكشف هذا التوجه عن مستوى من التحليل يحدد صفات الإعجاز من حيث الحجة والوسيلة والزمن.

وكان مصطفى صادق الرافعي من الذين حدّدوا هذا المفهوم، فقال: "إنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأنّ العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت؛ فيصير من الأمر المعجز إلى ما يشبه في الرأي مقابلة أطول الناس عمراً بالدهر على مداه كله، فإنّ المعمر دهر صغير، وأن لكليهما مدة من العمر هي من الجنس الأخرى، غير أن واحدة منهما قد استغرقت الثانية؛ فإن شاركتها الصغرى إلى حد فما عسى أن يشركهما فيما بقي

وينبع هذا التحديد من استقراء لأهم تحديدات العلماء للإعجاز، فالرافعي من الباحثين المتخصصين في دراسة الإعجاز، وقد ربط تحديده هذا بالزمن وعلاقته بضعف المقدرة الإنسانية التي لا تعني إنساناً واحداً، بل تعني كل الناس، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وربط هذا الباحث الإعجاز بالقرآن الكريم فقال: "إن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالعجز من غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتىً ولا جهة؛ وإنما هو أثره كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصيغة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من

[1] – ينظر: تيسير شيخ الأرض ما وراء النقد 103 مجلة الفكر العربي عدد 25 فبراير 1982 عدد خاص بنظرية الأدب والنقد الأدبي.، ص101.

الألفاظ كأنها مفرغة إفراغاً من دون تلك المواد كلها، ومانظنه إلا الصورة الروحية للإنسان، إذا كان الإنسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله" [1]

ومما تقدم فإنّ الإعجاز يعني الفوت والسبق والتثبيط، وهو يخص القرآن الكريم المعجز بمجموعة من الخصائص التي جعلت الناس لا يقدرون على الإتيان بمثله.

هَذَا شرح للفظ المعجزة.

"**فَأَما حَقِيقَتهَا** فَهُوَ أَمر خارق للْعَادَة مقرون بالتحدي مَعَ عدم الْمُعَارضَة

إِنَّمَا قُلْنَا أَمر وَلم نقل فعل ليشتمل بذلك على الْفِعْل الخارق للْعَادَة وَالْمَنْع من الْفِعْل الْمُعْتَاد فَلَو قَالَ نَبِي آيتي أَنه لَا يقدر أحد أَن يتَكَلَّم الْيَوْم فَكَانَ ذَلِك لَكَانَ ذَلِك دَلِيلا على صدقه وَيكون ذَلِك معْجزَة لَهُ مَعَ أَنه لَيْسَ إتيانا بِفعل عرفي وَإِنَّمَا هُوَ منع من فعل مُعْتَاد وَإِنَّمَا قُلْنَا مقرون بالتحدي لِئَلَّا يتَّخذ الْكَاذِب معْجزَة من تقدمه حجَّة لنَفسِهِ ولتتميز عَن الْكَرَامَة وَمَا فِي مَعْنَاهَا وَإِنَّمَا قُلْنَا مَعَ عدم الْمُعَارضَة لتتميز عَن السحر والشعوذة، وَإِذا حققت النّظر فِيمَا ذَكرْنَاهُ فِي حد المعجزة علمت شُرُوطهَا لَكِن يَنْبَغِي لَك أَن تعرف أَن المعجزة لَا تكون دَلِيلا إِلَّا فِي حق من علم وجود الْبَارِي تَعَالَى وَأَنه قَادر عَالم مُرِيد مَوْصُوف بِصِفَات الْكَمَال حَتَّى يَتَأَتَّى مِنْهُ الْإِرْسَال والتصديق والتكليف وَإِذا لم يعرف النَّاظر هَذِه الْأُمُور بأدلة عقليه لم يعرف المعجزة وَلم يفده الْعلم بالتصديق للنَّبِي" [2].

[1]- ينظر: الرافعي:إعجاز القران والبلاغة النبوية، ط:8، مكتبة رحاب الجزائر، ص:14.

[2]_ ينظر: القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تح: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ص: 239.

"ومعجزة القرآن هي المعجزة العظيمة، والآية الباقية ما بقيت الدنيا، ولا يشك الموافق والمخالف في مجيء محمد – صلى الله عليه وسلم – به وظهوره من قبله، وإن أنكر هذا معاند جاحد فهو كإنكار وجود محمد – صلى الله عليه وسلم – في الدنيا، وإنما جاء اعتراض الجاحدين في إعجازه وظهور الحجة به.

ومن المعلوم بالضرورة أنه – صلى الله عليه وسلم – تحدى العرب بما فيه من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته، وأن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عن معارضته، وأحجموا عن مساجلته، وهم – كما قال بعض العلماء في وصفهم – كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم ما لا يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، يأتون من ذلك على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بدهيا في المقامات، وشدة الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون، ويقدحون، ويتوسلون، ويتوصلون، ويرفعون، ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها." [1]

"فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول. وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا، وأشهر في الخطابة رجالا، صارخا بهم في كل حين، ومقرعا لهم بضعة وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين:

[1] – ينظر: عبد العزيز بن أحمد بن ناصر، منحة القريب المجيب في الرد على الصليب، تحقيق: محمد بن عبدالله بن حمد السكاكر، دارة الملك السعودية، الرياض، 1999/1419م ج:02، ص:425.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:38] .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:23].

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .[الاسراء:88]

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:13] .

فلم يزل – صلى الله عليه وسلم – يقرعهم أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلاهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، مخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاغتراء بالافتراء." [1]

آيات إعجاز الرسل:

1- لقد أيّد الله تعالى رسله بالآيات المادية المعجزة ، وكان آية إعجاز كل نبي مما تفوق فيه قومه ، حتى تكون الآية معجزة.

2- فكانت معجزة موسى عليه السلام العصا، لتلقف ما صنع السحرة من السحر

[1] _ ينظر: عبد العزيز بن أحمد: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، ج: 02، ص: 426/427.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى(19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)﴾ [طه : (17-20)]

3- وكانت آية عيسى (علية السلام) إشفاء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله : ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. [آل عمران:49].

4- وكانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القرءان الكريم ، لما تفوق فيه العرب من الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان ، والشعر ، والمعلقات. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:1]

هكذا جاءت آيات القرآن الكريم معجزة ومتحدية أن يُأت بمثله أو مثلها على المستويات التالية:

1- كان التحدي للإنس والجن أن يأتوا بمثله:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : 88]

2- ثم كان التحدي لأن يأت المشركين بعشر سور مفتريات مثله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود : 13] .

3- ثم زاد التحدى أن يأتوا بسورة واحدة من مثله :

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة : 23].

"وأما وجه دلالتها فَهُوَ أَن الْمشَاهد للمعجزة المتحدي بهَا إِذا علمهَا وَعلم شُرُوطهَا علم على الضَّرُورَة أَن الله تَعَالَى قصد بذلك المعجز تَصْدِيق الْمُدَّعِي ويتبين هَذَا بمثال وَذَلِكَ أَنه لَو فَرضنَا ملكا عَظِيما اجْتمع لَهُ أهل مَمْلَكَته فِي مَجْلِسه وَأهل المملكة مصغون لما يَأْمُرهُم بِهِ ذَلِك الْملك، فَقَامَ رجل من بَين يَدَيْهِ وَقَالَ إِنِّي رَسُول هَذَا الْملك إِلَيْكُم وَقد أَمرنِي أَن أبلغكم أمره وَنَهْيه وَأَنا صَادِق فِي قولي هَذَا ثمَّ يَقُول يَا أَيهَا الْملك إِن كنت صَادِقا فِيمَا أقوله عَنْك فَخَالف عادتك وقم عَن سريرك قيَاما تخَالف بِهِ الْمُعْتَاد من فعلك فَإِذا فعل الْملك ذَلِك عِنْد تحدي الْمُدعى فَإِن أهل الْمجْلس يضطرون إِلَى الْعلم بِأَن الْملك قصد ذَلِك الْفِعْل تَصْدِيقه وَلَا يعتريهم فِي ذَلِك ريب وَلَا توقف فتنزلت إِذن تِلْكَ الْأَفْعَال بِتِلْكَ الشُّرُوط منزلَة قَوْله صدقت أَنا أرسلتك وَهَذَا بَين بِنَفسِهِ عِنْد كل موفق منصف مَعْلُوم على الْقطع.

فَإِذا تقرر ذَلِك فمهما ادّعى شخص الرسَالَة وَاسْتدلَّ عَلَيْهَا بِمثل مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ محقا فِي دَعْوَاهُ صَادِقا فِي قَوْله لَا يجوز لعاقل أَن يتَخَلَّف عَن مُتَابَعَته سَوَاء ادّعى عُمُوم رسَالَته أَو خصوصها ورسولنا مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قد ادّعى عُمُوم رسَالَته وَاسْتدلَّ على صدقه

بالمعجزات على الشُّرُوط الَّتِي ذَكرنَاهَا فَهُوَ صَادِق وَلَا يجوز لعاقل بلغه أمره أَن يتَخَلَّف عَن مُتَابَعَته وتصديقه، وَسَنذكر إِن شَاءَ الله بعض مَا أمكن ذكره من معجزاته فَإِنَّهُ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قد أُيِّد بمعجزات كَثِيرَة حَتَّى إِذا جمعت وتتبعت علم مِنْهَا أَن الله تَعَالَى قد جمع لَهُ أَكثر معجزات الْأَنْبِيَاء قبله وَخَصه بمعجزات لم يُشَارِكهُ فِيهَا غَيره مِنْهُم وستقف إِن شَاءَ الله على أَكثر ذَلِك." [1]

وجاء: ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 32]

وجاء:﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾[فاطر:44]

والمقصود بها أنّ المخاطب بها لا يعجز الله تعالى، بل هو سبحانه قادر عليهم، وهم في قبضته، وتحت قهره، ومشيئته.

وجاء على لسان ابن آدم أنه قال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ [المائدة: 31] أي ضعفت في عقلي وتفكيري أن أفعل هذا الفعل، ولم أهتد إليه لضعفي وعجزي، وظاهر أن العجز هنا في هذه الآية هو ضعف في التفكير، وعدم التوصل بفكره إلى حفر حفرة يواري فيها جثمان أخيه المقتول، فإنه بعد أن رأى فعل الغراب واراه فقد كان عاجزاً في فكره قادراً بعمله، فالعجز يطلق على الأمور المادية والمعنوية. ومصدر أعجز: إعجاز.

[1]- ينظر: القرطبي: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ص: 240.

وإعجاز القرآن: معناه: إظهار صدق النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة–وهي القرآن– وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك.

وذلك أن القرآن قد سما في علوه إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلو في بلاغته، أو تشريعه، أو مغيباته.

وإعجاز القرآن: يقصد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، أي نسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله.

وبالتالي فهو ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولتها، على شدة الإنسان واتصال عنايته في ذلك، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه.

"فَإِن قَالَ قَائِل فَإِذا قدر الْعباد عنْدكُمْ على مثل الْكَلِمَة والكلمتين والحرف والحرفين فَمَا أنكرتم أَن يقدروا على مثل جَمِيعه وَألا يكون فِي ذَلِك إعجاز يُقَال لَهُ لَو وَجب مَا قلته لوَجَبَ إِذا قدر النَّاس على مثل مَا سَأَلت عَنهُ أَن يَكُونُوا كلهم شعراء وخطباء وَأَصْحَاب نظم ورسائل لقدرتهم على الْكَلِمَة والاثنتين وَهَذَا جهل مِمَّن صَار إِلَيْهِ وَلَيْسَ يجب إِذا تعذر على الْإِنْسَان نظم الْكثير أَن يتَعَذَّر عَلَيْهِ نظم الْيَسِير كَمَا لَا يجب إِذا تعذر عَلَيْهِ شرب مَاء الْبحار والأنهار أَن يتَعَذَّر عَلَيْهِ شرب الجرعة والجرعتين وَإِذا تعذر عَلَيْهِ الصعُود إِلَى السَّمَاء وَحمل الْجبَال أَن يتَعَذَّر عَلَيْهِ قطع الذِّرَاع إِلَى فَوق والذراعين وَحمل الرطل والرطلين وَإِذا كَانَ

حمل الْجبَال والصعود إِلَى السَّمَاء آيَة لمن ظهر على يَده وَجب أَن يكون نظم الْقُرْآن آيَة لمن أَتَى بِهِ وَإِن لم يكن نظم مَا دون سُورَة مِنْهُ آيَة لأحد." [1]

"فَإِن قَالُوا كَيفَ يكون الْقُرْآن معجزا وَهُوَ غير خَارج عَن حُرُوف المعجم الَّتِي يتَكَلَّم بهَا الْخلق من أهل الفصاحة والعي واللكنة قيل لَهُم لَيْسَ الإعجاز فِي نفس الْحُرُوف وَإِنَّمَا هُوَ فِي نظمها وإحكام رصفها وَكَونهَا على وزن مَا أَتَى بِهِ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَلَيْسَ نظمها أَكثر من وجودهَا مُتَقَدّمَة ومتأخرة ومترتبة فِي الْوُجُود وَلَيْسَ لَهَا نظم سواهَا وَهُوَ كتتابع الحركات إِلَى السَّمَاء وَوُجُود بَعْضهَا قبل بعض وَوُجُود بَعْضهَا بعد بعض وَلَو كَانَ مَا سَأَلْتُم عَنهُ يبطل مزية الْقُرْآن وَمَوْضِع الأعجوبة فِي نظمه لوَجَبَ إِبطَال فَضِيلَة الشَّاعِر المفلق والخطيب المصقع والمرسل الفصيح المقتدر حَتَّى لَا يكون على أحد تكلم بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيّ وَإِن كَانَ أعيا من بَاقِل فضل لسحبان وَائِل وَ هَذَا أَيْضا جهل مِمَّن صَار إِلَيْهِ فَبَطل مَا تعلقتم بِهِ.[2]

الدَّلِيل على ثُبُوت نبوة نَبينَا مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام المعجزات:" [3]

"وَمن آيَاته الْقُرْآن وَفِيه وُجُوه من الإعجاز مِنْهَا مَا اخْتصَّ بِهِ من الجزالة وَالنّظم الْخَارِج عَن جَمِيع أساليب أوزان كَلَام الْعَرَب، وتحدى الْعَرَب بِأَن يعارضوا سُورَة مِنْهُ وَذكر أَنهم لَو عارضوها لبطلت دَعْوَاهُ وانكف عَن التَّعَرُّض لَهُم فحاولوا معارضته وهم اللدد البلغاء واللسن

[1] _ ينظر: الباقلاني:تمهيد الاوائل في تلخيص الدلائل،تحقيق:عماد الدين حيدر،ط:01،مؤسسة الكتب الثقافية،لبنان،(1407هـ-1987م) ،ص:177

[2] _المصدر نفسه،ص 178.

[3] _ ينظر: الجويني: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ،تحقيق: فوقية حسين محمود، ط:02، عالم الكتب، لبنان، (1407هـ - 1987م)، ص: 125.

الفصحاء فِي نَيف وَعشْرين سنة فَلم يتأت لَهُم مُعَارضَة من وُجُوه الإعجاز اشتمال الْقُرْآن على قصَص الْأَوَّلين مَعَ الْقطع بِأَن النَّبِي عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ أُمِّيا لَا يقْرَأ وَلَا يكْتب وَلم يعْهَد فِي جَمِيع زَمَانه متعاطيا لدراسة كتب الْأَوَّلين وتعملها وَلم يسْبق لَهُ نهضة يتَوَقَّع فِي مثلهَا دراسة الْكتب ثمَّ اشْتَمَل الْقُرْآن على غيوب مُتَعَلقَة بالمستقبل كَمَا اتّفق إنباء الْقُرْآن عَنْهَا.

لقد تحدى القرآن أهل الفصاحة والبلاغة واللسن وذوي الرزانة والدراية والفطن، فاعترفوا بالعجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة في القرآن. قال الإمام الحافظ ابن الجوزي – رحمة الله تعالى –: لما تحيروا عند سماع القرآن، وأدهشهم أسلوبه نودي عليهم بالعجز عن مماثلته بقوله ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: 23].

هذا وهم مصاقيع الكلام، وبلغاء النثر، والنظام فعدلوا عن مصاقعة اللسان إلى مقارعة السنان."[1]

يقول ابن تيمية: "وهذا التحدي كان بمكة، فإن سورة يونس وهود والطور من المكي، ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة، فقال: في سورة البقرة، وهي مدنية ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: 23] ثم قال ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24]

[1] ينظر: الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ط:02، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق،(1402 هـ - 1982 م)، ج:01، ص:171-172.

فذكر أمرين، (أحدهما) قوله: فإن لم تفعلوا فاتقوا النار، يقول: إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق، فخافوا الله أن تكذبوه فيحيق بكم العذاب الذي وعدته المكذبين، وهذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة، بعد أن دعاهم بالحكمة، وهو جدالهم بالتي هي أحسن.

(وثانيهما) قوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ [البقرة: 24]، ولن لنفي المستقبل، فثبت أنهم في المستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله، كما أخبر قبل ذلك، وأمر الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقول في سورة (سبحان) – وهي مكية افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر – ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:88] .

فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزا لهم قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا، وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي لجميع الخلق، وقد سمعه كل من سمع القرآن، وعرفه الخاص والعام، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه، ولا أتوا بسورة من مثله، ومن حين بعث – صلى الله عليه وسلم – وإلى اليوم الأمر على ذلك مع ما علم من أن الخلق كانوا كلهم كفارا قبل أن يبعث ولما بعث إنما تبعه قليل[1].

وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق يمكن، تارة يذهبون إلى أهل الكتاب يسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها، كما سألوه عن قصة يوسف، وأهل الكهف، وذي القرنين، ويجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولونه

[1]– الحنبلي، لوامع أنوار وسواطع الأسرار الأثرية في شرح الدرة المضية في عقد الفرقة الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين، دمشق، سنة 1402/ 1982، ج1، ص154.

فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما مع ظهور الفرق، فتارة يقولون مجنون، وتارة ساحر، وكاهن، وشاعر، وإلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون هم وغيرهم من كل عاقل يسمعها أنهاافتراء عليه، فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهي تبطل دعواهم، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها، فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور.

ثم هكذا القول في سائر الأرض فهذا يوجب علما بينا لكل أحد يعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة، وهذا أبلغ من الآيات التي تكرر جنسها كإحياء الموتى، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره، فإقدامه – صلى الله عليه وسلم – في أول الأمر على هذا التحدي وهو بمكة، وأتباعه قليل، على أن يقول خبرا يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله في ذلك العصر، وفي سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه بذلك وتيقنه له، وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح؛ فيرجع الناس عن تصديقه، وإذا كان جازما بذلك متيقنا له، ولم يكن ذلك إلا عن إعلام الله تعالى له بذلك، وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر، والعلم بهذا يستلزم كونه معجزا.

ونفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فإنه ليس من جنس الشعر والرجز ولا الرسائل والخطابة، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس، عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته عجيب

خارق للعادة وليس له نظير في كلام جميع الخلق – يعني من لدن آدم وإلى الآن وهذا نهاية الإعجاز"[1]

فالقرآن العظيم كلام الله القديم، ونوره المبين، وحبله المتين، وفيه الحجة والدعوة، فله بذلك اختصاص على غيره كما ثبت عنه في الصحيح أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: " ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"[2].

قال الحافظ بن حجر في الفتح يعني أن معجزتي التي تحديت بها الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، قال: وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه بل المراد المعجزة العظمى والآية الكبرى التي اختص بها دون غيره – صلى الله عليه وسلم – من الأنبياء عليهم السلام.

ولا يخفى أن كون دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – التي هي شريعته المنعوت بها، فيها معجزته التي تحدى الخلق بها من أعظم الآيات، وأبهر المعجزات، وأظهر الدلالات. ولهذا استمرت معجزته العظمى باستمرار شريعته الغراء، وفيه إشارة وتنبيه وإيماء وتنويه إلى أن هذا النبي الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين، فشريعته دائمة ما دام الملوان، ومعجزته باقية ما كر الجديدان" [3].

---

[1] _ ينظر: الحنبلي: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ط:02، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، (1402 هـ - 1982 م)، ج:01، ص:172/173.

[2] – البخاري في صحيحه (كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة ، باب:قول النبي صلي الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم) ، ج9 رقم7274.

[3] – ينظر: المصدر السابق ج:01، ص: 177.

اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن:

لقد اهتم الدارسون العرب بالقرآن الكريم وبدراسته وبيان إعجازه، ووضعوا لذلك دراسات ومؤلفات تكشف عن نظرتهم إلى الموضوع، والتي قد تصل إلى حدّ التباين لتفسير الإعجيياز الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً ههبالتحدي والمعارضة "بمثل القرآن، ثم بعشر سور مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وليس إلا النظم والأسلوب، وهم أهل الله ولن تضيف أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور. ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع"[1]

وقد ذهب العلماء في بيان الإعجاز مذاهب واتجاهات، وكل له من الحجج والبراهين ما يقوي اتجاهه.

1-الاتجاه القائل بالصرفة:

ولعل أول من قال من العلماء بالصرفة إبراهيم بن سيار النظّام، حيث ذهب إلى أنّ الله صرف الناس عن معارضة القرآن الكريم، ولم يمنحهم القوة والقدرة والاستطاعة لمثل هذا العمل، فقدرة الإنسان محدودة، وقدرة الله لا حدود لها. يقول النظام "إنّ الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام، والعرب إنمّا لم يعارضوه؛ لأنّ الله صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به"[2]

ويبدو أنّ النظام قصد إلى الاعتراف بالإعجاز والبرهنة عليه، وقدّم لذلك تعليلا، إلا أن الكثير من العلماء لم يقبلوا هذا التعليل ورفضوه، وقدّموا الحجج على بطلان هذا الرأي.

---

[1] - الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:169/170.

[2] - الرازي: نهاية الايجاز ودراية الاعجاز، ط:à-، مطبعة الآداب، (1317هـ)، ص179 .

وقف الرافعي عند هذه القضية فعالجها معالجة تجمع بين العلمية والتأثر العاطفي، قال عن النظام "فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النظام إلى أنّ الإعجاز كان لصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للمادة. قلنا وكأنه من هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن" [1].

وقال في موضع آخر من كتابه هذا "غير أنّ النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرفّ" [2]. وينبئ مثل هذا الكلام عن موقف سبقي من الرجل، ويعكس مناقشة عاطفية قبل أن تكون علمية، فالنظام يعترف بالإعجاز، فلماذا ينعت بالشيطان؟ خاصة وأنّ الرافعي يرتفع في تحليله لهذا الرأي إلى مرتبه أعلى، إذ قال: "جاء رأيه الذي علمت في مذهب الصرفة دون قدره بل دون علمه، بل دون لسانه، وهو عندنا رأي لو قال به صبية المكاتب، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنّهم قد عرفوا.

وإلا فإن من سُلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه، وهو بعدُ قادر عليه مُقرن له، لا يكون تعجيزه بذلك في البرهان إلا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة" [3].

---

[1] – الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:144.

[2] – المرجع نفسه ، ص:145.

[3] – المرجع نفسه، ص:145.

ولم يكن الرافعي وحده الذي أبطل مذهب الصرفة، بل تبعه في ذلك بعض الدارسين، فعبد العزيز عبد المعطي عرفة قدّم ستة أسباب لفساد القول بالصرفة "[1]

وأتى نور الدين العنتر بدلائل على بطلان هذا المذهب قائمة من الدلائل القرآنية، والوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية، كدلالة القرآن وشهادة العرب بروعة بيان القرآن وإعجابهم وتحيرهم من فصاحته وبيانه." [2]

لقد أجمعت هذه الآراء على رفض الصرفة كونها سبباً من أسباب الإعجاز، ويبدو هذا الموقف وجيهاً، إلا أنه لا يلغي الأمر جملة وتفصيلاً، فقد تكون الصرفة سبباً من الأسباب، ويصبح مبدأ الصرفة وارداً عند المؤمن بالله والمعترف بقدرة الله الواسعة، وبعجز الإنسان عن رفع التحدي والإتيان بمثل القرآن.

وذهب الباحث سليمان عشراتي مذهباً مميزاً ركز فيه على أدبية الخطاب القرآني فقال في هذا الشأن: "بيد أن هذه النظرة لا تصمد متى ما نظرنا إليها بعين الواقع التاريخي الذي لابس التنزيل، فلقد دأب الخطاب القرآني على الاعتداد بأدبية آياته المحكمات، ودأب أيضاً على تحدي أهل البيان أن يجاوروه فيها، فما فعلوا، قصوراً عن اقتحام أسوار أدبية لا قبل لهم بها، في كل ما مارسوه من أجناس قولية وفنون كلامية، والقول بالصرفة، علة للإعجاز، يجعل أدبية القرآن أمراً تعليمياً مدركاً، وفي مكنة الممارسات الإنشائية في حقل الإبداع" [3].

ا- ينظر عبد العزيز عرفة : قضية الاعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية: ط:01، عالم الكتب، ص:40.

[2] - ينظر: نورالدين العنتر : القرآن والدراسات الأدبية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1988م ص:155.

[3]- ينظر: سليمان عشراتي : الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الاعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، (1988م)، ص:18/17.

القول بإعجاز القرآن مبني على أسس عقلية، ومنطقية لا يرقى إليها التفنيد، ولا يقوى على تكذيبها ذوو الأغراض ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ثبت بالنص القرآني أن الله سبحانه وتعالى تحدى جميع فصحاء العرب وبلغائهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم يأتوا"، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الاسراء:88]،

وقد أجمع أهل العربية قاطبة وأهل اللَّسن منهم والبيان، على أن القرآن معجز بذاته أي أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلابة التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية"[1]،

إلا أن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين أطلعوا على أقوال البراهمة في كتابهم (الفيدا) وهو الذي يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم، ويقول جمهور علمائهم أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها، لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها، وعندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور، ومن والاه من حكام بني العباس، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول، ويطبقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق، وإن القول بالصرفة نبت أول ما نبت في رواق الفلسفة الكلامية، وأول من دعا

[1]- ينظر: محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 2004، ص:102؛ الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص: 113-148.

إليها هو المعتزل إبراهيم بن يسار النظام المتوفى سنة (224هـ)"[1]، إذ زعم أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات"[2]،

أي إن الإعجاز القرآني لا يرجع إلى ذات القرآن بل يرجع إلى الصرفة"[3]، وقد نقده تلميذه الجاحظ المتوفى في سنة (255هـ) الذي كان معجباً بشخصه، غير آخذ برأيه، إذ لم يوافق أستاذه وأنكر عليه قوله بالصرفة، وممن نسب إليه أيضاً القول بالصرفة الشريف المرتضى (ت 436هـ) من الشيعة، وفسر الصرفة بأن الله تعالى سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله، فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكن ليست عندهم المقدرة، بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه، وأن هذا القول ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالب بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتملاً على ما في القرآن من علم، واقتصر على التحدي بالنظم والعبارة، واللفظ، وممن قالوا بالصرفة أيضاً الفقيه ابن حزم الأندلسي، فقد قال : "لم يقل أحد أن كلام غير الله معجز، لكن لما قاله الله تعالى، وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً، ومنع من مماثلته"[4].

[1] – ينظر:أبو زهرة المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، دط، ص: 57، 58، 59.

[2] – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، (1427هـ-2006م)ج :02 ص: 118 .

[3] – الإعجاز القرآني (بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني) في بغداد، ص:283.

[4] – ينظر: الجرجاني دلائل الإعجاز ، تحقيق : رشيد رضا، دار المنار مصر ص:251-625.

والرماني (ت 384هـ) تبنى أيضاً القول بالصرفة"[1]، ويظهر فساد هذا القول بدليل قوله تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)[الاسراء:88] ، لأنه يدل على عجز العرب مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحفل بذكره، كما أكد العلماء من جهة ثانية إن الإعجاز مضاف إلى القرآن الكريم فإذا بالصرفة فلا يكون في القرآن صفة إعجاز، بل يكون المعجزة هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة، ولكان الكلام ليس معجزاً، ولا يتضمن فضيلة على غيره في نفسه، ويكون بالمنع معجزاً، كما يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي، ويخلو القرآن الكريم عندئذ من الإعجاز، وهذا مخالف لإجماع الأمة في أن معجزة الرسول الكبرى باقية وهي القرآن"[2].

ومهما يكن من فساد القول بالصرفة، فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين، المنزل من عند الله الحكيم، فكان هذا الباطل سبباً في خير كثير، وكما يقول المثل السائر (رُبّ ضارة نافعة)، فقد تولد عنه دفاع حكيم، وعلوم البلاغة العربية، وكما تولد عن الخطأ في تلاوة آية (علم النحو) تولدت علوم البلاغة العربية، وإن أكثر ما كتب الأولون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن، ومحاولة لبيان إعجازه"[3].

---

[1]. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج: 02،ص:122.

[2]. ينظر: الإعجاز القرآني (بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني) في بغداد ص:284.

[3]. ينظر:أبو زهرة: المعجزة الكبرى ص: 62.

- (الأول) ان ما ينبغي قوله تجاه القائلين بالصرفة أنه لو كان كذا لعارضوا القرآن بالكلام الذي صدر عنهم قبل المبعث ويكون مثل القرآن.
- (والثاني) : أن فصحاء العرب إنما كانوا يتعجبون من حسن نظمه وبلاغته وسلالته في جزالته، لا لعدم تأتي المعارضة مع سهولتها في نفسها.
- (والثالث) : أنه لو قصد الإعجاز بالصرف لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلو طبقته، لأن القرآن على هذا التقدير كلما كان أنزل في البلاغة، وأدخل في الركاكة، كان عدم تيسر المعارضة أبلغ في خرق العادة.
- (والرابع) : يأباه قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:88]

معنى (ولن تفعلوا):" [1]

"لا شك أنهم كانوا من أشد أعدائه، وكانوا أحرص الناس في تكذيبه، وكانوا متفكرين في الأمور التي بها ينمحي الإسلام أو تحصل الذلة لأهله، وكان المطلوب منهم أمراً سهلاً لا صعباً، فلو لم يكن النبي –صلى الله عليه وسلم – صادقاً في دعواه عندهم لبادروا إلى القول به لتكذيبه، بل أعلنوا هذا التمني بالقول مراراً وشهروا أنه كاذب يفتري على الله أنه قال كذا، ويدعي من جانب نفسه ادعاء ويقول تارةً: والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلا غص بريقه، يعني مات مكانه، ويقول تارةً: لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ونحن تمنينا

[1]_ الحنفي: إظهار الحق، تحقيق : محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، ط:01، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية (1410 هـ - 1989 م)، ج:03، ص:813/814.

مراراً وما متنا فظهرت بصرفهم عن تمنيهم مع كونهم على تكذيبه أحرص الناس معجزته وبانت حجته، وفي هذه الآية إخباران عن الغيب: (الأول) أن قوله ﴿لن يتمنوه﴾ يدل دلالة بينة على أن ذلك لا يقع في المستقبل من أحد منهم فيفيد عموم الأشخاص.

-أن قوله أبداً يدل على أنه لا يوجد في شيء من الأزمنة الآتية في المستقبل يفيد عموم الأوقات فبالنظر إلى العمومين هما غيبان وكقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين ﴾ [البقرة 24] فأخبر بأنهم لا يفعلون ا لبتة، ووقع كما أخبر،

وهذه الآية دالة على الإعجاز من وجوه أربعة:

(أولها) أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي غاية الحرص على إبطال أمره، لأن مفارقة الأوطان والعشيرة وبذل النفوس والمهج من أقوى الأدلة على ذلك، فإذا انضاف إليه مثل هذا التقريع وهو قوله: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ صار حرصهم أشد، فلو كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه لأتوا به، فحيث ما أتوا به ظهر الإعجاز.

(وثانيها) أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان متهماً عندهم في أمر النبوة، لكنه كان معلوم الحال في وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب، فلو كان كاذباً لما تحداهم بالغاً في التحدي إلى النهاية، بل كان عليه أن يخاف مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره، فلو لم يعلم بالوحي عجزهم عن المعارضة لما جاز أن يحملهم عليها بهذا التقريع.

(ثالثها) أنه لو لم يكن قاطعاً في أمره لما قطع في أنهم لا يأتون بمثله لأن المزور لا يجزم بالكلام، فجزمه يدل على كونه جازماً في أمره.

(ورابعها) أنه وجد مخبر هذا الخبر على ذلك الوجه، لأنه من عهده عليه السلام إلى عصرنا هذا لم يحل وقت من الأوقات من يعادي الدين والإسلام، وتشددوا عليه في الوقيعة فيه، ثم إنه مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة قط. فهذه الوجوه الأربعة في الدلالة على الإعجاز مما تشتمل عليه هذه الآية، فهذه الأخبار وأمثالها تدل على كون القرآن كلام الله، لأن عادة الله جارية على أن مدعي النبوة لو أخبر عن شيء ونسب إلى الله كذباً لا يخرج خبره صحيحاً.

2-الاتجاه القائل: القرآن معجزة ببلاغته:

اهتم رجال هذا الاتجاه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم لاعتقادهم أنّ البلاغة القرآنية هي أساس الإعجاز. فقد درس ابن قتيبة الصور البيانية في القرآن الكريم، وقال بالتفاوت بين قصائد الشاعر الواحد، وبالتفاوت بين الشعراء، غير أن القرآن غير متفاوت الإعجاز، وعلل هذا الإعجاز عن طريق البديع، وقد ألمّ برأيه هذا، وبطريقته هذه في الدراسة في كتابه تأويل مشكل القرآن، فبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة.

قال عن القرآن: "وجمع الكثير من معانيه فيا لقليل من لفظه" [1] .

[1] - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ط3، 1401هـ /1981م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص:04.

ويعدّ هذا المبدأ مبدأ مهماً في الدراسة والتحليل، ويرى ابن قتيبة أنه يمكن إدراك إعجاز بلاغة القرآن بكثرة المدارسة. قال "وإنما يعرف فضل من كثر نظره، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات"[1]

وحدد هذه الخصائص البلاغية للغة العربية في موضع آخر في كتابه، فقال عن العرب "فلهم المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص" [2]

فالقرآن الكريم معجزة لأنه أجاد استعمال خصائص اللغة العربية ووصل بها إلى القمة التي تدرك من طرف البشر، على الرغم من تمتع العرب بحاسة بلاغية تجعلهم يميزون بين كلام الله وكلام البشر، إلا أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن.

واتبع الرماني ابن قتيبة في القول ببلاغة القرآن فخص الموضوع برسالة عنوانها النكت في إعجاز القرآن"[3]. وذهب إلى أن البلاغة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأعلى، الأدنى، وما هو وسط بين الأعلى والأدنى، وشرح كل طبقة على حدة، ورأى أنّ أعلى طبقة هي المعجز، وهي بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء، ثم حصر

[1] – ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص:7

[2] – ينظر : المصدر نقسه، ص:16.

[3] – ينظر الرماني: النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز ت: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976م، ص:15.

البلاغة في عشرة أقسام وهي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس، والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. ثم فسر كل قسم مستشهداً بالآيات القرآنية الكريمة.

وواضح هنا، أن التصور البلاغي لأدبية الإعجاز، لم يعد يتقدم الزمن وذهاب الفصاحة، يهمه تأكيد النسبة السننية بين الخطابين القرآني والأعرابي، فالملكة اللغوية التي كان من شأنها أن تعين على إدراك المجانسة البيانية في الخطابين، واستكشاف المفاضلة النوعية في أدبيَّتِهِمَا.

إن هذه الملكة التمييزية لم تعد من حظ الخاصة من أهل العلم والثقافة، ولذا باتت التقريرات الوضعية، المبنية على الافتراض والتسويغ هي وسيلة أولئك العلماء في تثبيت الحقائق وإرساء الثوابت.

لقد أوجد هذا الاتجاه أتباعاً زكوه بأفكار ودراسات قيمة في سبيل الكشف عن بلاغة القرآن وعن إعجازها كدراسة أبي هلال العسكري في الصناعتين التي جاءت لتكشف عن التباين بين بلاغة النص المقدس وبلاغة النص البشري، فالقرآن الكريم معجز "بما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها"[1].

ويشترط العسكري لمعرفة إعجاز القرآن البلاغي، معرفة البلاغة العربية وتعلمها حتى يستطيع المرء أن يميز بين مراتب الكلام، ولهذا وضع كتابه ليذلل به من تلك الصعاب.

[1] – أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط:02، طبع البابي الحلبي، (1952م)، ص: 01.

قال: "فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع علم البلاغة من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة.. فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهدار"[1].

وبهذا يجعل معرفة البلاغة سبباً في إدراك إعجاز القرآن والوصول إلى خصائصه ومميزاته، للوقوف على حدود النص القرآني وتجلياته، فهو "يرى أنّ الكشف عن وجوه البديع وصور البيان وسيلة لإدراك حسن النظم والتأليف، أي أنه يريد أن يتعلم الناس البلاغة ليتكون لديهم الذوق والفهم المسعفان على إدراك الإعجاز" [2]

وتعدّ دراسة العسكري دراسة تأصيلية منظمة ومبوبة تبويباً حسناً اعتمدت على مصادر النقد الأدبي عند العرب، وقد أشار إحسان عباس إلى بعضها"[3]

وتعد مساهمة ابن سنان الخفاجي مساهمة جادة في سبيل الوقوف عند الجانب البلاغي لإعجاز القرآن، وقد أَثْرَتْ هذه الدراسة التجارب السابقة، وقدَّمَت إضافات نوعية بتكامل الأدوات الإجرائية التي استطاعت أن تكشف عن جوانب، منها ما تعلق بالعلوم الأدبية أو ما تعلق بالعلوم الشرعية، فيما به كان معجزاً من حيث قدرة النص القرآني على خرق العادة بفصاحته، ومن هنا راح الرجل يركز الحديث على البلاغة والفصاحة والإعجاز

[1] – أبو هلال العسكري:الصناعتين، ت: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط:02، طبع البابي الحلبي، ص: 04/03.

[2] – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط:03، دار الثقافة، بيروت، (1981)، ص:355.

[3] – ينظر : المرجع نفسه، ص:357/356.

حيث وظفت هذه المفاهيم كأدوات مهمة لفك استغلاق النص وتعليل الظاهرة القرآنية. وسنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.

3- الاتجاه القائل "القرآن معجز بنظمه":

لعل الجاحظ أول من قال إن النظم أساس الإعجاز، وقد ألف كتاباً في هذا الموضوع إلا أنه يعدّ من الكتب المفقودة. ثم جاء بعده الخطابي"[1] ليُدلي بدلوه في هذا الموضوع الذي قصر إعجاز القرآن في نظمه، فقد جمع القرآن أفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني وعلل عجز العلماء السابقين في الوقوف على إعجاز القرآن، بأنهم احتكموا إلى أذواقهم وليس إلى الرأي والمنطق.

وانطلاقاً من هذه الرأي، قسم هذا الدارس الكلام إلى ثلاثة أقسام: الرصين الجزل، الفصيح القريب السهل، الجائر المطلق المرسل، وذهب إلى هذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالأول أعلاها والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها.

وقال الخطابي بالتفاوت في القرآن الكريم؛ ذلك أن هذا الكتاب السماوي قد أخذ من كل قسم من هذه الأقسام، إلا أن الخطابي قد فضل القسم الأول، ولكن هذا التفضيل لا يتماشى والبلاغة، لأنّ النص قد يكون بليغاً على الرغم من أنه من القسم الثالث.

واستقرأ الباقلاني أغلب الدراسات التي سبقته في مؤلفه "إعجاز القرآن" ليثري هذا الاتجاه، فقد اختار هذا الباحث النظم لإثبات الإعجاز، وقال بعدم التفاوت في القرآن الكريم بخلاف الأدب. وليس انعدام التفاوت وحده الدال على إعجاز القرآن، بل هناك أمران آخران: أولهما: الطول الذي استوعبه ذلك النظم دون تفاوت. وثانيهما: أن هذا

[1] - سليمان حمد بن محمد: بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، (1916م)، ص: 55.

النظم قد ورد على غير المعهود من نظم الكلام جميعه عند العرب. وعرض نماذج من نثر البلغاء وشعر الشعراء لإدراك التفاوت"[1].

وهذا الذي ميّزه عن غيره من الدارسين، فقد وازن بين المعجز من كلام الخالق، وبين الرائع من كلام المخلوق. وقد كان معجباً بكل كلمة ومعنى وأسلوب في القرآن وقف عنده، ونعت ذلك بنعوت المفاضلة دون الإشارة إلى مواطن الفصاحة ولا إلى مواطن الروعة والجمال.

واهتم القاضي عبد الجبار (ت 415هـ) بهذه القضية، وأفرد لها جزءاً في كتابه المغني"[2] ؛ فقد رأى هذا الباحث أن الكلام الفصيح هو ما جزل لفظه وحسن معناه، ثم إن القرآن لم ينفرد بأسلوب خاص؛ فرأى القاضي عبد الجبار أن ليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص؛ لأن الخطيب عند العرب قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة.وقد يكون النظم واحداً وتقع المزية في الفصاحة.

فقد ذهب إلى أن اللفظة تخضع إلى ثلاث حالات:

1- مفهومها في ذاتها.

2- مفهومها حين تتداول عليها حركات الإعراب.

3- مفهومها حين تأخذ مكاناً خاصاً في الكلام، فتتقدم أو تتأخر، ومن هنا أكدّ على أهمية النظم في بلاغة الكلام وفصاحته، وربط بينه وبين هذه المفهومات الثلاثة.

[1] - ينظر الباقلاني: إعجاز القرآن، دار الجيل، بيروت، دط، ص:100.

[2] - القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب، (1318هـ)، ص:197.

وذهب إلى أنّ المعجزة القرآنية امتداد لما انتهى إليه جهد العرب من البلاغة، وليس إعجاز القرآن أنه جاء بنظم لم تجر العادة بمثله.

وبذلك يكون قد كشف عن توجه جديد في دراسة النظم في القرآن الكريم، كاشفاً عن خصائص الإعجاز فيه القائمة على فصاحة اللفظ وحسن المعنى.

وأولى عبد القاهر الجرجاني هذه المسألة أهمية كبيرة من خلال مؤلفاته (الرسالة الشافية، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة). وذهب إلى أن لا ميزة للمفردات في حد ذاتها؛ لأن الناس تواضعت عليها هكذا، وإنما ميزتها حين تضم إلى أخواتها من المفردات. وقد شبّه النظم بالتأليف والصياغة والبناء والوشي.

ورأى أن أثناء التأليف يسبق المعنى اللفظ، على عكس القراءة أو السماع حيث يكون اللفظ هو السابق. وأنزل هذا الدارس الكلام ثلاثة منازل:

1- لفظ استقل بجماله واستغنى بحسنه دون أن يكون للنظم حساب فيه.

2- ونظم اعتمد على ترتيب المعاني وتآخي الأفكار دون أن يسانده التأنق في اللفظ.

3- وكلام حوى الحسن من طرفيه، فجمع إلى جمال اللفظ وإشراف العبارة تساوق المعنى وتلاحم الفكرة. وهذا الأخير هو الذي يُبحث عنه ويُطلب التفاضل فيه بين البلغاء، ومن جهته يكون الإعجاز. وذهب إلى أنّ التفاضل يكون في الكلام الذي يقبل التحرير أو التبديل، وليس في الكلام الذي له مدلول واحد"[1].

[1] - الجرجاني: دلائل الاعجاز،عبد الفاهر الجرجاني،تحقيق رشيد رضا،دار المنار، مصر، ط4، 1367هـ/1967م ص40.

ويبدو أنّ الجرجاني يفصل بين صورتين من صور الحقائق الفنّية، فهناك صور فنيّة غنية كلما رجعت إليها اكتشفت شيئاً جديداً، وصور ضحلة هزيلة تأخذ كل ما فيها بنظرة واحدة.

ومما تقدم نخلص إلى أنّ الجرجاني ذهب إلى أنّ إعجاز القرآن يكمن في نظمه وتأليفه، والنظم بالنسبة إليه هو توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم.

كما قال بالتفاوت في النظم عند الأدباء في "الرسالة الشافية" ورأى في النوابغ والمتقدمين أن ما أتوا به لا يعدّ معجزاً، وإنّما المعجز ما عُرف أنه فوق قوى البشر وَقدرهم، وضرب المثل بالجاحظ الذي رأى في ما أتى به غير معجز، وهذا هو الفرق بين النبي والعبقري.

ويبدو أن هذا الاتجاه قد لقي رواجاً وانتشاراً، لأنه يحقق الإعجاز في كل السور والآيات، بينما مظاهر الإعجاز الأخرى لا تتحقق في كل القرآن الكريم.

إن الاختلاف بين الناس سنة إلهية، فالاختلاف الفطري المركوز في النفوس البشرية هو آية دالة على إبداع الخالق سبحانه في الأكوان جميعها، وإن للفروق الفردية والاختلافات التكوينية والبيئات المادية والمعنوية أثراً بارز في نشوء الاختلافات النفسية والفكرية والثقافية بين هذه المخلوقات البشرية.

والاختلاف بين المفسرين في فهم النص القرآني وتوجيهه له أيضاً مبرراته المختلفة المتعلقة تارة بالنص القرآني واحتماله لوجوه التأويل المختلفة، والمتعلقة تارة أخرى بشخصية المفسر والفروق الذاتية بين المفسرين في امتلاك وتفعيل أدوات فهم النص القرآني، والمتعلقة تارة ثالثة بالواقع الذي يعيشه المفسر وقدرته على ربط النص القرآني بهذا الواقع المعاش،

واستنطاق الآيات على ضوء المشكلات الواقعية التي يحياها في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة، أو في سبيل إدماج النص القرآني بالواقع وتحديد موقفه من هذا الواقع باعتبار أن القرآن هو القيم والمصدر الذي يحدد على ضوئه الأحكام الإلهية بالنسبة إلى ذلك الواقع.

– علاقة الإعجاز بالخطاب القرآني.

كيفية معرفة المراد من الخطاب القرآني

أجاب ابن قيم الجوزية على هذا التساؤل بقوله: "والعلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته، والحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ، وعلى الثاني أوضح لأرباب المعاني والتدبر"[1].

وعقب على هذه الإجابة بالبيان والاستدلال على أغلاط أصحاب الألفاظ وأصحاب المعاني، إذ "قد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفة مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها، وهضمها تارة، وتحميلها فوق ما أريد بها تارة، ويعرض لأرباب المعاني فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ"[2].

وبالتالي هناك طريقان لمعرفة مراد المتكلم، طريق الاعتماد على الألفاظ، وطريق الاعتماد على المعاني. ولكن كل طريق معرض لما يخل بمعرفة مراد المتكلم، لذلك يتحتم التقيد بمنهج يتأصل على مجموعة من الخطوات، لضبط كل ما يخل بمعرفة مراد المتكلم.

---

[1] - ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج:01، ص:219- 220.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ج:01، ص: 220.

وضابط معرفة المراد بين الألفاظ والمعاني من حيث الإجمال هو أن كلا الطريقين- طريق الألفاظ وطريق المعاني- يوصل إلى معرفة المراد، ذلك أن التوصل إلى معرفة مراد المتكلم، يتوقف على معرفة قصد المتكلم، ومعرفة قصد المتكلم تكون تارة من عموم اللفظ، وتارة من عموم المعنى، وهذا ما ضبط به ابن قيم الجوزية معرفة المراد، إذ لا بد من إدراك أن "التعويل في الحكم على قصد المتكلم، والألفاظ لم تقصد لنفسها، وإنما هي مقصودة للمعاني، والتوصل بها إلى معرفة مراد المتكلم، ومراده يظهر من عموم لفظه تارة، ومن عموم المعنى الذي قصده تارة، وقد يكون فهمه من المعنى أقوى، وقد يكون من اللفظ أقوى، وقد يتقاربان"[1].

فكيفية التوصل إلى معرفة مراد المتكلم هي منشأ غلط الفريقين سواء فيما يتعلق بالألفاظ، أو فيما يتعلق بالمعاني، ولكن جاء من علماء الشريعة "سادة فهموا عن الله وعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاستنبطوا أحكاما وفهموا معانيها من أغراض الشريعة في الكتاب والسنة، تارة من نفس القول، وتارة من معناه، وتارة من علة الحكم، حتى نزلوا الوقائع التي لم تذكر على ما ذكر، وسهلوا لمن جاء بعدهم طريق ذلك"[2].

[1] - ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج:01، ص:217.

[2] - الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الشريعة، وعليه شرح عبد الله دراز، ط: 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (1422هـ-2001م) ج:02، ص: 51-52.

- **اتساع اللسان العربي وأثره في بيان المراد من الخطاب:**

أولا: اتساع اللسان العربي:

لسان العرب بما خصه الله عز وجل من البيان والفصاحة والبلاغة أوسع الألسنة، وأكثرها ألفاظا، مما جعله الأكثر إبانة عن مقاصده وأغراضه، وقد قرر الشافعي في كتابه :"الرسالة"مدى اتساع لسان العرب،إلى درجة أن اعتبر أنه لا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي حيث قال: "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه"[1].

واتساع لسان العرب كان سببا في اختياره ليكون لغة آخر كتاب سماوي للبشرية، فقد"اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرا لوحيه، ومستودعا لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقين أولا لشرعه، وإبلاغ مراده، لحكمة علمها منها، كون لسانهم أفصح الألسن، وأسهلها انتشارا، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظ"[2].

وهنا تظهر علاقة اتساع اللسان العربي بمقاصد تنزيل القرآن بلسان عربي مبين، فاختيار اللسان العربي ليكون لسان آخر كتاب سماوي كان لحكم ومقاصد منها: الفصاحة، وسهولة الانتشار، وتحمله للمعاني الكثيرة مع إيجاز لفظه.

---

[1]- الشافعي: الرسالة، تحقيق: خالد السبع العلمي، وزهير شفيق الكبي، دار الكتاب العربي، بيروت، (1425هـ-2004م)، ص:62.

[2] - الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دار، سحنون للنشر والتوزيع، تونس، مج:01، ج:01، ص:33.

ثانيا: اتساع البيان والمجاز في اللسان العربي:

قد خص الباري عز وجل اللسان العربي بالبيان على سائر اللغات، ولا يعرف ذلك إلا من اتسع علمه وكثر نظره.

وهذا ما قرره ابن قتيبة في كتابه: "تأويل مشكل القرآن" في باب ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز حيث قال:" وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال، ما أُوتِيَتْهُ العرب خصِّيصَي من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله عَلَمه، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أَشْبَه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه."[1]

وعلى هذا كان "للعرب المجازات في الكلام ومعناها: طرق القول ومآخذه. ففيها: الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص."[2] ومنه فالمجاز طريق قوي وواسع في فهم اللسان العربي ومراد الشارع.

[1] – ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ط:03، (1401هـ - 1981م)، ص: 12.

[2] – ينظر : المصدر نفسه، ص: 20-21.

ثم قرر ابن قتيبة أن: "بكل هذه المذاهب نزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة."[1] مستدلا بأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب.

ومثل لذلك بقوله: " ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**﴾ [الأنفال:58]، لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتظهر مستورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد، فخفت منهم خيانة ونقضا، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء"[2].

وإذا ثبت هذا فكل من صار إلى لسان العرب فهو من أهله وكل من تركه صار من غير أهله، نعم هكذا يصنف الشافعي أهل لسان العرب من غيرهم بقوله: "وإنما صار غيرهم من غير أهله بتركه. فإذا صار إليه صار من أهله"[3].

ثالثا: اتساع التصرفات العربية وعلاقتها ببيان المراد:

لقد قيض الله عز وجل رجالا–من أهل اللسان حقا– كان حفظ هذا اللسان على أيديهم من الضياع والتبديل، حفظا وتقريرا وتقعيدا، وحفظ اللسان إنما يتحقق باستقراء وحفظ التصرفات العربية بأشكالها من حيث النحو والتصريف والمعاني والبيان، والاشتقاق،

[1]– ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ط:03، (1401هـ - 1981م)، ص:21.

[2]– ينظر: المصدر نفسه، ص:21.

[3]– الشافعي: الرسالة، ص:62.

وشرح مفردات اللغة، والأخبار المنقولة عن العرب لمقتضيات الأحوال. وقد مثل لذلك الشافعي بالأغمض من طرائف العرب، كما قال الشاطبي: "وإنما أتى الشافعي بالنوع الأغمض من طرائف العرب، لأن سائر أنواع التصرفات العربية قد بسطها أهلها، وهم أهل النحو والتصريف وأهل المعاني والبيان وأهل الاشتقاق، وشرح مفردات اللغة، وأهل الأخبار المنقولة عن العرب لمقتضيات الأحوال، فجميعه نزل به القرآن، ولذلك أطلق عليه عبارة العربي"[1].

ولقد تم حفظ أنواع التصرفات العربية، من قبل أئمة اللغة العربية، بحيث تم استقراء ما أثر عن العرب من منثور ومنظوم أولا، ثم تقرير القواعد اللغوية ثانيا. وهذه القواعد اللغوية كانت هي الأساس الذي اعتمد عليه علماء الأصول في دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني"[2].

ولهذا كانت معرفة المنثور وبالأخص المنظوم من الشعر ضرورية في حفظ أنواع التصرفات العربية، بحيث كان "للعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيدا، ولأحبارها ديوانا لا يرث على الدهر، ولا يبيد على مر الزمان. وحرَسَه بالوزن، والقوافي، وحسن النظم، وجودة التحبير من التدليس والتغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عَسُرَ ذلك عليه، ولم يخف له كما في الكلام المنثور"[3].

[1] – الشاطبي: الاعتصام، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار أشريفة، ج: 02، ص: 472-473.

[2] – ينظر: علي حسب الله :أصول التشريع الإسلامي، ط: 07، دار الفكر العربي، (1417هـ-1997م)، ص:176.

[3] –ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص:18.

وإذا كان حفظ اللسان يتحقق بحفظ أنواع التصرفات العربية، وجميع أنواع التصرفات العربية نزل بها القرآن وحفظها، فإن حفظ اللسان على وجه الكمال محفوظ في القرآن الموصوف بالعربي، وهذا البسط لسائر أنواع التصرفات العربية إنما هو من الأدلة على عصمة هذه الشريعة، وحفظ الله لها من التبديل والضياع، جملة وتفصيلا، ولأجل ذلك قيض الله عز وجل لكل علم رجالا حفظه على أيديهم.

كما أنّ ذلك تسهيل من سبق منهم على من لحق بهم، وهذا يجري في كل علم توقف فهم الشريعة عليه، أو احتيج في إيضاحها إليه، كعلوم اللغة وما يتعلق بها، وعلوم الحديث والفقه والقراءات والمنطق وغيرها.

ففي علوم اللغة وما يتعلق بها كان "قوم يذهبون الأيام الكثيرة في حفظ اللغات والتسميات الموضوعة على لسان العرب، حتى قرروا لغات الشريعة من القرآن والحديث– وهو الباب الأول من أبواب فقه الشريعة؛ إذ أوحاها الله إلى رسوله على لسان العرب– ثم قيض رجالا يبحثون عن تصاريف هذه اللغات في النطق فيها رفعا ونصبا، وجرا وجزما، وتقديما وتأخيرا، وإبدالا وقلبا، وإتباعا وقطعا، وإفرادا وجمعا، إلى غير ذلك من وجوه تصاريفها في الإفراد والتركيب، واستنبطوا لذلك قواعد ضبطوا بها قوانين الكلام العربي على حسب الإمكان، فسهل الله بذلك الفهم عنه في كتابه، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم في خطابه."[1].

فوصول حفظ التصرفات العربية، إلى درجة التقرير للقواعد التي تضبط لها قوانين الكلام العربي، في سائر العلوم المتعلقة باللسان العربي، كان له أثر في تسهيل فهم النصوص

[1] – الشاطبي: الموافقات: ج:02، ص: 49-52.

واستنباط الأحكام الشرعية. وهذا التقرير للقواعد جرى في سائر تلك العلوم، على يد أهل الاختصاص والفهم فقد "بعث الله من هؤلاء سادة فهموا عن الله وعن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، فاستنبطوا أحكاما فهموا معانيها من أغراض الشريعة في الكتاب والسنة، تارة من نفس القول، وتارة من معناه، وتارة من علة الحكم، حتى نزلوا الوقائع التي لم تذكر على ما ذكر، وسهلوا لمن جاء بعدهم طريق ذلك"[1].

ومن هنا يتبين أن علوم اللغة وما يتعلق بها هو الباب الأول في فقه الشريعة، وهو مما يتوقف عليه فهم الشريعة، ومما يحتاج إليه في إيضاحها. كما أن أئمة علوم اللغة قد قرروا القواعد التي ضبطت قوانين الكلام العربي. وبالتالي يكون فهم الشريعة وفق ما قرره أئمة اللغة من هذه القواعد.

فباعتبار اختلاف الأوضاع والأساليب لكل لسان، فإن كل لسان يفهم من جهته، وإذا كان القرآن نزل بلسان العرب فإن فهمه يتم من جهة لسان العرب، ومن ثم فإن مما يعتبر من معاني العرب المعروفة لديها اتساع اللسان، وهذا يقتضي فهم القرآن من هذه الحيثية-اتساع اللسان- وقد قرر الشافعي ذلك ومثل له بقوله:" فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، و كان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه:

عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، يستغني بأول هذا منه عن آخره.

وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه.

وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره.

[1] الشاطبي: الموافقات:ج:02 ص: 51-52.

فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. وتبتدئ الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله. وتكلَّم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به، دون أهل جهالتها. وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة."[1]

وقد أورد الشاطبي من مثل ما أورده الشافعي ونبه على ذلك بقوله: "وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها، فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب، فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب، كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم لاختلاف الأوضاع والأساليب"[2].

وتأسيسا على هذا؛ فكل التصرفات الثابتة للعرب فالقرآن لا يفهم إلا عليها، فإذا كان خطاب الله عز وجل نزل بلسان العرب، فإن فهمه يكون وفق ما تعرفه العرب من ألفاظها، ومعانيها، وبحسب ما قرره أهل اللسان بسطا وحفظا وتقريرا وتقعيدا.

فاركان علوم اللسان العربي التي تعتبر اساسية بالضرورة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب "إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة

[1]- الشافعي: الرسالة، ص:67.

[2]- الشاطبي: الموافقات: ج:02، ص: 56.

بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة، وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام."[1]

فابن خلدون بهذا يقرر أهمية العلوم المتعلقة بأركان اللسان العربي الأربعة في فهم الشريعة، ذلك أن استنباط الأحكام في الشريعة من الكتاب والسنة، وهي بلسان العرب، ومن ثم فإن القرآن والسنة لا يفهمان إلا على فهم أنواع التصرفات العربية، واتساع لسان العرب في معانيه.

وتأسيسا على هذا فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بأركان اللسان العربي باعتبارها طريق من طرق فهم الشريعة، "وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين."[2]

ومن هذا يتقرر أن على الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولا وفروعا أمران"[3]:

أولها: أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيا أو كالعربي في كونه عارفا بلسان العرب، بالغا فيه مبالغ العرب، أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل وسيبويه والكسائي

[1] – ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، مقدمة؛ (من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ط، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت لبنان، (2000م)، ج:01، ص: 339.

[2] –ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج:01 ، ج:01، ص:18.

[3] – الشاطبي: الإعتصام: ج:02، ص: 473-474.

والفراء ومن أشبههم وداناهم. وليس المراد أن يكون حافظا كحفظهم وجامعا كجمعهم، وإنما المراد أن يصير فهمه عربيا في الجملة.

ثانيها: أنه إذا أشكل عليه في الكتاب أو في السنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية، فقد يكون إماما فيها، ولكنه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات، فالأولى في حقه الاحتياط، إذ قد يذهب على العربي المحض بعض المعاني الخاصة حتى يسأل عنها. وقد نقل شيء من هذا عن الصحابة –وهم العرب– فكيف بغيرهم. فقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كنت لا أدري ما ﴿**فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[يوسف:101] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر. فقال أحدهما: أنا فطرتها. أي أنا ابتدأتها.

وعليه، فإن مما يتوقف فهم الشريعة عليه، العلم باتساع لسان العرب أولا، وبفهم يكون كفهم العربي في الجملة ثانيا، وعند الإشكال في فهم لفظ أو معنى فلا يقدم عليه إلا بعد الاستعانة بغيره ممن له علم بالعربية، خاصة وقد ثبت اتساع لسان العرب. والعلم بالعربية أيضا من أهم الوسائل الخادمة لعلم الشريعة؛ وفهم الشريعة أو إيضاحها يتوقف على ذلك كما سيتبين فيما ياتي.

ولأهمية العلم بلسان العرب خص الشاطبي النوع الثاني من كتاب المقاصد بالحديث عن قصد الشارع من وضع الشريعة للإفهام في خمس مسائل تكلم فيه عن عربية الشريعة وما ينبني على ذلك، حيث أكد على أنه لا يمكن لمن جهل سعة لسان العرب من فهم

أوإيضاح ما نزل به القرآن بقوله: "فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة"[1].

ولعل هذا أيضا ما دفع الشافعي لأن يؤكد على أهمية العلم بسعة لسان العرب في فهم الشريعة بقوله: "وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"[2].

وبالتالي فالعلم بلسان العرب ينفي الشبه، كما أن الجهل بسعة لسان العرب يوقع فيها. "ومن تعرض لبيان مراد الشارع وهو مفلس في معرفة اللغة العربية هلك فأهلك وتأول فانحرف وفسر فأخطأ"[3].

وكذلك من يتعرض لبيان مراد الشارع بغير ما جرى على مذاهب العرب، وهذا ما حذر منه الشاطبي بقوله: "فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه. ويجب الاقتصار– في الاستعانة على فهمه – على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية. فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه. وتقول على الله ورسوله فيه".[4]

وبالتالي فمن طلب فهم مراد الشارع بغير الأداة التي تنضاف إلى مذاهب لسان العرب، ضل عن فهمه، ومن طلب فهمه بما هو أداة له، هدي إلى فهمه، إذ"ليس من

---

[1]– الشاطبي: الموافقات، ج:02، ص:54-55.

[2]– الشافعي: الرسالة، ص:65.

[3]– محمد يعقوب: أسباب الخطأ في التفسير، دار ابن الجوزي، (1425هـ)، ج:02، ص:983.

[4]– الشاطبي: الموافقات، ج:02، ص: 67-68.

السائغ قانونا ولا عقلا أن يسن الشارع قانونا من القوانين بلغة ويتطلب من الأمة أن تفهم ألفاظ مواده وعباراتها على مقتضى أساليب وأوضاع لغة أخرى، لأن شرط صحة التكليف بالقانون قدرة المكلفين به على فهمه، ولهذا يوضع القانون في الأمة بلسانها، وبلغة جمهور أفرادها، ليكون في استطاعتهم فهم الأحكام منه بأساليب الفهم في لغتهم. ولا يكون القانون حجة على الأمة إذا وضع بغير لغتها أو كان طريق فهمه غير طريق فهم اللغة التي وضع بها. قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[ابراهيم:04]

إذن فطريق فهم مراد الشارع هو طريق فهم اللغة التي وضع بها، وبما أن القرآن نزل بلسان العرب، فطريق فهمه هو طريق فهم اللغة العربية. ومن ثم فلا يصح فهم وتفسير القرآن الكريم إلا بطريق فهم اللسان الذي نزل به، وبالتالي فمعرفة لغة القرآن من أهم الأدوات لفهم ومعرفة مراد الله تعالى، فوجب بذلك معرفة قواعد اللغة العربية وأصولها ودلالاتها.

تقرر إذن أن لسان العرب أوسع الألسنة، وأكثرها ألفاظا، وأن القرآن نزل بلسان العرب، لذلك ففهم الشريعة وإيضاحها يتوقف على العلم باتساع لسان العرب، وأن الله عز وجل قيض لذلك رجالا كان حفظ هذا اللسان على أيديهم من الضياع والتبديل، بسطا، وحفظا وتقريرا وتقعيدا، وأن فهم الشريعة يكون وفق ما قرره أئمة اللغة من هذه القواعد التي ضبطت قوانين الكلام العربي. فكل التصرفات الثابتة للعرب فالقرآن لا يفهم إلا عليها، وفهمه يكون وفق ما تعرفه العرب من ألفاظها ومعانيها وأساليبها.

وعليه فالعلم بالقواعد العربية يعتبر من أهم الوسائل الخادمة لعلم الشريعة، لذلك فمن طلب فهم مراد الشارع بغير الأداة التي تنضاف إلى مذاهب لسان العرب، ضل عن فهمه، ومن طلب فهمه بما هو أداة له، هدي إلى فهمه.

وإذا كانت القواعد العربية من أدوات فهم النصوص، والقرآن لا يفهم إلا عليها، فإلى أي مدى يمكن لهذه القواعد أن تحدد المفهوم العربي المجرد؟وما أثرها ودرجة أهميتها في ضبط المراد؟.

– أثر قواعد اللغة العربية في بيان وضبط الخطاب القرآني:

شرف الله عز وجل اللغة العربية فجعلها لغة الدين والشريعة، ولغة القرآن والسنة، ومأخذ الأحكام الشرعية، وطريق فهم المراد وبيان مقصد الشارع، حتى أصبحت معرفتها ضرورية قدر الإمكان، وقد قرر الشافعي حكم ذلك، والغاية المقصودة من تعلم لسان العرب بقوله: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك."[1]

وإذا كان هذا حكم تعلم لسان العرب، وهذه غاية تعلمه، فإن تعلم لسان العرب لهذه الغاية لا يكون إلا وفق ما قرره أئمة اللغة من القواعد التي ضبطت قوانين الكلام العربي، إذ فهم الشريعة وإيضاحها يتوقف على ذلك.

[1]– الشافعي: الرسالة، ص: 64.

وباعتبار أن القواعد اللغوية هي "القواعد التي استمدها علماء الأصول مما قرره أئمة اللغة العربية في دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني، بعد استقراء ذلك فيما أثر عن العرب من منثور ومنظوم."[1] فإن هذه القواعد تدخل في العربية، والتي يراد بها معرفة مقاصد العرب من كلامهم، وأدب لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها."[2]

ولما كان كلام الله الحكيم يحتوي على مقاصد جليلة، ومعاني غالية، فإنه لا يحصل الإطلاع على جميعها أو معظمها إلا بعد التمرس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه."[3]

ولما نزل القرآن بلسان عربي مبين اقتضى خضوع ألفاظه ومعانيه وأساليبه للسان العرب ومعهود الأميين، وكل من يركب غير العلم بلسان العرب، والعلم بالمقاصد فقد أخطأ وضلّ الطريق والوسيلة.ومن هنا فقد أرجع الشاطبي الإحداث في الشريعة لأربعة أنواع وهي:"[4]

1- الجهل بأدوات الفهم.

2- الجهل بالمقاصد.

3- تحسين الظن بالعقل.

---

[1] - علي حسب الله : أصول التشريع الإسلامي، ص:176.

[2] - ابن عاشور: التحرير والتنوير، مج:01، ج:01، ص:18.

[3] - ينظر: المصدرنفسه، مج:01، ج:01، ص:19.

[4] - ينظر: الشاطبي، الإعتصام، ج:02، ص: 470.

4- اتباع الهوى.

واعتبر أن الجهل بسعة لسان العرب جهل بأدوات الفهم، حيث ذكر في النوع الأول وهو الجهل بأدوات الفهم بأن القرآن جار في ألفاظه وأساليبه ومعانيه على لسان العرب حيث قال: "إن الله عزوجل أنزل القرآن عربيا لا عجمة فيه، بمعنى أنه جار في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:03]، قال تعالى:﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:28]، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:193-195].

وكان المنزل عليه القرآن عربيا أفصح من نطق بالضاد وهو محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم-. وكان الذين بعث فيهم عربا أيضا. فجرى الخطاب به على معتادهم في لسانهم، فليس فيه شيء من الألفاظ والمعاني إلا وهو جار على ما اعتادوه، ولم يداخله شيء"[1].

ثم قرر أن جميع الألسنة تبع للسان العرب وأن مراد الله يفهم من هذا الطريق، فإذا كان القرآن نزل بلسان عربي، وأنه جار في ألفاظه ومعانيه على ما اعتاده العرب، وأنه: "بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب. وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها"[2].

[1]-الشاطبي: الاعتصام، ج:02، ص: 470 ؛ ينظر: الشافعي، الرسالة: ص:61.

[2]- ينظر المصدر نفسه، ج:02، ص:471.

ولهذا الاعتبار– وهو اعتبار فهم ألفاظ ومعاني وأساليب على مقتضى لسان العرب– اعتنى علماء اللغة وعلماء الشريعة بوجه عام، وعلماء أصول الفقه بوجه خاص"باستقراء الأساليب العربية وعباراتها ومفرداتها، واستمدوا من هذا الاستقراء ومما قرره علماء هذه اللغة قواعد وضوابط يتوصل بمراعاتها إلى فهم الأحكام من النصوص الشرعية فهما صحيحا يطابق ما يفهمه منها العربي الذي وردت هذه النصوص بلغته، ويتوصل بها أيضا إلى إيضاح ما فيه خفاء من النصوص، ورفع ما قد يظهر بينها من تعارض، وتأويل ما دل دليل على تأويله، وغير هذا مما يتعلق باستفادة الأحكام من نصوصها."[1]

وبالتالي فباعتبار أن نصوص القرآن والسنة باللغة العربية، وفهم الأحكام يكون على مقتضى الألفاظ والمعاني والأساليب العربية، فإن العلم بلسان العرب وبالقواعد التي تضبط اتساعه له أثر في معرفة مراد الشارع. والجهل به وبقواعده جهل بالأداة والمراد معا. وهذا ما قرره ابن تيمية أيضا، واعتبر أن الجهل بمعرفة العربية سبب ضلال عامة أهل البدع بقوله: "ولابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك"[2].

[1]– عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، الزهراء للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 02، (1993م)، ص:140.

[2]– عبد الحليم بن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مكتبة الرباط، المغرب، مج:07، ص:116.

فالفهم الصحيح لنصوص الكتاب والسنة يتوقف على فهم القواعد التي استمدها علماء الأصول مما قرره أئمة اللغة العربية في دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني بعد استقراء ذلك فيما أثر عن العرب من منثور ومنظوم. إذ"هذه القواعد والضوابط لغوية مستمدة من استقراء الأساليب العربية ومما قرره أئمة اللغة العربية، وليس لها صبغة دينية، فهي قواعد لفهم العبارات فهما صحيحا ولهذا يتوصل بها أيضا إلى فهم مواد أي قانون وضع باللغة العربية، لأن مواد القوانين الوضعية المصوغة باللغة العربية هي مثل النصوص الشرعية في أنها جميعا عبارات عربية مكونة من مفردات عربية ومصوغة في الأسلوب العربي، ففهم المعاني والأحكام منها يجب أن يسلك فيه السبيل العربي في فهم العبارات والمفردات والأساليب"[1].

وهذه القواعد اللغوية كما تستخدم في فهم النصوص الشرعية واللغوية تستخدم في فهم النصوص القانونية، فالقواعد والضوابط التي قررها علماء أصول الفقه الإسلامي في طرق دلالة الألفاظ على المعاني، وفيما يفيد العموم من الصيغ، وفيما يدل عليه العام والمطلق والمشترك، وفيما يحتمل التأويل وما لا يحتمل التأويل، وفي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وفي أن العطف يقتضي المغايرة، وأن الأمر المطلق يقتضي الإيجاب، وغير ذلك من ضوابط فهم النصوص واستثمار الأحكام منها، كما تراعي في فهم النصوص الشرعية تراعي في فهم نصوص القانون المدني والتجاري. وقانون المرافعات والعقوبات وغيرها من قوانين الدولة الموضوعة باللغة العربية"[2].

[1]- عبد الوهاب خلاف: علم اصول الفقه، ص:141.

[2]- ينظر : المرجع نفسه ، ص:141.

إضافة إلى استخدام هذه القواعد في فهم النصوص الشرعية واللغوية فلا بد من مراعاة معهود الأميين في ذلك دون تكلف، لذلك"من تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته، كانت موافقته للصواب–إن وافقه من حيث لا يعرفه– غير محمودة، والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور، إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيه"[1].

ذلك أنه لما أنزلت الشريعة بلسان عربي مبين تعين على الناظر مراعاة معهود الأميين،– وهم العرب الفصحاء– فيأخذ ما ألفه العرب في مجاري خطابها، فلا يتكلف في فهمها أو يجعل دلالتها ما لا تحتمله ألفاظها أو تقتضيه أعرافها.

فإنه من اللازم فهم كل لغة على وفق معهود أصحابها، بل لا يتأتى ذلك إلا من هذا الطريق. ذلك أن تواضع أصحاب اللغة يختلف من لغة إلى أخرى. فكل يستعمل ألفاظ مخصوصة في معاني مخصوصة ويعبر عنها بتراكيب مخصوصة.

وهذا ما قرره الشاطبي في المسألة الرابعة من بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام بقوله: "لابد في فهم الشريعة من إتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه. وهذا جار في المعاني والألفاظ والأساليب"[2].

[1] – الشافعي: الرسالة: ص:67.

[2]– الشاطبي: الموافقات، ج:02، ص: 68.

يتقرر من هذا أنه بمقدار استخدام هذه القواعد وإتباع معهود الأميين، يكون فهم مراد الشارع، وبمقدار تكلف استخدام هذه القواعد أو الجهل بها، والخروج عن معهود الأميين بمقدار البعد عن فهم مراد الشارع، والوقوع في الضلال والبدع.

أهمية النحو والإعراب كنماذج في فهم الخطاب القرآني:

1- أهمية النحو:

عرف ابن جني النحو بأنه هو "انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة، والنسب والتركيب، وغير ذلك."[1] ثم بين أثر النحو في إلحاق "من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"[2].

وأكد عبد القاهر الجرجاني على أهمية النحو وقيمته الأساسية في نظم الكلام بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[3].

---

[1] - ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط:02، دار الكتب المصرية، (1371هـ- 1952م)، ج: 01، ص: 34.

2 - ينظر : المصدر نفسه، ج: 01، ص: 34.

[3] - الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، قدم له: ياسين الأيوبي: (1422هـ-2002م)، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ص: 127.

2- أهمية الإعراب:

الإعراب هو: "الإبانة عن المعاني بالألفاظ"[1]. وهذه الإبانة أساسها ضبط الألفاظ ومقصدها ضبط المعاني، لذلك كان الإعراب وسيلة للتفريق بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين، إضافة إلى أنه لا يمكن إيضاح ما استبهم من الكلام إلا من طريقه، "ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيد أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجا"[2]واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه"[3].

ولما كان الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ؛ كانت له قيمة أساسية في التفريق بين المعاني، واعتبر من أدوات فهم النصوص، وقد بين ابن قتيبة أهمية هذه الوسيلة، وتكلم عن حال العرب وما لها من بيان بقوله: "ولها الأعراب الذي جعله الله وشْيًا لكلامها، وحيلة لنظامها، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين. كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب"[4].

ويمكن التمثيل لأهمية الإعراب بما يلي:

---

[1] - ابن جني: الخصائص، ج: 01، ص: 35.

[2] - الشَرْج: الضرب، يقال: هما شَرْج واحد، وعلى شرج واحد، أي ضرب واحد. ابن منظور: لسان العرب، ج02، ص:307.

3 - ابن جني: المصدر السابق، ج: 01 ص: 35.

[4] - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص:14.

1- لو أن قارئا قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾" [يس : 76] وترك طريق الابتداء بأنّاَ، وأَعْمَلَ القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب "أَنَّ" بالقول كما ينصبها بالظن، لقلب المعنى عن جهته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبي عليه السلام محزونا لقولهم: إنَّ الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوزوا فيه"[1].

2- التفريق بين معنى الجزم ومعنى الرفع: وقد قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ لَا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"[2] فمن رواه "جزما" أوجب ظاهر الكلام للقرشي ألا يقتل إن ارتد، ولا يُقتص منه إن قَتل، ومن رواه"رفعا" انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لا يرتد منها أحد عن الإسلام فيستحق القتل. أفما ترى الأعراب كيف فرق بين هذين المعنيين"[3].

3- التفريق بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين: فيقولون: (رجل لُعْنَةٌ)، إذا كان يلعنه الناس، فإن كان هو الذي يلعن الناس، قالوا:(رجل لُعَنَةٌ)، فحركوا العين بالفتح.

[1] - ابن قتيبة تاويل مشكل القرءان، ص:14-15.

[2] - مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: 01، مؤسسة المختار: القاهرة، (1426هـ- 2005م)، كتاب: الجهاد والسير، باب: لا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح، رقمه: 1782، ص:770.

[3] - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص:14-15.

وعلى مثل هذا يقاس: (سُبَّةٌ، وَسُبَبَةٌ) و(هُزْأَةٌ وَهُزَأَةٌ) و(سُخْرَةٌ وَسُخَرَةٌ) و(ضُحْكَةٌ، وَضُحَكَةٌ) و(خُدْعَةٌ، وَخُدَعَةٌ)"[1].

مدى أهمية قواعد اللغة العربية في تحصيل المقاصد من الخطاب القرآني.

فهم الأحكام الشرعية إنما يكون فهما صحيحا إذا روعي فيه مقتضى الأساليب في اللغة العربية، وطريق الدلالة فيها، وما تدل عليه ألفاظها مفردة ومركبة على حسب ما تقرر من قواعد في علوم اللسان العربي.

ومن ههنا تتبين أهمية قواعد اللغة العربية، إلى درجة اعتبارها أنها حجة قائمة في تحديد مقصود الشارع ومراده الذي قصده.

وقد قرر ذلك ابن جني بعد أن أثنى على علماء العربية، بحيث اعتبر أن ما قعدوه من قواعد هو عون لفهم ما أمر الله به، وما نهى عنه، إذ إجماع أهل العربية المنتزع من استقراء هذه اللغة يعتبر حجة لا يجوز مخالفته؛ لذلك قال عن المخالف لهم "لا نسمح له بالإقدام على مخالفته الجماعة التي طال بحثها، وتقدم نظرها، وتتالت أواخر على أوائل، وأعجازا على كلاكل، والقوم الذين لا نشك في أن الله –سبحانه تقدست أسماؤه– قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة في الترجيب له والتعظيم، وجعله ببركاتهم، وعلى أيدي طاعتهم، خادما للكتاب المنزل، وكلام نبيه المرسل، وعونا على فهمها، ومعرفة ما أمر به، أو نهي عنه الثقلان منهما، إلا بعد أن يناهضه إتقانا ويثابته عرفانا، ولا يخلد إلى سانح خاطره، ولا إلى نزوة من نزوات تفكره"[2].

---

[1] – ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص:15-16.

[2]– ابن جني: الخصائص، ج:01، ص: 190.

وأكد ابن جني على أن معرفة الأوامر والنواهي، وطريق فهم نصوص الكتاب والسنة هو باتِّباع ما قرره علماء العربية من قواعد، وأن من أراد السداد حذا حذو علماء العربية: " فإذا هو حذا على هذا المثال، وباشر بإنعام تصفحه أحناء الحال، أمضي الرأي فيما يريه الله منه، غير معاز[1] به، ولا غاض من السلف –رحمهم الله– في شيء منه فإنه إذا فعل ذلك سدد رأيه، وشيع خاطره، وكان بالصواب مئنة، ومن التوفيق مظنة"[2].

وقد أكد الشاطبي أيضا على أهمية احترام والتزام حدود وقواعد اللغة العربية في فهم مقاصد النصوص حتى قرر أن الشريعة: " لا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة أو متوسطا فمتوسط في فهم الشريعة."[3]

يتقرر إذن أنه بمقدار التمكن من اللغة العربية وقواعدها بمقدار القدرة على إدراك ومعرفة مقاصد الشريعة إدراكا سليما يلامس العربي بالسليقة، وبمقدار الضعف في اللغة العربية وقواعدها، بمقدار ما يقع الغلط وسوء الفهم والاضطراب في إدراك مقاصد الشريعة.

فإذا تقرر أن القرآن نزل بلسان عربي، وأنه جار في ألفاظه ومعانيه على ما اعتاده العرب، وأن فهم الأحكام ومراد الشارع إنما يكون على مقتضى قواعد دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني، التي قررها أئمة اللغة في ضبط قوانين الكلام العربي، وأن العلم بلسان العرب– باعتباره أداة الفهم– له أثر في معرفة مراد الشارع. والجهل به جهل بالأداة

[1] – المعازة: المغالبة؛ ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مج:05، ص: 411.

[2] – ابن جني: الخصائص، ج:01، ص: 190.

[3] – الشاطبي: الموافقات، ج: 04، ص:324.

والمراد معا، فإنه كما ذكرنا سلفا، بمقدار العلم بلسان العرب، واستخدام هذه القواعد وإتباع معهود الأميين، يكون فهم مراد الشارع، وبمقدار تكلف استخدام هذه القواعد أو الجهل بها، والخروج عن معهود الأميين بمقدار البعد عن فهم مراد الشارع، والوقوع في الضلال والبدع.

أثر الفصاحة في بيان الخطاب القرآني وضبطه

اللغة ملكة من الملكات، أشبه ما تكون بصناعة من الصناعات، والصناعة تقتضي التركيب بين أجزاء المصنوع، وإذا كانت كذلك، فما هو منهج التركيب بين الألفاظ والمعاني الذي يحصل الفصاحة والبلاغة في اللسان العربي؟ فيتعين أولا بيان معنى الملكة وعلاقتها بالفصاحة، ثم ضبط منهج تحقيق الفصاحة، وأثر ذلك في تحصيل المعاني.

لقد اثبت ابن خلدون أن اللغة ملكة شبيهة بالصناعة ينزل عليها ما ينزل على الصناعة، حيث قال: "واللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة"[1]. وعليه، قرر ابن خلدون أن اللغة ملكة تكون في اللسان، وترجمة هذه الملكة وتمامها إنما هي في العبارة عن المعاني وجودتها، والعكس بعكسه.

[1] – ابن خلدون: المقدمة، ص: 344.

والعبارة عن المعاني بالجودة أو القصور، ملحظه في البلاغة ليس في المفردات، وإنما هو في أمرين:

1-تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة.

2-مراعاة التأليف على مقتضى الحال.

فحينئذ يبلغ المتكلم الغاية من إفادة مقصوده للسامع.

ولا يتحقق المتكلم بالبلاغة والملكة إلا بتكرار الأفعال وبلوغه الصفة الراسخة بعد مروره بالتكرار الأول الذي تعود منه للذات صفة، ثم التكرار الثاني الذي يكون حالا أو صفة غير راسخة، ذلك أن "الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة"[1].

ثم بين ابن خلدون أهمية البيئة واستعمال المفردات في تكوين الملكة اللغوية ومنهج الحصول على ملكة اللغة بقوله:"فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فليقننها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فليقننها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم، هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال"[2].

[1] - ابن خلدون: المقدمة، ص: 344.

[2] - ينظر : المصدر نفسه، ص: 344.

ونبه ابن خلدون إلى أن مخالفة هذا، سبب فساد هذه الملكة لأن "الناشئ من الجيل صار يسمح في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذا وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي"[1].

ومن ثمَّ تبين أهمية البيئة، واستعمال المفردات، وطريقة التعبير عن المقاصد بالكيفيات التي كانت للعرب في تكوين الملكة اللغوية، وأن مخالفة ذلك سبب فساد اللسان العربي.

فهذا منهج تحقيق الملكة في اللغة بوجه عام، ولا بد من تحقيق الملكة في الفصاحة بوجه خاص لأهمية هذا المقصد وأثره البالغ في بيان مراد المتكلم ومقصود الشارع.

حقيقة الفصاحة والبلاغة والبيان في اللسان العربي.

ههنا لا بد من التساؤل: إلى أي مدى يمكن للسان العربي أن يكون مفصحا ومبينا عن مراد المتكلم، ومحصلا لمقصود الشارع؟ وما أوجه هذا الإفصاح؟ وهل هناك تفاوت بين المتكلمين في الإفصاح؟ وإذا كان كذلك ما أسباب ذلك؟ وهل يعود ذلك إلى اللفظ أم إلى المعنى؟

حقق عبد القهار الجرجاني في البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة في كتابه دلائل الإعجاز في علم المعاني، بحيث اعتبر أن حقيقة الفصاحة تتجلى في الإخبار عن الغرض والمقصد أولا، ثم في القدرة على كشف ما يستكن في النفس والقلب ثانيا، إذ الفصاحة

[1] – ينظر : ابن خلدون: المقدمة، ص: 344.

وكل ما شاكلها، "مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم".[1] فكل إخبار عن الأغراض والمقاصد، يكون معلما عما في النفس، وكاشفا عما في القلب، فهو عين البلاغة والفصاحة والبيان.

إضافة إلى أن الفصاحة التي هي الإخبار عن الأغراض والمقاصد إنما تكون باللفظ الذي يدل على المعنى، دون مزية للفظ على المعنى، وهذا ما لفت إليه عبد القاهر الجرجاني، بحيث اعتبر أنه، لا معنى لهذه العبارات إن كانت المزية للفظ دون المعنى إذن فتحقيق هذه الخصال؛- خصال الفصاحة-؛ وهي وصف الكلام بحسن الدلالة، وتمامها، ثم تزينه في أبهى صورة، وتحقيقه لأغراضه ومقاصده، يمر عبر عاملين:

العامل الاول: أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته.

العامل الثاني: أن يختار للمعنى اللفظ المتناسب معه: بحيث يكون أخص بالمعنى المراد، وأكشف عنه وأتم دلالة له، وأحرى في تزينه حتى يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية عن غيره.

وقد أوضح عبد القهار الجرجاني كيف يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وكيف يختار للمعنى اللفظ الذي هو أخص به بقوله: "فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا، وأمرا، ونهيا، واستخبارا، وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في

[1] - الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا ، دار المنار ، مصر. ط4. 1367 هـ/ 1967م ص:97.

الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به"[1].

وبالتالي وحتى يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، لا بد أن يختار له اللفظ الذي يتناسب معه مضمونا وشكلا، ويكون ذلك بالنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف أولا، ثم بعد دخولها في التأليف ثانيا، بالنظر هل هناك تفاضل بين اللفظتين أم تناسب بينهما في الدلالة على المعنى.

وتأسيسا على هذا فإن حقيقة الفصاحة تكمن في الإخبار عن أغراض ومقاصد المتكلم باللفظ والمعنى من الجهة التي هي أصح لتأديتهما.

وإذا كان كذلك فإن ركنا الفصاحة هما اللفظ والمعنى. على أن لا تكون مزية للفظ على المعنى، فلا مجال للشك كما قرر عبد القاهر الجرجاني أن: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر"[2]. إذن لا مزية ولا فضيلة للألفاظ مجردة، وإنما مزية اللفظ وفضيلته من خلافها تكمن في ملاءمته لمعنى اللفظة التي تليه من عدمها.

وهذا ما أطلق عليه عبد القاهر الجرجاني في مقدمة كتابه أسرار البلاغة في علم البيان، "بالاختصاص في الترتيب"، وهو ترتيب الكلام – بيت شعر أو فصل خطاب– على

[1] –الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:97.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص: 99.

طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة. وإنما يقع ذلك في الألفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل.

ذلك أنّ الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من الترتيب والتركيب، فلو أبطل ترتيب ونظام بيت من الشعر أو فصل نثر– الذي بخصوصية ترتيبه أفاد معناه، وبنسقه المخصوص أبان المراد – وغير وأفرغ من معناه، كان ذلك إخراج له من كمال البيان، إلى مجال الهذيان، وإسقاط نسبته من صاحبه"[1].

يتقرر إذن أن الفصاحة تكون في اللفظة باعتبار مكانها من النظم وملائمة معناها لمعاني جارتها، فتثبت لها الفصاحة باعتبار غيرها–من النظم والملاءمة– لا باعتبار نفسها، وقد قرر هذا عبد القادر الجرجاني بقوله: "وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلق والنبو عن سوء التلازم"[2].

وعلى هذا فإن الفصاحة تطلق على اللفظة باعتبار وجود اتفاق بينها وبين جاراتها السابقة أو اللاحقة في المعنى. ويطلق النبو والقلق على اللفظة–غير فصيحة–باعتبار سوء التلازم بينها وبين جاراتها السابقة أو اللاحقة في المعنى. وقد وضح عبد القاهر الجرجاني ذلك بمثال بقوله: "وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ

[1] – ينظر:الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، (1982/1403)،ص:01-02.

[2] – ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:98.

أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ وَقِيلَ بُعْداً لّلْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾[هود:44]، فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا الأمر برجع إلى ارتباط هذه الكلمة بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها"[1].

فجمع في الآية من بديع الإيجاز والبيان والبلاغة؛ "كيف أمر ونهى، وأخبر ونادى، ونعت وسمى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى، قص من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام وانحسرت الأيدي"[2].

وعليه، يتقرر الاقتران بين اللفظ والمعنى، وأن هناك علاقة وطيدة بينهما، بحيث إذا وجدت هذه العلاقة وصف الكلام بالبيان، وإذا انعدمت خرج الكلام عن البيان. وهنا لا بد من التساؤل عن أساس هذه العلاقة؟ وما أثرها في بيان مراد المتكلم؟ .

وهذا ما سيتبين فيما ياتي:

نظم الكلام بحسب المعاني (علاقة اللفظ بالمعنى):

ضبط أثر وعلاقة الفصاحة بتحديد مراد الشارع إنما يتحقق ببيان حقيقة العلاقة التي تربط اللفظ بالمعنى.

---

[1]- الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص: 98.

[2]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط:02، دار المعرفة، بيروت، (1391هـ/1972م)، ج:03، ص:227.

أولا: منهج نظم الكلام بحسب المعاني:

اللغة أصوات ومعاني يقترن بعضها ببعض لتحصيل غرض مخصوص، وقيمتها في التعبير عن الغرض والمقصد والمراد من الأصوات–الألفاظ– وقد عرفها ابن جني تعريفا دقيقا بقوله: "إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".[1] ولما كانت كذلك، كان اللفظ مختلفا من لغة لأخرى، والمعنى مشتركا بين اللغات، بحكم الاشتراك في الأغراض والمقاصد، إذن هناك علاقة بين اللفظ من حيث هو أصوات تلفظ، والمعنى من حيث هو أغراض تقصد، ولا تتم هذه العلاقة اعتباطا، بل لا بد أن تكون منظومة بطريقة يقترن فيها اللفظ بالمعنى المترتب في العقل والنفس.

وعليه، فهناك حروف منظومة وكلم منظومة، فنظم الحروف" هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل، اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أن واضع اللغة، كان قد قال(ربض) مكان(ضرب)، لما كان في ذلك ما يؤدي على فساد."[2] لذلك فنظم الحروف ليس واجبا لمعنى اقتضاه.

وأما نظم الكلم فتقتضي "في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"[3]. وهنا يتبين أنه " ليس الغرض بنظم الكلم

[1] –ينظر: ابن جني: الخصائص: ج:01، ص:33.

[2] – ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 102.

[3] – المصدر نفسه، ص:102.

أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[1].

وتأسيسا على هذا فإن منهج نظم المعاني يجمع بين فكرتين أساسيتن:

الفكرة الأولى: أن تتناسق دلالة ألفاظها.

الفكرة الثانية: وأن تتلاقى معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل وترتب في النفس. وبهذين الخطوتين يكون نظم الكلام في اللغة بحسب المعاني ولأجلها، فإصلاح اللفظ إنما هو لأجل المعنى، ولأجل تحصيل المراد، فاهتمام العرب بتناسق الألفاظ، اهتمام بالمعاني التي تقصدها، كما قرر ابن جني، لأنه لما "كانت الألفاظ للمعاني أزمة، وعليها أدلة، وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة، عنيت العرب بها، فأولتها صدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها."[2]

ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر، وتخير اللفظ المناسب الذي يحصل الغرض بأقرب وسيلة، ولأجله يتفاضل البلغاء، لذلك اعتبر عبد القاهر الجرجاني أن "النظم الذي يتواضعه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة، وإذا كانت مما يستعان عليها بالفكرة،ويستخرج بالروية، فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس: أبالمعاني؟ أم بالألفاظ؟ فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك وتعي فيه صياغتك ونظمك وتصويرك، فمحال أن تفكر في شيء وأنت لا تصنع فيه شيئا وإنما تصنع في غيره"[3].

---

[1] – ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 102.

[2] –ينظر: ابن جني: الخصائص، ج:01، ص: 312.

[3] –ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 103.

ومن ثمَّ فاللغة تخضع بألفاظها ومعانيها للفكر الذي تعبر عنه، وتتشكل بمعاني ووجدان أصحابها. وعلى هذا فلا بد من الاعتناء باللفظ والمعنى –هو طريق فهم المراد–، ولكن المزية في الكلام إنما هي "من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بذكرك، وتعمل رؤيتك وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك."[1]

وههنا يتعين تقرير نتيجة مهمة تتعلق بتحصيل المعاني وهي أنه لا بد من تناسق الألفاظ، ومن أن تلاقي المعاني يخضع لمقتضى العقل، وأن الألفاظ أوعية للمعاني، وبالتالي فلا محالة من تتبع المعاني في مواقعها"[2].

إذا علمنا هذا الأصل علمنا ما يبنى عليه وهو أنه "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ، ترتيبا ونظما وأنك تتوفى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تمَّ لك ذلك أتبعته الألفاظ وقفت بها آثاره وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لن تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها ولاحقة بها،

وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليه في النطق".[3] وهذا ما أخبر به عبد القاهر الجرجاني ولا ينبئك مثل خبير.

[1] – الجرجاني دلائل الإعجاز، ص: 112.
[2] – المصدر نفسه ، ص: 104.
[3] – المصدر نفسه ، ص: 105.

ثانيا: أهمية نظم الكلام بحسب المعاني:

تأسيسا على أن منهج نظم الكلام بحسب المعاني يقتضي الجمع بين تناسق دلالة الألفاظ، والتلاقي بين معاني هذه الدلالات فإن العناية باللفظ والمعنى من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأنزهها. وهذا ما قرره ابن جني في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني بقوله: "وذلك أن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها."[1]

وهذا كما هو ثابت في المنثور، ثابت في المنظوم فإنما هو لخدمة المعنى، فالعرب تعتني بالألفاظ دون إغفال المعاني، بل تعني بالألفاظ فتصلحها ولكن المعاني أقوى عندها، وهذا ما دلل عليه ابن جني بقوله: "فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذَّ لسماعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديرا باستعماله، ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله"[2].

[1] – ينظر: ابن جني: الخصائص، ج:01، ص: 215.

[2] – المصدر نفسه، ج: 02، ص:215-216.

فتحسين الألفاظ وتهذيبها والاعتناء بها، إنما هو خدمة للمعاني، فبمقدار الاعتناء باللفظ بمقدار الزيادة في الاعتناء بالمعنى والعكس بعكسه: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته، وتقديسه وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه، وجواره بما يعطر بشره ولا يعر جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه، ويغض منه كدرة لفظه، وسوء العبارة عنه."[1] ومن هنا يتقرر "غلبة المعنى للفظ، وكون اللفظ خادما له، مشيدا به، وأنه إنما جيء به له".[2]

وهذا الاهتمام بنظم الكلام بحسب المعاني، جعل العرب تتفنن في كلامها من كل أفانين الكلام إذ كان" الخطيب من العرب، إذا إرتجل كلاما في نكاح أوحَمَالَة، أو تخصيص أو صلح أو ما أشبه ذلك لم يأت به من واد واحد، بل يفتن، فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء ويكنى عن الشيء، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام، ثم لا يأتي بالكلام كله مهذبا كل التهذيب، ومصفى كل التصفية، بل تجده يمزج

[1] – ابن جني ، الخصائص ، ج: 02، ص: 217.
[2] – المصدر نفسه ، ج: 02، ص: 237.

ويشوب، ليدل بالناقص على الوافر، وبالغث على السمين، ولو جعله كله نَجْرًا"[1] واحدا لبخسه بهاءه، وسلبه ماءه"[2].

نعم، هكذا كانت تتفنن العرب في كلامها، وكل ذلك وهي تقصد في كلامها سواء في الإيجاز، أو الإطالة، أو التكرار، أو الإخفاء، أو الإظهار، مع مراعاة الحال والمقام.

هذا من الناحية العملية في التفنن في كلامها، أما من الناحية النظرية التأصيلية، فقد أسست علوما خاصة تعتني فيها بكلامها، منها التفنن في علم فنون البلاغة، والخوض في وجوه الفصاحة، والتصرف في أساليب الكلام، حتى كان ذلك أعظم منتحلاتهم، فجاءهم القرآن الكريم، وهو من جنس كلامهم، فأعجزهم بلفظه ومعناه، وتحداهم ودعاهم للتظاهر في رفع التحدي، قال تعالى:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنّ عَلَىَ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[الاسراء:88] "[3].

وفي الآية تنبيه على شرف هذا القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأخبر سبحانه:" أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا

---

[1] – نجر النجر، والنجار و النجار؛ الأصل والحسب ويقال: النجر اللون. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج:05، ص:193.

[2] – ابن قتيبة: تأويل مشكل القران، ص:13.

[3] – ينظر: الشاطبي، الموافقات، ج 02، ص: 63. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:94. عبد العزيز عتيق: علم البيان، دار النهضة، بيروت، (1405هـ-1985م)، ص: 07-13.

أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له."[1]

فالقرآن بهذا كما قال الزمخشري، أنزل كلاما مؤلفا منظما معجزا، صفاته من صفات الله المبدع، لذلك كان "كتابا ساطعا تبيانه، قاطعا برهانه، وحيا ناطقا ببينات وحجج، قرآنا عربيا غير ذي عوج، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية، مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزا باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان، دائر من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عددا من رمال الدهناء."[2] . كان هذا التحدي فيما برعوا فيه خاصة، كما قال مصطفى صادق الرافعي، بعد أن كان أكبر الأمر بينهم للفصاحة وأساليبها؛ بما استقام لهم من شأن الفطرة اللغوية، وما بلغوا منها، حتى صارت هذه الأساليب كأنها أعصاب نفسية في أذهانهم، تنبعث فيها الإرادة بأخلاق من معاني الكلام الذي يجري فيها، وبعد أن "بلغ العرب في عقد القرآن مبلغا من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل، فإن كل ما وراءه إنما كان أدوارا من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع، فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه، وتوافى عليه من شعرائهم

[1] – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (الشهير بتفسير ابن كثير)، ط: 03، دار الأندلس، (1401هـ-1981م)، ج:04، ص: 348.

[2] – الكشاف : عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط:01 ، بيروت، (1397هـ-1977م)، مج:01 ، ص:08-10.

أفراد معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر في تاريخه، بما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه. وما نفض عليه من الصبغ والرونق؛ ثم كان لهم من تهذيب اللغة، واجتماعهم على نمط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن أن يكون، وأخذهم في هذا السمت، ما جعل الكلمة نافذة في أكثرها لا يصدها اختلاف من اللسان، ولا يعترضها تناكر في اللغة؛ فقامت فيهم بذلك دولة الكلام؛ ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن"[1].

ومن هذا يتقرر إذن أن الفصاحة في اللسان العربي، إنما هي في اللفظ وفي المعنى، وأن اللفظ خادم ووسيلة والمعنى مخدوم وغاية، وأن العرب تقصد في كلامها، وأنها تهتم بألفاظها لأجل التوصل إلى مقاصدها وأغراضها بأقرب وسيلة، وقد برعت وتفننت في ذلك أيما تفنن. إلى أن جاءهم من البيان والفصاحة في اللفظ والمعنى ما أعجزهم؛ ألا وهو القرآن العظيم. وهذا ما سيتبين فيما ياتي:

أثر الفصاحة والإعجاز في بيان الخطاب القرآني:

يتوجب تحقيق علاقة الفصاحة من جهة اللفظ والمعنى بالإعجاز في القرآن الكريم، ولتحقيق ذلك لابد من بيان أولا حقيقة الإعجاز، وهل الإعجاز في اللفظ أم في المعنى أم في سر آخر ؟. هل عجزوا عن معان في دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ أجاب عبد القاهر الجرجاني عن ذلك بقوله: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ أية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه

[1] – الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط: 08، مكتبة رحاب، الجزائر، ص: 157-159.

وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة يبنوا بها مكانها ولفظة يذكر شأنها أو يرى إن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساعا بهر العقول، واعجز الجمهور،ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم- ولوحل بيافوخه السماء- موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول"[1].

ومنه فإن القرآن المبين قد بلغ الغاية في النظم والالتئام والإتقان والإحكام في اللفظ وفي إيصال المعنى والغرض من غير إخلال، ولا اختلاف، ولا معارضة، دون أن يدانيه أحد، دليل قاطع على الفصاحة فيه من جهة المعنى. وبالتالي من جهة اللفظ أيضا. وأن حقيقة الإعجاز في كل ذلك من أسرار الفصاحة والبلاغة والبيان.

وترجمة هذا الإعجاز تعبر عن "رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملاءمة".[2]

ثانيا: حقيقة الفصاحة من جهة اللفظ والمعنى في كلام الخالق:

إذا تقرر أن الفصاحة في اللسان العربي تقتضي الإخبار عن أغراض ومقاصد المتكلم باللفظ والمعنى من الجهة التي هي أصح لتأديتهما، وأن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، فإن الفصاحة في القرآن الكريم؛ تقتضي الإخبار عن أغراض ومقاصد المتكلم باللفظ والمعنى من

[1] - ينظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 94.

[2] -ينظر: الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ص: 156.

الجهة التي هي أصح لتأديتهما، ذلك أن الباري عز وجل أنزل هذا القرآن: "مبرأ عن الاختلاف والتضاد، ليحصل فيه كمال التدبر والاعتبار فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[النساء:82]، فدل معنى الآية على أنه بريء من الاختلاف، فهو يصدق بعضه بعضا، ويعضد بعضه بعضا، من جهة اللفظ ومن جهة المعنى."[1]. وكون القرآن منزها عن الاختلاف والاضطراب والتعارض دليل على أنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ لذلك أمرهم الباري عزوجل بتدبر القرآن، ونهاهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة."[2]

فتفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة امتثال للباري عز وجل، والإعراض عن معانيه وألفاظه إعراض عن الله عز وجل. فلا بد إذن من التعرض لحقيقة الفصاحة من جهة اللفظ والمعنى في القرآن الكريم، ذلك أن الفصاحة في اللسان العربي كما تقرر سابقا في حقيقة الفصاحة تقتضي الإخبار عن أغراض ومقاصد المتكلم باللفظ والمعنى من الجهة التي هي أصح لتأديتهما. فكيف إذن بالفصاحة في القرآن الكريم؟ وما أثر الفصاحة من جهة اللفظ ومن جهة المعنى في بيان مراد الشارع؟

1-الفصاحة من جهة اللفظ:

ليس كمثل كلام الخالق من كلام المخلوق شيء، وإن ثبتت الفصاحة لكلام المخلوق؛ فإنه يعتريها النقص، بعكس الفصاحة في كلام الخالق عز وجل "فمن جهة اللفظ

[1] - الشاطبي: الإعتصام. ج: 02، ص: 479.

[2] - ينظر: ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج: 02، ص: 345-346.

فإن الفصاحة فيه متواترة مطردة، بخلاف كلام المخلوق فإنك تراه إلى الاختلاف ما هو، فيأتي بالفصل من الكلام الجزل الفصيح فلا يكاد يختمه إلا وقد عرض له في أثنائه ما نقص من منصب فصاحته، وهكذا تجد القصيدة الواحدة،منها ما يكون على نسق الفصاحة اللائقة، ومنها ما لا يكون كذلك"[1].

ومنه فإن القرآن المبين أفصح الكلام على الإطلاق، والفصاحة فيه مطردة متواترة، وهو الأبلغ على الإطلاق من حيث اللفظ والأسلوب والمعنى.

2- الفصاحة من جهة المعنى:

اللفظ إنما تثبت له الفصاحة ببلوغ الغاية في إيصال المعنى، فلا مزية ولا فضيلة للألفاظ مجردة دون اقترانها بمعانيها، وقد اقترن اللفظ بالمعنى في القرآن الكريم، حتى بلغ كل غاية يقصدها الشارع عز وجل، فثبتت بذلك له الفصاحة من جهة المعنى، ذلك أن "معاني القرآن على كثرتها أو على تكرارها بحسب مقتضيات الأحوال على حفظ وبلوغ غاية في إيصالها إلى غايتها من غير إخلال بشيء منها، ولا تضاد ولا تعارض على وجه لا سبيل إلى البشر أن يدانوه"[2].

وقد مثل الزركشي للفصاحة والبلاغة بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[البقرة:179] وبين قول العرب" القتل أنفى للقتل"، بحيث بين أن وجوه الفصاحة

[1] - الشاطبي: الاعتصام، ج:02، ص: 479.

[2] - ينظر: المصدر نفسه، ج: 02، ص:479.

في الآية- من عشرين وجها- ومن ثم قرر أنه لا يقترن بفصاحتها شيء من الكلام، بل وتعجب كيف يقابل المعجز بغيره مفاضلة، وهو منه في مرتبة العجز عن إدراكه"[1].

وبالتالي فعلو الشأن في الفصاحة من جهة المعنى في القرآن العظيم، لا تدانيه فصاحة أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، "ولذلك لما سمعته أهل البلاغة الأولى والفصاحة الأصلية – وهم العرب- لم يعارضوه، ولم يغيروا في وجه إعجازه بشيء مما نفى الله تعالى عنه، وهم أحرص ما كانوا على الاعتراض فيه، والغض من جانبه، ثم لما اسلموا وعاينوا معانيه وتفكروا في غرائبه، لم يزدهم البحث إلا بصيرة في أنه لا اختلاف فيه ولا تعارض، والذي نقل من ذلك يسير توقفوا فيه توقف المسترشد حتى يرشدوا إلى وجه الصواب، أو توقف المتثبت في الطريق."[2].

ثالثا: مقتضيات الإعجاز والفصاحة في بيان المراد.

1- الأمد الأقصى من البيان:

إذا ثبتت الفصاحة من جهة اللفظ ومن جهة المعنى في القرآن الكريم بهذا الوصف وهذا التقرير، فإنه ليس في الممكن عبارة أوضح ولا أنص من كلام الله ورسوله، وأن كلام الله ورسوله مستول على الأمد الأقصى من البيان"[3].

[1] - ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:03، ص:222- 225.

[2] - الشاطبي: الإعتصام، ج: 02، ص:479 -480.

[3] - ينظر: ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين، ج: 03، ص: 108.

2- التنزه عن النقص والاختلاف في معانيه:

فالقرآن في نفسه لا اختلاف فيه، والاختلاف بين المكلفين في بعض معانيه أو مسائله لا يستلزم أن يكون فيه نفسه اختلاف، وتأسيسا على هذا يكون حكما بين جميع المختلفين، لأنه إنما يقرر معنى هو الحق، والحق لا يختلف في نفسه، فكل اختلاف صدر من مكلف، فالقرآن هو المهيمن عليه. قال الله تعالى ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.[النساء:59] لذلك كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه، وجب أن يرد التنازع في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق"[1].

وبالتالي يتقرر من ثبوت حقيقة الفصاحة -بأنها تقتضي الإخبار عن أغراض ومقاصد المتكلم باللفظ والمعنى من الجهة التي هي أصح لتأديتهما- ومن أن القرآن الكريم بلغ من ذلك الغاية في إيصال المعنى والغرض من غير إخلال، ولا اضطراب، ولا اختلاف، ولا معارضة، دون أن يدانيه أحد، ومن أنه يصدق بعضه بعضا، ويعضد بعضه بعضا، من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى، ومن أن الشريعة في أصولها وفروعها مبنية على ذلك.

3- التمكن من الفصاحة تمكن من الشريعة: والعكس بعكسه ذلك أن العلاقة بين الفصاحة ومراد ومقصود الشارع علاقة تكامل، فبمقدار التمكن والتبحر من الفصاحة

[1] - ينظر: الشاطبي، الموافقات، ج:02، ص:480. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج:02، ص: 326. الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ط:01، دار التراث العربي بيروت، (1417هـ-1996م)، ج:01، ص: 204.

والبلاغة والبيان، بمقدار التمكن من فهم الشريعة وبيان مراد وقصد الشارع، وبمقدار الضعف في الفصاحة بمقدار ما يكون الضعف في فهم الشريعة وتحديد مراد الشارع.

ومن ثم فعلى الناظر في الشريعة بحسب هذا أمران:

أحدهما: "أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان ويعتبرها اعتبارا كليا في العبادات والعادات ، ولا يخرج عنها البتة لأن الخروج عنها تيه وضلالة ورمي في عماية، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؟ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق والمنحرف عن الجادة، إلى بنيات الطرق"[1].

ثانيهما: "أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية ولا بين أحدهما مع الأخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادئ الرأي إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتقاء الاختلاف، لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع أو المسلم من غير اعتراض فإن كان الموضع مما يتعلق به حكم عملي فليلتمس المخرج حتى يقف على الحق اليقين، أو ليبق باحثا إلى الموت ولا عليه من ذلك فإذا اتضح المغزى وتبنيت له الواضحة، فلا بد له من أن يجعلها حاكمة في كل ما يعرض له من النظر فيها، ويضعها نصب عينيه في كل مطلب ديني كما فعل من تقدمنا ممن أثنى الله عليهم."[2]

فإذا ثبت كمال الشريعة وتمامها، وأنه لا اختلاف فيها ولا تضاد، استلزم أن يكون كل خروج عنها –بزيادة أو نقصان– أنه ضلالة وابتداع، وكل ظاهر اختلاف في الشريعة

[1] – الشاطبي: الاعتصام، ج: 02، ص:481.

[2] – ينظر المصدر نفسه ، ج:02، ص:481.

أن لا اختلاف في حقيقته وجوهره، والباحث عن حقيقة ظاهر الاختلاف، عليه إما أن يبحث عن وجه الجمع بين ذلك، وإما أن يسلم من غير اعتراض حتى يتبين له الحق.

4- رفع الخلاف برد الفروع إلى أصولها والجزئيات إلى الكليات:

وقد نقض ابن قتيبة ما عابه الطاعنون على كتاب الله عز وجل، بعد أن أورد أسباب وقوعهم في هذا الطعن، ومزاعم تأولهم حيث قال: "وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ﴿مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ آل عمران:07] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف"[1].

وطعنهم هذا إنما هو أخذ وإتباع للمتشابه؛ الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، ذلك أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى؛ ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى:﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[ال عمران:07] أي أصله الذي يرجع إليه

[1] - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ط:03، ص:22.

عند الاشتباه، (وأخر متشابهات) أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد"[1].

وتأسيسا على هذا يتقرر رد الفروع إلى أصولها، والمتشابهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات عند ظاهر الاختلاف والاشتباه. وأن الاحتجاج بظاهر الاختلاف والتشابه على اختلاف الشريعة إنما هو إنزال لاحتمال اللفظ أو التركيب وصرفه على مقصد غير مراد الله. وبالتالي فمراد الله واحد، فهو بالنسبة للمحكم واضح الدلالة، وأيضا بالنسبة للمتشابه؛ الذي تحتمل دلالته موافقة المحكم، وأما ما تحتمل دلالته شيئا آخر، فهو من حيث اللفظ أو التركيب لا من حيث المراد. فالمراد إذن واحد في المحكم والمتشابه، وإنما التعدد في احتمال اللفظ والتركيب في المتشابه.

وعلى هذا يتقرر أن المتحقق بالفصاحة أبعد ما يكون عن الطعن في كتاب الله عز وجل وفي اتباع ما تشابه منه من الاحتمالات الضعاف، بدليل أنه: "لو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم، وتأولهم، لسبق إلى الطعن من لم يزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحتج عليه القرآن، ويجعله العلم لنبوته، والدليل على صدقه، ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورة من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء والخطباء والشعراء والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللُّدَد[2] في الخصام مع اللب والنهى، وأصالة الرأي، و قد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، و كانوا مرة يقولون:

[1] – ينظر: ابن كثير: ، ج:02، ص: 05-06.

[2] – اللدد هو الخصم: الجدل الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق، وجمعه لد، ولداد، ومنه: قول عمر رضي الله عنه لأم سلمة: فأنا منهم بين ألسنة لداد وقلوب شداد وسيوف حداد، والألد أي الشديد الخصومة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج: 03، ص: 390.

هو سحر، ومرة يقولون: هو قول الكهنة، ومرة أساطير الأولين، ولم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم جدبوه من الجهة التي جَدَبَهُ منها الطاعنون."[1]

وبالتالي فكل دعوى تبنى على أساس إتباع ما تشابه من القرآن- ما يحتمله اللفظ أو التركيب- فهي محتملة، وما بني على محتمل فهو محتمل، حتى يتبين وجه الرجحان فيه؛ ويقوم الدليل؛ خاصة وقد تبينت حقيقة الفصاحة وأهميتها في بيان المراد.

تبينت حقيقة الإعجاز وعلاقته بالفصاحة وأثر ذلك في اعتبار المراد واحد وليس متعدد، وإذا كان المراد واحد وأن القرآن والسنة هما الأمد الأقصى في البيان، مع تقرير عدم الاختلاف في المعاني، وأن التمكن من الفصاحة تمكن من الشريعة والعكس بعكسه، فما طرق الفصاحة والبلاغة؟

إذا كان المتحقق بالفصاحة أبعد ما يكون عن الطعن في كتاب الله، وعن الاحتمالات الضعاف فإن على المتكلم في كتاب الله أن يعرف طرق الفصاحة والبلاغة، حتى يبني فهمه لمراد الله ومقصوده على أساس قاطع وركن متين. من علوم البيان والمعاني والبديع.

أولا: سبب سكوت الصحابة والتابعين عن طرق الفصاحة والبلاغة:

بالرغم من أن سلف المفسرين من الصحابة والتابعين لم يخوضوا في طرق الفصاحة والبلاغة، ولم ينقل عنهم شيء من ذلك، إلا أن المتأخرين أحدثوا هذه الطرق بالبيان والتفصيل والتأصيل والتقعيد لأسباب أخذت أهميتها البالغة من أهمية التعرف على فهم

[1] - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص: 22-23.

نصوص ومراد الشارع، وإنما "سكت الأولون عنه لأن القصد من إنزال القرآن تعليم الحلال والحرام، وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان، ولم يقصد منه تعليم طرق الفصاحة، وإنما جاءت لتكون معجزة، وما قصد به الإعجاز لا سبيل إلى معرفة طريقه، فلم يكن الخوض فيه مسوغا، إذ البلاغة ليست مقصودة فيه أصلا، لأنه موجود في الصحف الأولى، لا مع هذه البلاغة المعينة، وإنما كان بليغا بحسب كمال المتكلم، فلهذا لم يتكلم السلف في ذلك، وكان معرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج فيه إلى بيان، بخلاف استنباط الأحكام، فلهذا تكلموا في الثاني دون الأول."[1]

وإذا كان السلف لم يتكلموا في طرق البلاغة والفصاحة لمعرفتهم بأساليب ذلك بالسليقة، فإن استنباطهم للأحكام، وفهمهم للنصوص، وتعرفهم على مقاصد الشارع ومراده كان على أساس من ذلك .وهذا ما اقتضى من علماء اللغة –بما تحتويه هذه الكلمة من علوم– أن يقعدوا القواعد والقوانين بما يتعلق بالألفاظ والمعاني.

ثانيا: أهمية طرق الفصاحة والبلاغة في فهم النصوص وبيان المراد:

1– طرق الفصاحة والبلاغة عمدة التفسير:

لقد بين الزركشي أهمية معرفة أساليب البلاغة، وطرق الفصاحة في علم التفسير بقوله: "واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير، المطلع على عجائب كلام الله، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة، ولو لم يحبب الفصاحة إلا قول الله تعالى:

[1] – الزركشي: البرهان في علوم القرآن،ج: 01، ص:311-312.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾[الرحمان:01-04]. لكفى، والمعلومات كثيرة، ومنن الله تعالى جمة، ولم يخصص الله من نعمة على العبد إلا تعليم البيان."[1]

فالباري عز وجل خلق الإنسان، وعلمه البيان،[2] وخص العرب بالتفنن في ذلك، وهذا ما قطع به ابن قتيبة في باب ذكر العرب وما خصهم الله به من العارضة والبيان واتساع المجاز، بقوله: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة[3]، والبيان واتساع المجاز، ما أوتيته العرب خَصِيصَي من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه،كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه."[4]

إذن لا يعرف فضل القرآن وحقيقة الفصاحة والبيان فيه، إلا من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب.

2- **قوة الفهم والإفهام**: الفصاحة تفيد قوة الفهم والإفهام، وهذا ما قرره الزركشي بقوله: "ولا شك أن هذه الصناعة تفيد قوة الإفهام على ما يريد الإنسان ويراد منه، ليتمكن بها من إتباع التصديق به، وإذعان النفس له"[5].

ولا يتم حق الفهم والإفهام إلا من طريقين متلازمين:

---

[1] - الزركشي: البرهان في علوم القران ج:01، ص: 312.

[2] - المراد بالبيان: الإفصاح عما في الضمير. ينظر: الشنقيطي: أضواء البيان، ج:05، ص:218.

[3] - العارضة: قوة الكلام وتنقيحه والرأي الجيد. ينظر: ابن منظور، لسان العرب،ج:07، ص: 281.

[4] - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص: 12.

[5] - ينظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:01، ص:312.

الأول: كثرة النظر، واتساع العلم، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب.

الثاني: البراعة في علمين مختصين بالقرآن؛ وهما: علم المعاني وعلم البيان.

وهذا ما قرره الزمخشري في مقدمة تفسيره الكشاف، مع بيان صفات المتعرض لكتاب الله، بحيث أنه لا يكفي أن يكون المفسر من أئمة الفقه، أو النحو، أو اللغة، أو علم الكلام، أو القصص والأخبار، وإنما لا بد أن يكون" قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، وردّ وردّ عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدما في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها"[1].

كما اشترط أن يكون ذا دربة وتجربة بأساليب وفنون الكلام من النظم والنثر، مرتاضا على ترتيبه."[2]

يتقرر إذن أن علم المعاني وعلم البيان صناعة تفيد قوة الفهم والإفهام، وأنه لا يمكن للمفسر أن يتعاطى علم التفسير، وبيان مراد الشارع إلا على دراية بهما.

كما أنه لابد من البراعة في طرق الفصاحة والبلاغة، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب لفهم مراد الشارع، إضافة إلى البراعة في علم المعاني وعلم البيان.

[1] - الكشاف : مج: 01، ص: 15-17.

[2] - ينظر: المصدر نفسه، مج:01، ص: 17.

الفصل الثـــاني:

الضوابط المنهجية للخطاب القرآني

وأثرها في بيان الاعجاز.

* طبيعة الخطاب القراني.
* الضوابط المنهجية لأركان التخاطب وأهميتها في بيان المراد
  - أركان الخطاب.
  - ضوابط حال الخطاب (لغة الخطاب).
  - ضوابط المخاطِب: (المتكلم).
  - ضوابط المخاطَب:(السامع).
  - ضوابط سياق الخطاب. (ما يحيط بالخطاب).

تقوم الشريعة على ركنين عظيمين؛ ركن اللسان العربي، وركن المقاصد، وبالرغم من أن لكل منهما منهج خاص في فهم النصوص أولا، وفي بيان مقصود الشارع ثانيا، إلا أنهما يشتركان في غاية وهدف واحد وهو فهم المراد وفقهه، ومن هنا وحتى يمكن تحصيل المراد لابد من وضع ضوابط منهجية يكون اتباع خطواتها بشكل متوازي موصلا إلى حقيقة واحدة لا اختلاف فيها ولا تعارض، بل كل ركن يعضد الآخر. فما هي الضوابط المنهجية للسان والمراد؟ وما أثر هذه الضوابط في تحصيل المراد وبيانه؟ وإلى أي مدى يمكن رفع الخلاف من طريقهما؟

وقد قسمت هذا الفصل إلى:

- **طبيعة الخطاب القراني.**
- **الضوابط المنهجية لأركان التخاطب وأهميتها في بيان المراد**
- **أركان الخطاب.**
- **ضوابط حال الخطاب (لغة الخطاب).**
- **ضوابط المخاطِب: (المتكلم).**
- **ضوابط المخاطَب:(السامع).**
- **ضوابط سياق الخطاب. (ما يحيط بالخطاب).**

تبين في الفصل الاول حقيقة الاعجاز ومقتضيات ذلك، إذ أن الإفصاح عن مراد المتكلم، وعن مقصود الشارع، إنما يتم بطريق اللسان العربي ومقتضياته من حيث الاتساع، ومن حيث القواعد العربية، ومن حيث الفصاحة ومتعلقاتها، وبما أن مرجعية مراد الشارع

إنَّما تتأسس من الخطاب وعلى الخطاب، يتعين ضبط مقتضيات أحوال الخطاب، حال لغة الخطاب، والمخاطِب، والمخاطَب، وما يحيط بالخطاب. ثم إن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات هذه الأحوال، وبالتالي فما هي أسس وضوابط العملية التخاطبية؟ وما أثرها وأهميتها في ضبط المراد وتحصيل مقصود الشارع؟ وهل يمكن وضع منهج فاصل بين المتنازعين، وقاض بين المختلفين عند وجود الغلط أو الخطأ في فهم مراد الشارع؟

وهذا ما سيتبين بحول الله فيما ياتي .

طبيعة الخطاب القرآني:

لابأس قبل الشروع في بسط هذا الموضوع أن تحدد المصطلحات الرئيسة بإيجاز:

الخطاب القرآني: ونعني به خطاب الله جلت كلمته، وهو النص القرآني الموحى به. وقد عرفه الإمام الشاطبي بقوله: "إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه، لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها، أن يتخذه سميره وأنيسه،...ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا فكلام الأئمة السابقين والسلف المتقدمين، آخذ بيده في هذا المقصد الشريف والرتبة المنيفة"[1].

[1] – الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج: 03، ص:346

تعتبر نصوص القرآن الكريم بدون منازع نصوصا ذات أبعاد تربوية وأخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وعلمية... فلم تكن أسس دعوته محصورة بالمعنى المتعارف عليه لدى الفقهاء، بل كانت أعم من ذلك، إذ هي تشمل إصلاح المجتمع إصلاحا شاملا، سواء في عقائده الدينية أو صلاته الاجتماعية، لذلك تناول في أسسه المقاصد الأربعة: العقائد، والواجبات الدينية، والأخلاق، والحقوق بجميع فروعها"[1].

وإذا كانت كذلك فلا يمكن اعتبارها ألفاظا تحمل دلالات لغوية فحسب، وإنما لها أبعاد نفسية، وأخرى فكرية... أعمق من ذلك وأجدر بالعناية والملاحظة والتتبع والبحث. ولذلك لا يمكن فهم هذا الخطاب القرآني واستنباط الأحكام منه إلا في ظل تكامل الإلمام بالأسرار اللغوية، والقيم الثقافية، والمفاهيم العلمية والفكرية، والممارسات الاجتماعية، والخبرات الإنسانية....

فهو خطاب يخاطب العقول ويناجي القلوب ويحمل مضامين تعرب عن مراد الله في توجيه حياة الناس. وتعتبر مناسبة لكل الظروف الطارئة والأزمنة المتلاحقة. يحتاج لمن يجدد حيويته ويثبت له ملاءمته للظروف الزمنية والمكانية المستجدة. لأنه غير مقيد بزمان أو مكان. وهذه الخاصية تتيح له مرونة لبذل الجهد وتحديد المقاصد من نصوص الوحي. وفوق هذا كله فهو نص تشريعي مقدس يتضمن حكما ومعنى يستوجبه ، أو مقصدا يستشرف إليه. فالحكم يتضمن معنى مرادا لصاحبه ينبغي الكشف عنه.والمقصد يتضمن أمرا مرتبطا بذلك الحكم ينبغي أن يلحظ عند الفهم والتفسير... لهذا فإن التفسير الأمثل والأقرب إلى

[1] – معروف الدوالبي، المدخل إلى علم أصول الفقه، ص: 413.

طبيعة هذا الخطاب إنما يتحقق بمنهج يتكامل فيه التفسير اللغوي مع التفسير المقاصدي، وحري بنا أن نبرز فيما يلي بإيجاز ملامح كلا المنهجين.

لقد انبثقت عن العلوم الشرعية اختصاصات كثيرة لدراسة الخطاب القرآني، ودراسة طرق الاستدلال بنصوصه. ومن ذلك الدرس اللغوي الذي يعتبر الخطاب القرآني مجالا تطبيقيا له لأنه خطاب مبلغ باللغة العربية. وقد أدى هذا إلى التأكيد على أهمية اكتساب المعرفة اللغوية، والإحاطة بعلومها. قال الإمام الشاطبي:" فالحاصل أنه لا غنى لمجتهد في الشريعة عن بلوغ درجة الاجتهاد في كلام العرب، بحيث يصير خطابها له وصفا غير متكلف ولا متوقف فيه في الغالب، إلا بمقدار توقف الفطن لكلام اللبيب"[1].

وإذا كان الخطاب القرآني أرفع الأساليب العربية فصاحة وبيانا. فإن العلماء قد تفننوا في علوم العربية وطبقوا معارفهم في تفسير الخطاب القرآني وصرفوا اهتمامهم لبيان دلالات ألفاظه وإبراز الخصائص البيانية لتراكيبه وأساليبه، وتقرير إعجازه النظمي؛ فعرف التفسير اللغوي بهذا المنهج.

وقد عرف التفسير بأنه " علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم–، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات..."[2]. وبديهي أننا لا نعني بالتفسير اللغوي ما أنشأه علماء اللغة من تفاسير، بل نقصد كل تفسير اعتمد المعرفة اللغوية بفروعها المختلفة أساسا للفهم والاستنباط، وحكَّم قواعد اللغة والنحو والبيان وما يتصل بها

[1] – الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دار الفكر العربي بيروت: ج4 ص114-118، ج 2 ص62.

[2] – الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1 ص5 -13 - 291.

في ترجيح معنى على آخر، ولذلك فإنك تجد هذا المنهج في تفاسير اللغويين المصطلح عليها بمعاني القرآن، كما أنك واجد ذلك في تفاسير الفقهاء والمتكلمين، وفي التفاسير الجامعة عموما.

وبنظرة في مباحث علوم القرآن – وهي موضوعة أساسا لتأهيل المفسر – يظهر أن جلها متعلق بمعرفة اللغة العربية وأسرارها. ويتبين ذلك بتصفح الأبواب؛ فمن بين سبعة وأربعين مبحثا من كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي نجد خمسة وعشرين منها وثيق الصلة بعلوم اللغة، أذكر منها: معرفة المناسبات بين الآيات، والوجوه والنظائر، والفواصل، ولغات العرب في القرآن، وغريب القرآن، والتصريف، واختلاف الألفاظ، وتوجيه القراءات، وإعجاز القرآن، ووجوه المخاطبات، والحقيقة والمجاز، والكتابة والتعويض، والتفسير والتأويل، وأساليب القرآن وفنونه البليغة، ومرسوم الخط، وأقسام الكلم....

كما أن أغلب مباحث علم القراءات متعلقة بعلم اللغة العربية، سواء من حيث دراسة الخصائص الصوتية القرآنية، أو دراسة الاختلافات اللفظية والدلالية للمفردات المغايرة بين القراءات، ومثلها تخريج مختلف القراءات والجمع والتفريق بينها. وقد تفرع عنه علم التجويد"[1].

كما أن القواعد الأصولية تعتبر المنهج المتبع في تفسير القرآن عامة وآيات الأحكام خاصة، وذلك وفق أسس لغوية، حيث نظر الأصوليون في النص الذي يستنبط منه المعنى الشرعي ودرسوا ما وراء المعنى وما يحيط به من قرائن. كما نظروا في تدرج النص وارتباطه

[1] – ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ص:114

بالمعنى، وفي قوته على حمل الدلالة متناولين في دراستهم لطرق استنباط الأحكام من النصوص ومعتبرين وضع اللفظ من حيث الخصوص والعموم، ومن حيث استعمال اللفظ في حقيقته أو مجازه، ومن حيث ظهور المعنى المراد من اللفظ أو خفاؤه. كما درسوا كيفية دلالة اللفظ على المعنى، فاعتبر الحنفية أربعة أنواع منها هي: عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، ودلالة الاقتضاء. واعتبر الشافعية نوعين هما: دلالة المنطوق ودلالة المفهوم، وقسمت دلالة المفهوم قسمين: دلالة الموافقة ودلالة المخالفة"[1].

ورأى الأصوليون أن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية؛ فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف. والدلالة الإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه، ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين في ذلك"[2].

وتظهر مكانة التفسير اللغوي لكون اللغة تبين المعنى، وتميز بين المعاني، وتوقف على أغراض المتكلمين، ولا يمكن أن يفهم الخطاب القرآني الفهم الصحيح ما لم ينطق بكلماته النطق الصحيح، ودراسة مفرداته لغويا، ودراسة استعمالاتها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، والوقوف على مدلولاتها في كل موضع، ودراسة النص القرآني في معانيه المركبة، وذلك بطريق العلوم الأدبية من نحو... على أنه من أدوات بيان المعنى وتحديده...

كما تبرز أهمية التفسير اللغوي في تعاريف التفسير التي تثبت مكانة اللغة في الكشف عن مراد الله من خطابه، إذ يمكن القول أن جميع التفاسير تعتمد اللغة أساسا لبيان مراد الله

[1] – بدران أبو العينين ، أصول الفقه الإسلامي، دار شباب الجامعة، الاسكندرية، 1996. ص 347 – 349.

[2] – يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ص 111.

من كلامه. قال الراغب: "التفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال تفسير الرؤيا وتأويلها"[1]. وعرفه بعضهم بقوله: التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل. والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"[2].

وظهر التفسير اللغوي في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم وفي تفسير الصحابة رضي الله عنهم، وأشهر من عرف عنه ذلك هو ابن عباس رضي الله عنهما حيث كان يكثر من التفسير اللغوي، ويرجع فيه إلى أشعار العرب لمعرفة ما قد يغمض من الألفاظ والتراكيب"[3] وسار على نهجه من جاء بعده من تلاميذه وغيرهم ممن اهتم بالخطاب القرآني إلى يومنا هذا.

وإذا كان الإمام الشاطبي قد أكد على أهمية اكتساب الإجادة العلمية للغة العربية والتبحر في علومها من أجل الاشتغال بمعارف الوحي"[4]. فهو كذلك يرى أن الاجتهاد إن تعلق بالاستنباط من النصوص فلا بد مع اشتراط العلم بالعربية من العلم بالمصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص لها أو مسلمة من صاحب الاجتهاد في النصوص. فلا يكفي في ذلك العلم بالعربية، بل لابد من العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلا خاصة"[5]. وهذه إشارة منه إلى أهمية علم المقاصد في التفسير. مما يجعل عدم كفاية التفسير اللغوي في المجال التشريعي أمرا ظاهرا لكل ذي بال. لأن فهم نصوص الوحي لا يمكن

[1] – أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن، بيروت – دار المعرفة (دت). ص: 394.

[2] – المناوي، التقيف على مهمات التعاريف،ت: عبد الحميد حمدان، عالم الكتب، القاهرة، 1990م،ج:01، ص:192.

[3] – محمد رجب البيومي، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1991م، ص:12.

[4] – الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ص 3/62-114-118.

[5] – المصدر نفسه، ج:04،ص:162

معرفة كنهها إذا جردت عن الفكر والمضمون والمقصد من إيرادها. خاصة إذا علمنا أن الأسلوب القرآني أرقى نماذج اللغة العربية بخصائصه المتميزة وعجائبه المؤثرة وإشاراته العلمية التي تظهر بعد حين.

أضف إلى ذلك أن الحديث الشريف لا تنحصر مهمته في بيان التوجيهات الربانية فحسب، بل تشمل الجانب اللغوي أيضا عند شرح ألفاظ القرآن الكريم وبيان أساليبه.

كما يمكن أن يستدل على ذلك بتقديم توضيحات وتفصيلات تطبيقية لما كان مجملا في القرآن لا سبيل لفهمه عن طريق اللغة؛ حيث برزت أهمية النص الحديثي في فهم النص القرآني بجلاء بعد تدوين المصحف، واحتاج الناس لفهم أبعاده إلى وسائل مساعدة للغة صاحبت نزوله وأفصحت عن الواقع المعيش، وساعدت على فهم أبعاده وأسبابه حتى أصبح فهم الخطاب القرآني وتنزيله على الواقع بدون الحديث أمرا صعب المنال.

وذلك لا ينتقص من أهمية المعرفة باللغة العربية في الدراسات الشرعية وأثرها في بعض القضايا؛ لأن الاجتهاد قد يتعلق بأمور أخرى غير المقاصد والأحكام، مثل الطب والصناعات والتجارة والهندسة..."[1]. وذلك لا ينقص من أهمية التفسير المقاصدي، لذا خصصنا له هذه الزاوية.

[1] - الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ج : 04 ؛ص:162

الضوابط المنهجية لأركان التخاطب وأهميتها في بيان المراد.

تحديد المراد من كلام المتكلم، يقتضي إدراك أمور خادمة للإخبار والخطاب أولا، ثم ضبط المنهج المتبع في الإنباء عن المراد ثانيا. فما هي أركان الخطاب أو الإخبار؟ وما هو المنهج المتبع في تحصيل المراد من كل ركن من الأركان؟

- أركان الخطاب:

أركان الخطاب التي تتحكم في تحديد المراد أربعة وهي: الخطاب، المخَاطِب، والمخَاطَب، وما يحيط بالخطاب. وإنما اعتبرت أركانا لأن "علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك"[1].

وتأسيسا على هذا، فإن معرفة مقتضيات الأحوال، بالنسبة لحال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع، يعتبر من المهمات في فهم المراد من النصوص، بل عليه الاعتماد في ما لا يدل على معناه المراد إلا الأمور الخارجة"[2]. ذلك أن الدلالة التابعة هي مما يختص به لسان العرب عن بقية الألسنة، والدلالة الأصلية هي التي

[1] - الشاطبي: الموافقات، ج:03، ص:277.

[2] - المصدرنفسه، ج:03،ص:277.

يشترك فيها جميع الألسنة"[1]. لذلك فكل خبر يقتضي في الجهة ذات الدلالة التابعة "أمورا خادمة لذلك الإخبار، بحسب المخْبِر، والمخْبَر عنه، والمخْبَر به، ونفس الإخبار، في الحال والمساق، ونوع الأسلوب، من الإيضاح والإخفاء، والإيجاز، والإطناب، وغير ذلك"[2].

فهذه هي أركان الخطاب من حيث الإجمال. أما أركان الخطاب من حيث التفصيل الذي له علاقة ببيان وضبط منهج معرفة المراد وتحصيله فكالآتي:

ضوابط حال الخطاب: (لغة الخطاب).

الركن الأول في معرفة مقاصد كلام العرب، والمراد من الخطاب، هو حال الخطاب من جهة نفس الخطاب وموضوعه، وطبيعة اللغة التي تمَّ بها الخطاب. فنوع اللغة باعتبارها ألفاظا دالة على معان، واختلافها في الحال والمساق والأسلوب"[3]، هو مما يحدد مقدار الاستفادة من المراد. ومن ثم، فإن لغة الخطاب لها أثر في التحكم في بيان المراد من جهة نفس الخطاب من جانبين: "[4]

الأول: يتعلق بنوع الكلام ودلالته: وما يشتمل عليه من ألفاظ وأساليب، باعتبار أن دلالة اللفظ هي "فهم السامع من كلام المتكلم كمال المسمى أو جزأه، أو لازمه"[5].

---

[1] – إذ أن " للغة العربية – من حيث هي ألفاظ دالة على معان– نظران: الاول: من كونها ألفاظا وعبارات مطلقة، دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية.

والثاني: من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة، دالة على معان خادمة، وهي الدلالة التابعة". الشاطبي: الموافقات، ج:02، ص: 56.

[2] – الشاطبي الموافقات، ج: 02، ص: 56– 57.

[3] – المصدر نفسه، ج: 02، ص:56.

[4] – ينظر: نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ط:01، الأردن، (1422هـ–2002م)، ص:82– 83.

[5] – القرافي: شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، دار الفكر، بيروت، لبنان، (1424هـ–2004م)، ص:25.

وبالتالي، فإنه بحسب تنوع الكلام واختلاف أساليب اللغة وألفاظها، تتنوع وتختلف الدلالة، وبحسب الوضوح أو الخفاء في ذلك، يكون وضوح المراد والمقصود من غيره.

وعليه، فإن دلالة اللفظ من حيث كمال المسمى أو جزئه أو لازمه على ثلاثة أنواع:"[1]

1- دلالة المطابقة: وهي فهم السامع من كلام المتكلم كمال المسمى؛ كفهم مجموع الخمستين من لفظ العشرة.

2- دلالة التضمن: وهي فهم السامع من كلام المتكلم جزء المسمى؛ كفهم الخمسة وحدها من اللفظ.

3- دلالة الالتزام: وهي فهم السامع من كلام المتكلم لازم المسمى البين، وهو اللازم له في الذهن؛ كفهم الزوجية من اللفظ.

الثاني: يتعلق بدرجة تطرق الاحتمال إلى المراد من غيره:

وفيما يلي ضبط لكيفية دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني أولا، ولدرجة تطرق الاحتمال إلى المراد من غيره ثانيا.

كيفية ضبط دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني:

تأسيسا على ما تقرر في الفصل الأول من جهة اللسان العربي من كونه؛ أوسع الألسنة على الإطلاق، وأن هذه السعة محفوظة عند أئمة اللغة —بالمنثور والمأثور– بالتقعيد والتأصيل لقوانين الكلام العربي، وأنه موصوف بالفصاحة؛ ومن جهة الشريعة من كون قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام، يقتضي أن تكون هذه الشريعة عربية، وأن تبنى على

[1] – القرافي: شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، ص:25– 26.

معهود الأميين من العرب، فإن الإفهام والفهم يكون على مقتضى أسلوب العرب، ولا بد لفهم الشريعة ومقاصدها، سواء ببيان المعنى، أو استنباط الأحكام، أو تفسير الألفاظ، أو فهم مراد الشارع، أن يكون على مقتضى ذلك.

وهذه المقتضيات لا بد أن تطبق على الألفاظ والمعاني الإفرادية، وعلى الألفاظ والمعاني التركيبية، ذلك أن لكل من المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي أثر في بيان مراد الشارع، كما سيتبين فيما يلي:

1- تحقيق الألفاظ بحسب مقتضيات التراكيب:

الدلالة على المعاني إنما تكون بالتركيب المتناسب بين الألفاظ أولا، ثم بمعرفة مقتضيات الأحوال ثانيا، لذلك كان اللفظ هو الوسيلة الأصلية التي تركب إلى المعنى.

وعليه فإن إدراك المعاني يتوقف على إدراك العلوم اللفظية، ومن ثم كانت العلوم اللفظية هي أول ما يجب على المفسر البداءة به. وبين الزركشي منهج ذلك بقوله: "وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه، وهو كتحصيل اللَّبِن من أوائل المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه"[1].

ثم علق الزركشي تحقيق الألفاظ المفردة على تراكيبها بحيث يكون إدراك المعاني بحسب أفراد الألفاظ وتراكيبها"[2].

ومنهج تحقيق ذلك كما يلي:

[1] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:02، ص: 173.

[2] - المصدر نفسه، ج:02، ص: 173.

أ/ منهج تحقيق الألفاظ بحسب الأفراد:

تحقيق الألفاظ بحسب الأفراد يكون من وجوه ثلاثة هي كالآتي:"[1]

1- من جهة المعاني التي وضعت الألفاظ المفردة بإزائها، وهو يتعلق بعلم اللغة.

2- من جهة الهيئات والصيغ الواردة على المفردات الدالة على المعاني المختلفة، وهو من علم التصريف.

3- من جهة رد الفروع المأخوذة من الأصول إليها، وهو من علم الاشتقاق.

ب/ منهج تحقيق الألفاظ بحسب التركيب:

وأما تحقيق الألفاظ بحسب التركيب فيكون من وجوه أربعة هي كالآتي:"[2]

الأول: باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى، وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو.

الثاني: باعتبار كيفية التركيب من جهة إفادته معنى المعنى، أعني لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء، وهو الذي يتكفل بإبراز محاسنه علم المعاني.

الثالث: باعتبار طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراتبها، وباعتبار الحقيقة والمجاز، والاستعارة والكناية والتشبيه، وهو يتعلق بعلم البيان.

الرابع: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية والاستحسان ومقابله، وهو يتعلق بعلم البديع.

---

[1] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:2، ص: 173.

[2] - ينظر : المصدر نفسه، ج:02، ص: 173_174

وبعد ضبط منهج تحقيق الألفاظ بحسب الأفراد وبحسب التركيب، تتبين العناية الفائقة التي أعطاها علماء اللغة لبيان ومعرفة دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني، فما من علم من علوم اللسان العربي، أو وجه من الوجوه، أو اعتبار من الاعتبارات، تحقق به الألفاظ وتراكيبها إلا سلكوه.

ومن هنا تتأكد أهمية علوم اللسان العربي سواء العلوم المتعلقة بالألفاظ، أو العلوم المتعلقة بالتراكيب، في إدراك معاني النصوص واستنباط الأحكام الشرعية منها.

وهذه العلوم تعتبر من شروط الاجتهاد التي تلزم المجتهد إن تعلق الأمر بالاستنباط من النصوص، حيث "لا بد من اشتراط العلم بالعربية، وإن تعلق بالمعاني من المصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص لها، أو مسلمة من صاحب الاجتهاد في النصوص، فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلا خاصة"[1]

وعدم لزوم العلم بالعربية لا يعني عدم توظيفها في استخلاص المقاصد بل هناك قدر مشترك بين اللسان العربي ومقاصد الشرع كما سيتبين في الفصل الثالث.

2- ضابط الاعتناء بالمعاني التركيبية كمقصود وبالمعاني الإفرادية كتبع للمقصود.

هل الأصل عند العرب هو الاعتناء بالمعاني التركيبية، أم بالمعاني الإفرادية؟

اعتبر الشاطبي أن الألفاظ خدم للمعاني، وقرر بأنه أصل معلوم عند أهل العربية بقوله: "الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أن العرب إنما

[1] - الشاطبي: الموافقات: ج:04، ص: 129.

كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، ولا كل المعاني، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به، إذا كان المعنى التركيبي مفهوما دونه"[1].

ومن هنا كان الاعتناء بالمعاني التركيبية عند العرب هو الأصل، كما تعتني بالمعاني الإفرادية إذا كان المعنى التركيبي يتوقف على المعنى الإفرادي.

ومن ثم فإن فالفهم والإفهام بين المتخاطبين لا يحصل بسرد الألفاظ على شكل وضعها في المعجم، بل هي"لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"[2].

فطريق فهم معنى الخطاب إنما يؤخذ من التراكيب، وذلك هو المقصود والمراد، أما المعنى الإفرادي فقد لا يعبأ به إذا تبين المقصود وكان حاصل المعنى مفهوما من المعنى التركيبي.

ويمكن التمثيل لهذين المعنيين بما يلي:

1- إذا كان المعنى التركيبي معلوما:فقد تحقق المقصود والمراد من الخطاب، ولذلك مثل الشاطبي بمثال: عن أنس أن رجلا سأل عمر بن الخطاب عن قوله: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس:31] ما الأب؟ فقال عمر: نُهِينا التعمق والتكلف"[3].

---

[1] - الشاطبي: الموافقات، ج:02، ص: 72.

[2] - الجرجاني: أسرار البلاغة، ص: 74.

[3] - ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (1379هـ)، ج:03، ص:270.

وعلق الشاطبي على هذا المثال بأن ظاهر هذا كله أنه إنما نهى عنه لأن المعنى التركيبي معلوم على الجملة وهو المقصد الأهم، ولا ينبني على فهم هذا المعنى الإفرادي حكم تكليفي، فرأى أن الاشتغال به عن غيره –مما هو أهم منه– تكلف. ولهذا أصل في الشريعة صحيح نبه عليه قوله تعالى:﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:177]. ومنه كان المعنى التركيبي هو الوجهة والمقصد"[1].

2- إذا كان فهم اللفظ الإفرادي يتوقف عليه فهم المعنى التركيبي لم يكن تكلفا، بل هو مضطر إليه.

وقد مثل الشاطبي لذلك بما روي عن عمر نفسه في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾[النحل:47]، فإنه سئل عنه على المنبر فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تَامكًا قردًا كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ"[2].

---

[1] – ينظر: الشاطبي: الموفقات، ج:02، ص:72.

[2] – قال سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: يأيها الناس ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، فسكت الناس فقال شيخ من بني هذيل هي لغتنا يا أمير المؤمنين؛ التخوف التَنَقُّصُ، فخرج رجل فقال: يا فلان ما فعل دَينك. قال: تخوفته أي تنقصته، فرجع، فأخبر عمر فقال: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم. قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ.

قال عمر:" يأيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. تَمَكَ السَّنَامُ يَتْمِكُ تَمْكًا، أَيْ طَالَ وَارْتَفَعَ، فَهُوَ تَامِكٌ. وَالسَّفَنُ وَالْمِسْفَنُ مَا يُنْجَرُّ بِهِ الْخَشَبُ. وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ:" عَلى تَخَوُّفٍ" عَلَى عَجَلٍ. وقيل: عَلَى تَقْرِيعٍ بِمَا قَدَّمُوهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. وَقَالَ قَتَادَةُ:" عَلى تَخَوُّفٍ" أن يعاقب، أو يتجاوز؛ فإن ربكم لرءوف رحيم؛ أي لا يعاجل بل يمهل. ينظر أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عرفان العشا، بيروت، دار الفكر، (1405هـ)، ج:10، ص:110-111.

فقال عمر: أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم. فليس بين الخبرين تعارض، لأن هذا قد توقف فهم معنى الآية عليه بخلاف الأول"[1].

فهذا الاقتران الوثيق بين اللفظ والمعنى، وبين المعنى التركيبي والإفرادي بهذا الضابط؛ هو ما أكد عليه ابن جني أيضا، بحيث قرر أن اللفظ خادم ووسيلة، وأن المعنى مخدوم وغاية؛ ذلك أن اهتمام العرب بألفاظها إنما هو خدمة للمعاني، ولأجل التوصل إلى مقاصدها بأقرب وسيلة، فكأن العرب بذلك" إنما تحلي ألفاظها وتدبجها وتَشيها، وتزخرفها، عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها، وقد ﴿قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعَرِ لَحِكَمًا**"[2] ، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم، التي جعلت مصايد وأشْراكا للقلوب، وسببا وسُلما إلى تحصيل المطلوب، عرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني، والمخدوم –لا شك– أشرف من الخادم"[3].

ومن ثمَّ، يتعين الاعتناء بالمعنى التركيبي كأصل باعتباره المخدوم والغاية، والاعتناء بالمعنى الإفرادي باعتباره الخادم والوسيلة، إذا كان يتوقف عليه فهم المعنى التركيبي، ويتأكد أن اللازم هو "الاعتناء بفهم معنى الخطاب، لأنه المقصود والمراد، وعليه ينبني الخطاب

---

[1] – الشاطبي: الموفقات، ج:02، ص: 72.

[2] – الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ط:01، دار الكتب العلمية، بيروت، (1411هـ، 1990م)، باب: إن من البيان لسحرا، رقم: 6569. ج:03، ص: 710؛ سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني: المعجم الكبير ، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط:02، مكتبة العلوم والحكم، دار النشر ، الموصل،(1404هـ، 1983م)، رقمه: 10025، ج: 10 ، ص: 83.

[3] – ابن جني: الخصائص، ج:01، ص: 220.

ابتداء، وكثيرا ما يغفل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة، فتلتمس غرائبه ومعانيه على غير الوجه الذي ينبغي فتَسْتَبهم على الملتمِس، وتستَعجِم على من لم يفهم مقاصد العرب. فيكون عمله في غير معمل، ومشيه على غير طريق والله الواقي برحمته."[1]. وعلى هذا يتقرر أن اللازم هو الاعتناء بفهم معنى الخطاب كأساس؛ لأنه هو المقصود والمراد الذي ينبني عليه الخطاب ابتداء.

ولا بد مع ذلك من فهم النصوص الشرعية على معهود العرب في لغتها، سواء فيما يتعلق بالألفاظ أو فيما يتعلق بالأساليب ذلك أن "معرفة ما تواضعت عليه العرب من معاني الألفاظ يعين في الوصول إلى المعنى الإفرادي للألفاظ، ومعرفة ما تواضعت عليه العرب من أساليب في الخطاب يعين على تحديد المعنى التركيبي لنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة."[2]

يتقرر من هذه العلاقة الوثيقة بين اللفظ والمعنى، وبين المعنى التركيبي والإفرادي، أن معرفة ما تواضعت عليه العرب من معاني الألفاظ إنما هو وسيلة خادمة في تحصيل المعنى الإفرادي، وأن معرفة ما تواضعت عليه العرب من أساليب في الخطاب ، إنما هو وسيلة خادمة في تحصيل المعنى التركيبي، ومن ثم تظهر أهمية العلاقة بين المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي في فهم معنى الخطاب.

[1]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:02، ص: 73.

[2]- نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص: 84.

3- ضابط أدلة الشريعة اللفظية لا تستغني عن معرفة المقاصد الكلية:

قرر الطاهر بن عاشور أن أدلة الشريعة اللفظية لا تستغني عن معرفة المقاصد الكلية لأسباب منها ما يتعلق بالكلام وأنواعه، ومنها ما يتعلق بالمتكلم، ومنها ما يتعلق بالسامع، وبيان ذلك كالآتي:

أ- ما يتعلق بالكلام وأنواعه: وذلك عند تطرق الاحتمال إلى المراد، إذ أن "الكلام لم يكن في لغة من لغات البشر ولا كان نوع من أنواعه وأساليبه في اللغة الواحدة، بالذي يكفى في الدلالة على مراد اللافظ دلالة لا تحتمل شكا في مقصده من لفظه، أعني الدلالة المعبر عنه بالنص الذي يفيد معنى لا يحتمل غيره، ولكن تتفاوت دلالة ألفاظ اللغات، ودلالة أنواع كلام اللغة الواحدة تفاوتا في تطرق الاحتمال إلى المراد بذلك الكلام، فبعض أنواع الكلام يتطرقه احتمال أكثر مما يتطرق إلى بعض آخر"[1].

ب- ما يتعلق بالمتكلم أو المخاطِب: فالمتكلمون يتفاوتون في الدلالة على المراد، "وبعض المتكلمين أقدر على نصب العلامات في كلامه على مراده منه من بعض آخر، ومن هنا وصف بعض المتكلمين بالفصاحة والبلاغة"[2].

ج- ما يتعلق بالسامع أو المخاطَب: فالمخاطبون أيضا يتفاوتون في مقدار استفادة المراد من الكلام "بحسب تفاوت أذهانهم وممارستهم لأساليب لغة ذلك الكلام، ولأساليب صنف المتكلم بذلك الكلام"[3].

---

[1] - الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ط:02، دار سحنون، تونس، (1428هـ_2007م)، ص:23-24.

[2] - المرجع نفسه، ص:24.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص:24.

ومن ضوابط الخطاب التي تتعلق بدلالة الألفاظ والأساليب على المعاني يتقرر ما يلي:

1- لا بد من تحقيق الألفاظ بحسب الأفراد وبحسب التراكيب.

2- يلزم الاعتناء بفهم معنى الخطاب لأنه هو المقصود والمراد.

3- لابد من الاعتناء بالمعنى التركيبي كأصل، وبالمعنى الإفرادي إذا كان يتوقف عليه فهم المعنى التركيبي.

4- أدلة الشريعة اللفظية لا تستغني عن معرفة المقاصد الكليـة، لأسبـاب منـها: ما يتعلق بالكلام وأنواعه، ومنها ما يتعلق بالمتكلم، ومنها ما يتعلق بالسامع أو المخاطَب.

كيفية ضبط تطرق الاحتمال إلى المراد من نفس الخطاب:

طرق بيان المراد من نفس الخطاب وموضوعه، تنقسم بحسب أوجه الاستقلال في الإنباء عن المراد، إلى قسمين:

1- **ما يستقل بنفسه في الإنباء عن المراد**: ويشمل النص والظاهر، فالنص لا يتطرق إليه الاحتمال أصلا، والظاهر يتطرق إليه الاحتمال ولكنه مرجوح، وكل من النص والظاهر لا يتوقف فهم المراد من كل منهما على أمر خارجي .

أ- **النص**: ويستقل بالإفادة بإطلاق، والدلالة على معنى واحد فقط، بحيث لا يحتمل غيره ذلك أن "الأعيان التي يتعلق بها الحكم، إما أن يدل عليها بلفظ يدل على معنى واحد فقط، وهو الذي يعرف في صناعة أصول الفقه بالنص، ولا خلاف في وجوب

العمل به"[1]. وإما أن يدل على الأعيان التي يتعلق بها الحكم، بلفظ يدل على أكثر من معنى واحد. ويشمل الظاهر والمجمل.

ب- **الظاهر**: وهو" المتردد بين احتمالين فأكثر هو في أحدهما أرجح"[2]. أي أن كفة احتمال الظاهر راجحة، واحتمال الكفة الأخرى مرجوح، وهو أيضا يستقل بالإفادة والدلالة على معناه الراجح، ذلك أن اللفظ الظاهر لا يتوقف فهم المراد منه على قرينة خارجية، وإنما يتضح مدلوله المراد منه من الصيغة نفسها"[3].

وعلى هذا "تكون دلالته على بعض تلك المعاني أكثر من بعض، وهذا يسمى بالإضافة إلى المعاني التي دلالته عليها أكثر ظاهرا، ويسمى بالإضافة إلى المعاني التي دلالته عليها أقل محتملا، وإذا ورد مطلقا حمل على تلك المعاني التي هو أظهر فيها حتى يقوم الدليل على حمله على المحتمل، فيعرض الخلاف للفقهاء في أقاويل الشارع، لكن ذلك من قبل ثلاثة معان:

ا- من قبل الاشتراك في لفظ العين الذي علق به الحكم.

ب- ومن قبل الاشتراك في الألف واللام المقرونة بجنس تلك العين، هل أريد بها الكل أو البعض؟.

ج-ومن قبل الاشتراك الذي في ألفاظ الأوامر والنواهي"[4].

---

[1] - ابن رشد الحفيد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (1424هـ- 2004م)، ج:01، ص:28.

[2] - القرافي: شرح تنقيح الفصول، ص:37.

[3] - ينظر: صالح محمد أديب: تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، ط:03، (1404هـ- 1984م)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ج:01، ص:143.

[4] - ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج:01، ص: 28.

ومع أن كلا من النص والظاهر، واضح الدلالة على معناه، ويستقل في الإنباء عن المراد، إلا أن النص يستقل بإطلاق، والظاهر يستقل بشرط عدم ثبوت ما يصرفه عن ظاهره، وإلا صار مؤولا"[1].

والتأويل هو: "صرف اللفظ عن ظاهره بدليل"[2]، ومن المقرر عند الأصوليين "أن الأصل عدم صرف اللفظ عن ظاهره، وأن تأويله، أي صرفه عن ظاهره، لا يكون صحيحا إلا إذا بني على دليل شرعي من نص أو قياس، أو روح التشريع، أو مبادئه العامة. وإذا لم يبن التأويل على دليل شرعي صحيح، بل بني على الأهواء والأغراض والانتصار لبعض الآراء، كان تأويلا غير صحيح، وكان عبثيا بالقانون ونصوصه، وكذلك إذا عارض التأويل نصا صريحا، أو كان تأويلا إلى ما لا يحتمله اللفظ"[3].

يتقرر إذن مما ذكر في طرق الإنباء عن المراد من حال الخطاب أن حكم النص والظاهر باعتبار أنهما يستقلان بالإفادة والإنباء عن المراد، هو وجوب العمل بما هو واضح الدلالة عليه، وبما وضع له اللفظ في الأصل، وأنه لا يصح تأويل ما يحتمل التأويل"[4] إلا بدليل شرعي من نص أو قياس، أو روح التشريع، أو مبادئه العامة.

---

[1] – ينظر: نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:60.

[2] – عبد الوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ص:164.

[3] – المرجع نفسه ، ص:164

[4] – يقسم الأحناف اللفظ إلى ظاهر ونص، يقبلان التأويل، ومفسر ومحكم لا يقبلان التأويل. أما الجمهور فيقسمون اللفظ إلى ظاهر ونص، فالظاهر ما يقبل التأويل، والنص ما لا يقبل التأويل. ينظر: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (1399هـ- 1979م)، ص:176- 177؛ ينظر: عبد الوهاب خلاف، المرجع نفسه، ص: 170؛ ينظر: محمد الخضري، أصول الفقه، دار الفكر، بيروت، لبنان، (1421هـ-2001م)، ص:129- 130؛ ينظر: وهبة الزحيلي، نفس المرجع،ج:01، ص:312.

وأن المنهج المتبع في المستقل بنفسه في الإنباء عن المراد، أن يحمل على ما يقتضيه الظاهر"[1].

2- **ما لا يستقل بنفسه في الإنباء عن المراد:** وهذا يتطرق إليه الاحتمال، لذلك فهو يحتاج إلى قرائن خارجية لمعرفة المراد-كما سيتبين عند الكلام على القرائن ويندرج تحته: المجمل والمشترك .

أ- **المجمل:** وهو "المتردد بين احتمالين فأكثر على السواء"[2]. أي تعادل الكفة، بحيث لا راجح ولا مرجوح. إذ "تكون دلالته على تلك المعاني بالسواء ، ولا خلاف في أنه لا يوجب حكما"[3].

ب- **المشترك:** وهو "اللفظ الموضوع لكل واحد من معنيين فأكثر"[4]. فهذا لا يستقل بالإنباء عن المراد إلا بقرينة. والمنهج المتبع في ما لا يستقل بنفسه في الإنباء عن المراد، هو النظر فيما يجب أن يحمل عليه بتطلب القرائن على الوجه الصحيح والمنضبط"[5].

يتقرر من بيان أوجه الاستقلال في الإنباء عن المراد ما يلي:

1- منهج بيان المراد من النصوص الشرعية التي تستقل بنفسها في الإنباء-النص والظاهر- يتم من ظواهر النصوص.

---

[1] - ينظر: إدريس حمادي: المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي، 1998م ص: 69.

[2] - القرافي: شرح تنقيح الفصول، ص:37.

[3] - ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج:01، ص:28.

[4] - القرافي: المصدر السابق ، ص:30.

[5] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:60- 61.

2- أما النصوص الشرعية التي لا تستقل في الإنباء عن المراد تماما-كالمشترك- أو من وجه دون وجه-كالمجمل- فإن منهج بيان المراد منها هو الاستعانة بالقرائن بما تتضمنه من سياق ومقام.

ضوابط المخاطِب: (المتكلم)

مما يدل على المعنى المراد في خطاب المخاطِب، المخاطِب نفسه، فهو الركن الثاني الذي يتحكم في مدى وضوح المراد من غيره، ومرد مدى وضوح المراد من غيره، والمتعلق بأثر المخاطب في بيان المراد يعود إلى أربعة ضوابط هي كالآتي:

الضابط الأول: قدرة المخاطِب على الدلالة وبيان المعنى.

قدرة المخاطِب على الدلالة، وإفادة السامع من كلامه عما يريد تبليغه للمخاطبين، يتوقف على مدى تمكنه من علوم اللسان العربي، فعلى قدر تمكن المخاطِب من ذلك يكون بيانه ودلالته على مراده، ومن هنا وقع التفاوت في درجة البيان والفصاحة والبلاغة. وحقيقة هذا التفاوت تظهر بوضوح في علم البيان، باعتبار أنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، وما تدل عليه من المعاني أولا، وببحثه في الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات في الألفاظ ثانيا "[1]. وأصناف علم البيان هي بمثابة الميزان الذي يحكم على مستوى قدرة المخاطِب على الدلالة والبيان من غيره.

وأصناف علم البيان ثلاثة وهي:

الصنف الأول: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة.

[1] - ابن خلدون: المقدمة، ص: 339

الصنف الثاني: يبحث فيه عن الدلالة على التلازم اللفظي وملزومه؛ وهي الاستعارة والكناية، ويسمى علم البيان.

الصنف الثالث: ألحق بالصنفين الأولين، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع.

فأثر أصناف علم البيان هذه بالنسبة لفهم كلام الله عز وجل وصل إلى ذروته، وهو درجة الإعجاز، وحقيقة الإعجاز عند ابن خلدون تكمن في "وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال، منطوقه ومفهومه، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها"[1].

وكون "القرآن معجزا أفحم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، لا يخرجه عن كونه عربيا جاريا على أساليب كلام العرب، ميسرا للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى"[2].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾[القمر:17].

وقوله:﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾[فصلت:03] وإذا كان كلام الشارع عربيا، جاريا على أساليب كلام العرب، ميسرا للفهم فيه عن الله بما أمر ونهى، فإن وصف

[1] – ابن خلدون: المقدمة، ص:342– 343.

[2] – الشاطبي: الموافقات، ج:03، ص: 276– 277.

الإعجاز إذن لم يخرجه عن إدراك العقول لمعانيه، وأنه مفهوم معقول، وإلا كان "خطابهم به من تكليف ما لا يطاق، وذلك مرفوع عن الأمة"[1].

ويؤكد الشاطبي على ضابط القدرة على الإفهام، وبيان المراد في كلام الله عز وجل بأن ذلك مقرر على أي وجه من وجوه الإعجاز الكثيرة، إذ أنها لا تمنع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، بدليل قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:29]. وبالتالي يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم في كلام الشارع عز وجل"[2].

فإذا تقرر ضابط القدرة على إيصال المعنى والمراد في كلام الله عز وجل، وأنه وصل إلى درجة الإعجاز واليسر في الفهم مع كونه جار على أساليب العرب، فإن أثر ذلك يعود على المخاطَب وطرق وصوله للمراد، فبمقدار "الدُربة في اللسان العربي" يكون اليسر في الفهم عن الله مراده مما أمر به ونهى والعكس بعكسه. وكلما "ازداد المخاطَب من العلم باللسان– الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه– كان خيرا له"[3].

الضابط الثاني: نوع الألفاظ التي يختارها المخاطِب.

باعتبار أن الألفاظ تتفاوت في مدى وضوحها من غيره؛ (النص، الظاهر) فإن تحري المخاطِب للهيئة المفيدة للألفاظ على مقتضى أساليب العرب، هو مما يخدم إدراك المراد

[1] – الشاطبي: الموافقات، ج:03، ص: 277.
[2] – المرجع نفسه، ج:03، ص: 277.
[3] – الشافعي: الرسالة، ص:64

والمقصود من خطابه بشكل مؤثر على نفس الخطاب وعلى المخاطَب إلى درجة البيان والبلاغة ثم الإعجاز.

وقد قرر ابن خلدون في الفصل السادس والثلاثون في علوم اللسان العربي هذه الحقيقة. وبين منهج تحقق ذلك، فبالنسبة لعلم البيان باعتبار أنه متعلق بالألفاظ وما تفيده، وما تدل عليه من معاني، قسمه إلى ثلاثة أقسام، إذا حصلت للمخاطب فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه وهي:"[1]

1- تصور مفردات تسند ويسند إليها: ويفضي بعضها إلى بعض والدلالة على هذه المفردات من الأسماء والأفعال والحروف.

2- تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة: ويدل عليها بتغير الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات، وهذه كلها هي صناعة النحو.

3- أحوال المتخاطبين:

أما بالنسبة لبلاغة المخاطِب، فإن وصف الذوق للمخاطِب هو غاية مطابقة الكلام للمعنى، تأسيسا على أن الذوق هو "حصول ملكة البلاغة للسان"[2] ، والبلاغة هي "مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك"[3] .

ومن هنا يتقرر أن "المتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده، فإذا اتصلت

[1] - ابن خلدون: المقدمة، ص:341- 342.

[2] - المصدر نفسه ، ص:348.

[3] - المصدر نفسه، ص:348.

مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهُل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب"[1].

الضابط الثالث: حال المخاطِب.

حال المخاطِب وما يقتضيه حال الفعل، مما يحتاج إلى بيان ودلالة، يعتبر ضابطا مهما في فهم المقصود من بعض النصوص، بل إن فهم تمام المراد من بعض النصوص يتوقف على الحال المصاحبة لتلك الواقعة والفعل، خاصة إذا صاحب المخاطِب خطابه بعلامات وإشارات وهيئات معينة موجهة للمخاطَبين، ولهذا كانت من "الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الفائدة. وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه، وإذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة"[2].

فإذا تبينت أهمية تحصيل أحوال المتخاطبين في إدراك المقصود من كلام المتكلم، فإنه لا بد من التنبيه إلى أنه "قد وردت إشارات كثيرة إلى ذلك في السنة النبوية، حيث اعتنى الرواة بنقلها إدراكا منهم لأهميتها في فهم الخطاب. أما بالنسبة للقرآن الكريم فإن هذا العنصر غير متوفر لتنزه الذات الإلهية عن ذلك، ولعدم صدور الوحي في شكل خطاب مباشر بين الله تعالى وعباده"[3].

---

[1] – ابن خلدون: المقدمة، ص:348.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص:341- 342.

[3] – نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشارع ، ص:91.

ومن الأمثلــة التي تبين حــال النبي – صلى الله عليه وسلم – أثناء صدور الخطاب ما يلي:

1- روى البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: "قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا قِسْمَةً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ قُلْتُ أَمَا وَاللَّهِ لَآتِيَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي مَلَإٍ فَسَارَرْتُهُ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"[1].

"فالغضب واحمرار الوجه علامة على عظم حرمة التشكيك في عدل النبي صلى الله عليه وسلم في حكمه، وتأذيه صلى الله عليه وسلم من ذلك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يغضب لنفسه، فإذا غضب فإنما ذلك لانتهاك حرمات الله تعالى"[2].

2- روى البخاري عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: " أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ"[3].

[1] – البخاري: صحيح البخاري، المحقق: مصطفى ديب البغا، ط:03، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، (1407هـ-1987م)، كتاب: الاستئذان، باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمنجاة، رقم: 5817، ج05، ص: 2319.

[2] – نعمان جغيم: نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:92.

[3] – صحيح البخاري: كتاب: الأدب، باب: عقوق الوالدين من الكبائر، رقم: 5519، ج:05، ص:2229.

فتغيير الجلسة تنبيه للسامعين أن ما سيقوله بعد ذلك أمر جلل، وأن خطورته تستدعي الاستواء له جالسا، ويأتي بعد ذلك تكرار الكبائر علامة أخرى لتأكيد عظم حرمتها وتحذير المسلمين من مغبة الوقوع فيها"[1].

3- ما أخرجه البخاري عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَاجِعًا وَبَدَا لَهُ أُحُدٌ قَالَ: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا كَتَحْرِيمِ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا»"[2].

فلولا ما ذكره الراوي من إشارته صلى الله عليه وسلم بيده إلى المدينة لتعذر علينا معرفة على ماذا يعود ضمير الغائب في لفظ لا بتيها"[3].

الضابط الرابع: إرادة المخاطِب.

تبين عند التكلم في حقيقة المراد – في الفصل الأول- أن المراد يتعلق بإرادة المتكلم، وأن إرادة المتكلم هي الضابط الذي يضبط ألفاظ المتكلم من جهة، ويضبط أيضا المراد الذي أراده المتكلم من جهة ثانية، ذلك أن العبرة بالإرادة لا باللفظ، بدليل أن "اللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة"[4]. وذلك لحكمة يقصدها المتكلم، ذلك أن" الأصل في المخاطِب أن يسعى قدر الإمكان إلى إفهام المخاطَبين بأن يكون معنى كلامه محددا، إلا أنه قد يقصد أحيانا إلى استعمال

[1] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:93.

[2] – صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الخدمة في الغزو، رقم: 2675، ج:03، ص:1058.

[3] – نعمان جغيم: المرجع السابق، ص:94.

[4] – ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين،ج:01، ص:218.

بعض الألفاظ المبهمة التي يتعذر إدراك حقيقة معناها، أو بعض الألفاظ المحتملة لأكثر من معنى لحكمة يريدها الشارع"[1].

ومنه يتقرر ما يلي:

1- إن فهم وفقه مراد المتكلم من كلامه يتوقف على المعرفة بإرادته وقصده وحكمته، وأن هذا قدر زائد على مجرد وضع اللفظ في اللغة، وبحسب ذلك تتفاوت مراتب الفقه والفهم عن الشارع عز وجل.

2- كما يتقرر من هذا أن فهم المراد، مرتبة أعلى شأنا من فهم وضع اللفظ في اللغة.

3- تأسيسا على ما ذكر في حقيقة المراد - في الفصل الأول- أن التعرف على المتكلم وعلى كماله وتنزهه عن النقص في أسمائه وصفاته وأفعاله، إنما هو النهج القويم والصراط المستقيم في معرفة حقيقة المراد من كلام الشارع سبحانه وتعالى.

ضوابط المخاطَب:(السامع).

بمقتضى أن المخاطِبون يتفاوتون في مدى البيان والوضوح من غيره، فإن المخاطَبون أيضا يتفاوتون ويختلفون في مقدار إدراك مراد المتكلم من كلامه، وباعتبار أن دلالة اللفظ هي "فهم السامع من كلام المتكلم كمال المسمى أو جزأه، أو لازمهّ "[2].فإن فهم السامع أو المخاطَب لكلام المتكلم؛ من حيث كمال المسمى-دلالة المطابقة-، أو جزئه- دلالة التضمن-، أو لازمه-دلالة التلازم-، على ثلاثة أنواع. ومن ثم فإنه بحسب تفاوت

[1] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع،، ص:90.

[2] - القرافي: شرح تنقيح الفصول، ص:25.

المخاطَبين، وتنوع الكلام واختلاف أساليب اللغة وألفاظها، تتنوع وتختلف الدلالة، وبحسب الوضوح أو الخفاء في ذلك، يكون وضوح المراد والمقصود من غيره.

ويمكن تصنيف مدى إدراك المخاطَبين على فهم النصوص الشرعية إلى مستويين"[1]:

أ- مستوى عام: يتمكن من فهمه كل من عرف اللغة العربية، ففهمه متيسر لعامة الناس.

ب- مستوى خاص: يحتاج إلى أهل الاختصاص لإدراك مراميه والإحاطة بمعانيه، وهم أهل الاجتهاد.

وفي هذا المستوى الخاص أيضا يتفاوت أهل الاجتهاد، فقد "امتاز الصحابة عن غيرهم في القدرة على فهم النصوص الشرعية، وإدراك مقاصد الشارع منها، كما نجد الصحابة أنفسهم يتفاوتون في ذلك"[2]. ومن هذا التفاوت وقع الاختلاف بين المخاطَبين(الفقهاء) في فهم النصوص ومراد الشارع. فما حقيقة هذا التفاوت؟ وإذا كان هذا التفاوت هو من أسباب الاختلاف، فما ضوابط هذا الاختلاف؟ وكيف يمكن تضييق دائرة الاختلاف في بيان مراد الشارع؟

أولا: أسباب الاختلاف:

التفاوت بين المخاطَبين يكون بحسب درجة فهم النصوص، وإدراك مقاصد الشارع ومراده من كلامه، ولهذا التفاوت بين المخاطَبين، سواء فيما يتعلق بالقدرات العقلية، أو في أدوات الفهم، أو في الدربة في اللسان العربي، أوبمقدار المعرفة بالمتكلم و إرادته، أثر في

[1] - ينظر: نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع ص:95.

[2] - المرجع نفسه ، ص:95.

الاختلاف في فهم النصوص، وأيضا في تحديد مراد ومقاصد الشارع. ولا بد من حصر أسباب الاختلاف أولا، وبيانها ثانيا على وجه الإجمال، حتى يمكن الوقوف على حقيقة الاختلاف بين الفقهاء- هل هو اختلاف تضاد، أم اختلاف تنوع-، ومن ثم وضع ضوابط منهجية لهذا الاختلاف، يمكن التحاكم لديها وترجيح ما أمكن ترجيحه.

مرجع هذا الاختلاف من حيث الإجمال يعود إلى الأسباب التالية:

أولا- الاختلاف في القدرات العقلية والبيئات:

فالبشر مختلفون في أشكالهم وصورهم وألوانهم وألسنتهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ﴾[الروم:22]. وهذا الاختلاف لا يقف عند حد الصورة والشكل واللسان، بل يتجاوزه إلى اختلاف المواهب والاستعدادات والميول والاتجاهات والعقول والذكاء والمدارك والطبائع والغرائز، فكيف لا يترتب على هذه الاختلافات بين البشر اختلاف في الآراء والتصورات والاعتقادات."[1]

إضافة إلى ذلك اختلاف البيئات والعصور، فذلك كله له أثر في الاختلاف بين الفقهاء في الأحكام الفرعية، فقد كان الإمام الواحد يغير من اجتهاده في المسألة الواحدة إذا تغيرت الظروف مكانا وزمانا، كما حصل مع الشافعي -رضي الله عنه- فقه قديم بني على بيئة وحال وواقع أهل بغداد، وفقه جديد بناه على بيئة وحال وواقع أهل مصر، وكما

[1] - ينظر: عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط:01، بيروت، لبنان، (1425هـ - 2004م)، ص:330.

حصل مع صاحبي أبي حنيفة–رضي الله عنه– بعد وفاته. وكما يحصل في الأمور الاجتهادية الفرعية بين المتقدمين والمتأخرين في المذهب الواحد."[1]

ثانيا– الاختلاف في مصادر المبادئ والأحكام :

مصادر المبادئ والأحكام الإسلامية كلها تنقسم من حيث قوة دلالتها إلى قسمين"[2]:

أ–أدلة قطعية"[3]: لم يقع الخلاف بين الأئمة في المبادئ والأحكام والمسائل التي كانت أدلتها قطعية لا احتمال فيها ولا خفاء. ذلك أن المبادئ والأحكام التي دلت عليها أدلة قطعية، فهي قطعية، وصفة القطع فيها مكتسبة من أدلتها"[4].

ومن ثم يترتب على المبادئ والأحكام التي أدلتها قطعية كما بين ذلك رمضان البوطي كما يلي"[5]:

1 – لا يسع المسلم المؤمن بكتاب الله تعالى وسنة رسوله أن يجحدها أو يشك فيها. فكان الإيمان بها واجبا وكان إنكارها دائرا بين الكفر إن كانت مما هو معروف من الدين بالضرورة، والفسق إن لم تكن مما هو معروف من الدين بالضرورة.

---

[1] – ينظر: إبراهيم سلقيني ، أصول الفقه الإسلامي، دمشق، (1425هـ-1426هـ)، (2004م-2005م)، ص:24.

[2] – "كل دليل شرعي إما أن يكون قطعيا، أو ظنيا". الشاطبي: الموافقات،ج:03، ص:16.

[3] – وهي "تلك التي وصلت إلينا عن طريق قطعي، وتحمل في نفس الوقت دلالة قطعية على مضمونها، أي فهي قطعية الثبوت بالنظر لمنشئها، وقطعية الدلالة بالنظر لمضمونها.

وينطبق هذا الوصف على النصوص التي وصلت إلينا بشكل متواتر، ولا تحتمل في دلالتها أكثر من معنى واحد، كالأمر بالصلاة". محمد سعيد رمضان البوطي:محاضرات في الفقه المقارن، ط:11، دار الفكر، دمشق، (1430هـ- 2009م)، ص:10.

[4] – ينظر: الشاطبي: ج:03، ص:16

[5] – رمضان البوطي: المرجع السابق ، ص:11-12.

2- ما اختلف المسلمون فيه من بعض مسائل الاعتقاد، فذلك لأن أدلته لم ترق إلى درجة القطع، فطاف بها الاحتمال، فوقع الخلاف في فهم مدلولاتها.

3- مثل هذه الأمور لا يستوجب الخطأ في اعتقادها كفر أو ردة، لأن سبيل القطع واليقين فيها مفقود.

4- ومن هنا أيضا لم يصح القول بالاجتهاد في مسائل الاعتقاد القطعية كما لم يصح فيها القول بالتقليد.

ب-أدلة ظنية"[1]: فالمبادئ والأحكام التي دلت عليها أدلة ظنية، فهي ظنية، وصفة الظن فيها مكتسبة من أدلتها.

ومن هنا وقع الخلاف في هذه المسائل والأحكام، فرقعة الخلاف تتسع أو تضيق في هذه الأحكام والمسائل حسب قوة الاحتمال أو ضعفه في الأدلة.

ويترتب على ذلك كما بين ذلك رمضان البوطي ما يلي:"[2]

1- إن سبيل الاعتماد على هذه الأدلة إنما هو الاجتهاد، إذ لا يكون الدليل ظنيا إلا لأنه يحتمل أكثر من معنى واحد دون أن يكون ثمة ما يقطع بصحة معنى واحد منها دون المعاني الأخرى.

[1] - فهي"تلك التي لم يتوفر القطع في طريق وصولها إلينا، كأخبار الآحاد على اختلاف أنواعها مما يسمى بالغريب أو العزيز أو المشهور.. أو لم يتوفر القطع في دلالتها، كأن تدل على معنى مع احتمالها لمعنى آخر".: محمد سعيد رمضان البوطي: محاضرات في الفقه المقارن، ص:10- 11.

[2] - ينظر: رمضان البوطي: محاضرات في الفقه المقارن ، ص: من12- 15.

2- أكثر الأحاديث الواردة في الصحاح ذات دلالة ظنية، إما لأنها أحاديث آحاد لم تصل إلى درجة التواتر، أو لأن الاحتمال يتطرق على المعاني المتضمنة لها."[1]

3- إذا كانت الأدلة الظنية هي مستند هذه الأحكام، فقد كان الخلاف في الوصول إلى نتائجها أمرا طبيعيا بل أمرا حتميا.

4- وعليه فإن اختلاف المذاهب الفقهية عن بعضها، اختلاف لا يقوم في جوهره على أي عصبية أو تباعد أو محض هوى أو جهل. وإنما اقتضته ضرورة النظر والاجتهاد والبحث.

5- أن الشارع جل جلاله قد تعبدنا في الأحكام العملية بالأدلة الظنية، فحيثما قام الظن مستندا إلى الأدلة الشرعية الصحيحة، أن الحكم كذا وجب العمل بموجب ذلك الظن.

ثالثا– الاختلاف في توظيف الوسائل اللغوية:

يمكن حصر أسباب الاختلاف في توظيف الوسائل اللغوية من حيث الإجمال بالجنس في ستة أسباب:"[2]

1– تردد اللفظ بين أن يكون: عـامـا[3] يراد به الخاص، أو خاصا يراد به العـام، أو عاما يراد به العام، أو خاصا يراد به الخاص، أو يكون له دليل خطاب، أو لا يكون له.

---

[1] – ينظر: إبراهيم سلقيني، أصول الفقه الإسلامي، ص:34- 35.

[2] – ينظر: ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج:01، ص: 30.

[3] – **تعريف العام: أ–لغة:** عمّهم الأمر، يعمُهم عموما أي شملهم، والعامة خلاف الخاصة." ابن منظور: لسان العرب، ج:12، ص:426. ب–**اصطلاحا:** العام هو" الموضوع لمعنى كلي بقيد تتبعه في محاله"– القرافي: شرح تنقيح الفصول، ص:38. **وأدوات العموم:** نحو عشرين صيغة: فمنها: كل، وجميع، ومن، وما، والمعرف باللام جمعا ومفردا، والذي والتي وتثنيتهما.

2- الاشتراك الذي في الألفاظ: وينقسم إلى قسمين:

أ- الاشتراك في اللفظ المفرد: كلفظ القرء الذي ينطلق على الأطهار وعلى الحيض، وكذلك لفظ الأمر هل يحمل على الوجوب أو الندب، ولفظ النهي هل يحمل على التحريم أو على الكراهية.

ب-الاشتراك في اللفظ المركب: مثل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾[النور:05]، فإنه يحتمل أن يعود على الفاسق فقط، ويحتمل أن يعود على الفاسق والشاهد، فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة شهادة القاذف.

3- اختلاف الإعراب:

4- تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو حمله على نوع من أنواع المجاز:

وأنواع المجاز هي:إما الحذف، وإما الزيادة، وإما التقديم، وإما التأخير، وإما تردده على الحقيقة أو الاستعارة.

5- إطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة:

مثل إطلاق الرقبة في العتق تارة، وتقييدها بالإيمان تارة.

6- التعارض في الشيئين في جميع أصناف الألفاظ: التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض وكذلك التعارض الذي يأتي في الأفعال أو في الإقرارات، أو تعارض القياسات أنفسها، أو التعارض الذي يتركب من هذه الأصناف الثلاثة: أعني معارضة القول للفعل أو للإقرار أو للقياس، ومعارضة الفعل للإقرار أو للقياس، ومعارضة الإقرار للقياس"[1].

[1] - ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج:01، ص:30.

وعند وجود هذا التعارض لا بد من البحث عن دليل مرجح، وهذا ما فعله القرافي كنموذج في تعارض مقتضيات الألفاظ، حيث "يحمل اللفظ على الحقيقة دون المجاز، والعموم دون التخصيص، والإفراد دون الإشراك، والاستقلال دون الإضمار، وعلى الإطلاق دون التقييد، وعلى التأصيل دون الزيادة، وعلى الترتيب دون التقديم والتأخير، وعلى التأسيس دون التأكيد، وعلى البقاء دون النسخ، وعلى الشرعي دون العقلي، وعلى العرفي دون اللغوي، إلا أن يدل دليل على خلاف ذلك، لأن جميع ما أدعينا تقديمه ترجح عند العقل احتمال وقوعه على ما يقابله والعمل بالراجح متعين."[1]

ويتضح من عرض أسباب الاختلاف في توظيف الوسائل اللغوية أن اللغة التي نزل بها القرآن واسعة، فيها المشترك والمترادف والحقيقة والمجاز والعام والخاص وغير ذلك، وأن هذا ما أدى إلى الاختلاف في فهم النص ودلالته، وفي استنباط الأحكام الشرعية. وهذا يقضي أن الدربة في اللسان العربي هي الركن الأول في فهم النصوص الشرعية أولا، وفي تحديد المراد من كلام الشارع وضبطه ثانيا.

وضابط هذه الدربة يكون بحسب ممارسة أساليب اللغة وكلام المخاطب، ذلك أن "طول الممارسة لكلام متكلم ما تكسب صاحبها دربة بأساليبه في الخطاب ومقاصده فيه"[2].

ومن ثم فإنه لا بد لأهل الاجتهاد بصفة خاصة من "الأدوات اللازمة لحسن فهم النص واستثمار الأحكام الشرعية منه، من تمكن من ناصية اللغة العربية، وتمرس على

[1] – القرافي: شرح تنقيح الفصول، ص: 93.

[2] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:95.

التعامل مع النصوص الشرعية، بما يكسب صاحبه دربة بأساليب الشارع في الخطاب ومقاصده العامة من التشريع، وعلم بقواعد الأحكام وأصولها، وإطلاع على اللازم معرفته من أسباب النزول وأسباب ورود الحديث الشريف، فلا يمكن لمن لم يستجمع شروط النظر الصحيح في النصوص الشرعية أن يدعي قدرته على إدراك مقاصد الشارع من تشريعاته وأحكامه"[1].

وبعد عرض أسباب الاختلاف بإيجاز يمكن استخلاص ما يلي:"[2]

1- إن اختلاف الفقهاء إنما هو اختلاف في الفروع، لا يضر الأمة ولا يفرق شملها، بل هو رحمة وتيسير على الناس.

2- ما نراه من التعصب المذهبي والانقسام المفرق في الواقع، إنما سببه الجهل بالشريعة أولا، وبسيرة الأئمة وأقوالهم وعلو شأنهم ثانيا، وبأسباب الاختلاف ثالثا.

3- الوقوف من الاختلافات الفقهية موقف المستنكر أو المتشكك في الشريعة وعلمائها، نظرة سطحية سببها الاعتقاد أن سبب اختلاف الفقهاء هو فقط محصور في ثبوت النص أو عدم ثبوته، فإذا توفرت النصوص بعد تدوين السنة وتميز صحيحها من ضعيفها كان لازما زوال الاختلاف. ولكن حقيقة الأمر

[1] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع ، ص:95.

[2] - ينظر: إبراهيم سلقيني، أصول الفقه الإسلامي، ص: 36- 37.

أن هذا ليس السبب الوحيد للاختلاف، بل هناك أسباب متعددة أدت إلى تنوع الآراء واختلافها.

ضوابط سياق الخطاب. (ما يحيط بالخطاب).

الركن الرابع من أركان العملية التخاطبية، هو سياق الخطاب بنوعيه؛ اللغوي والاجتماعي. وسبب اعتبار السياق ركنا من الأركان، يظهر جليا عند بيان معنى السياق، ومنهج توظيفه، وبالأخص أثر السياق في فهم المراد من النصوص.

أولا: السياق اللغوي: المقصود بالسياق اللغوي "الجمل المكونة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المراد تفسيره واستخلاص المقصود منه"[1].

منهج توظيف السياق في استخلاص المقصود والمراد من النص يمر عبر عاملين اساسيين:"[2]

العامل الاول: النظر في الجمل المكونة والسابقة واللاحقة للنص. وهذه خطوة تتعلق بالسياق اللغوي بمعناه الخاص.

العامل الثاني: لنظر في النصوص الأخرى التي لها علاقة ما بهذا النص. وإن كانت تختلف من حيث المواضع والأزمنة عما ورد فيه هذا النص، وهذه الخطوة الثانية تتعلق بالسياق اللغوي بمعناه العام.

[1] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:97.

[2] – المرجع نفسه، ص:97.

وكلتا الخطوتين لهما أثر في فهم المراد من النص، ذلك أن "استحضار ما يحيط بالنص من نصوص سابقة ولاحقة، ونصوص أخرى متعلقة به وخادمة لفهمه، هو ما يجعلها إما مبينة له، أو مكملة لمعناه، أو مخصصة لعمومه، أو مقيدة لإطلاقه"[1].

وقد مثل الشافعي للصنف الذي يبين سياقه معناه بمثالين:"[2]

الأول: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الاعراف:163].

فابتدأ جل ثناؤه ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، دل على أنه إنما أراد أهل القرية، لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره، وأنه إنما أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون.

والثاني: قوله تعالى﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء:11-12] وهذه الآية في مثل معنى الآية قبلها، فذكر قصم القرية، فلما ذكر أنها ظالمة بان للسامع أن الظالم إنما هم أهلها، دون منازلها التي لا تظلم، ولما ذكر القوم المنشئين بعدها، وذكر إحساسهم البأس عند القصم، أحاط العلم أنه إنما أحس البأس من يعرف البأس من الآدميين. ولضبط أثر

[1] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع ، ص:97.

[2] - الشافعي: الرسالة، ص:73-74.

ودور السياق اللغوي في تحديد المقصود والمراد من النص، لا بد من تحديد وظيفة القرائن المقالية أولا، ثم بيان مدى أهميتها في فهم المراد.

1- وظيفة القرائن المقالية:

القرائن المقالية هي" التي يتضمنها الكلام، أي تؤخذ من مبنى الخطاب والعلاقات بين ألفاظه، ويمكن أن تكون قرائن داخلية، أي متضمنة في نفس الخطاب، أو تكون خارجية، أي واردة في نص آخر مستقل"[1].

والقرائن التي يتضمنها مبنى النص نفسه على نوعين: معنوية ولفظية."[2]

أ-القرائن المعنوية: وهي العلاقات السياقية بين كلمات الجملة سواء منها الجملة الاسمية أو الجملة الفعلية، مثل الإسناد، والتخصيص، والنسبة، والتبعية، والمخالفة.

ب- القرائن اللفظية: وهي المتعلقة بحالة اللفظ نفسه، مثل: العلامة الإعرابية، والرتبة، والصيغة، والمطابقة، والربط.

ومنه فإن العلاقات السياقية بين كلمات الجملة سواء منها الجملة الاسمية أو الجملة الفعلية، والعلاقات المتعلقة بحالة اللفظ نفسه، هو منهج من خطوتين يوصل إلى تحديد وظيفة القرائن المقالية، -التي هي بمثابة المقدمات بالنسبة للنتائج-، وهي تحديد المعنى النحوي للكلمات، ذلك أنها "المسؤولة عن وضوح المعنى، وأمن اللبس الذي قد ينتج عن

[1] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:97- 98.

[2] -ينظر : المرجع نفسه، ص:97- 98.

تعدد المعنى الوظيفي للكلمات، وتحديد المعنى النحوي ينتج عنه تحديد معنى المقال، أي المعنى اللغوي المجرد للنص"[1].

وامتزاج النحو بالمعاني يؤدي إلى شدة الارتباط بمعاني الجمل ومواطن استعمالها وما يناط بكل جملة منها من معنى."[2]

وهنا تظهر أهمية هذه الخطوة كمقدمة صحيحة في بيان المراد من النص، ومع ذلك فإن هذا المعنى اللغوي الذي حددته القرائن المقالية قد يصلح لأكثر من معنى، وبالتالي يأتي دور القرائن الحالية لتحديد وضبط المراد من النص، هل يصلح لكل تلك المعاني؟ أم أنه يخص معنى من المعاني التي يحددها المقام فقط؟

فهذه المرحلة المتعلقة بالمقال والتي تنتج المعنى اللغوي المجرد للنص، لا بد إذن أن تتبعها مرحلة ثانية تتعلق بالمقام، والتي تضبط كون هذا المعنى اللغوي (ظاهر النص) هو المقصود، أم أن المقصود غيره. وبالتالي تظهر وظيفة القرائن الحالية والسياق العام للنص في تحديد المقصود منه.

ومن ثم فإن المعنى الدلالي أو المعنى المقامي "لا يكتفي بتحليل تركيب المقال، ولا بمعنى كلماته المفردة، وإنما يراه فوق ذلك في ضوء المقام"[3] .

---

[1] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:99؛ ينظر: محمد يونس علي، علم التخاطب الإسلامي(دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص)، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:01، (2006م)، ص:89.

[2] – ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط: 04، عالم الكتب، القاهرة، (1425هـ-2004م)، ص337.

[3] - المرجع نفسه، ص:39.

2- علاقة القرائن المقالية بالمعنى الدلالي:

وعليه فالمعنى الدلالي يعتمد على دعامتين هما:"[1]

1/ المعنى المقالي: وهو مكون من معنيين:

أ- المعنى الوظيفي: وهو المتكون من الأنظمة الثلاثة -الصوتي والصرفي والنحوي- وهي في حقيقتها وظائف تؤديها المباني التي تشتمل عليها وتنبني منها هذه الأنظمة، ككون الوقف وظيفة السكون، وككون الفاعلية وظيفة الاسم المرفوع"[2].

ب-المعنى المعجمي وهو "الذي تدل عليه الكلمة المفردة كما في المعاجم"[3].

والمعنى المقالي يشمل القرائن المقالية كلما وجدت.

2/ المعنى المقامي: وهو مكون من ظروف أداء المقال، وهي التي تشتمل على القرائن الحالية."[4]

ثانيا: السياق الاجتماعي: (المقام).

والمقصود بالسياق الاجتماعي المقام الذي صدر فيه الخطاب، وهذا المقام هو حصيلة الظروف الاجتماعية والطبيعية والنفسية السائدة وقت صدور الخطاب، وتدخل فيه أسباب النزول، وأسباب ورود الحديث"[5].

---

[1] - ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص:352.

[2] - ينظر : المرجع نفسه ، ص:39.

[3] - المرجع نفسه ، ص:39.

[4] - ينظر: محمد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي، ص:89-90.

[5] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:97

1-وظيفة السياق الاجتماعي:

وللسياق الاجتماعي أثر في صيغة الخطاب وفي توجيهه وفي فهمه، ومن ثم فإن نقل القرائن الدالة على المعنى له أثر في فهم الكلام "وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة أو شيء منه"[1].

فبمقدار نقل القرائن الدالة يكون الوضوح في فهم الكلام والدلالة على المعنى، وبمقدار النقص في نقلها يكون الخفاء في الدلالة، إلى درجة فوات فهم الكلام جملة أو شيء منه.

وتأسيسا على هذا فإن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها، وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلا منها مقاما، فمقام الفخر غير مقام المدح وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو التمني أو الهجاء وهلم جرا، وكان من رأي البلاغيين أن لكل مقام مقالا"[2].

وههنا تظهر أهمية وفائدة القرائن الحالية والمقالية في توجيه وإزالة الاحتمالات التي تعرض للسامع في مقصود المخاطب من خطابه أولا، ثم في تحديد المراد من كلام المتكلم ثانيا، فكلما "كان استحضار القرائن التي حفت بالكلام أشمل، كان فهم مراد المتكلم من كلامه أدق، وبالعكس، ولذلك نجد أن الكلام المشافه به أوضح دلالة على مراد المتحدث

[1] - الشاطبي: الموافقات، ج:03، ص:277.

[2] - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص:337.

من الكلام الذي بلغه عنه مبلغ، أو نقل كتابة بسبب ما يفتقده من قرائن حالية تعين على دفع الاحتمالات التي تتطرق إلى الكلام ولا يقصدها المتكلم"[1].

ومع تقرير أهمية استحضار القرائن التي تحف صدور الكلام، فإنه يتعين التنبيه إلى أنه ليس كل كلام يحتاج إلى قرائن حالية، وحتى يتضح ذلك لا بد من بيان ضوابط المقام.

2- ضوابط المقام:

المقام يتنوع إلى نوعين: مقام خاص، ومقام عام.

أ- المقام الخاص: هو "القرائن الحالية والظروف التي تحف بصدور خطاب ما، والتي صاحبته وصبغته بصيغتها"[2].

ب- أما المقام العام فهو: "الحالة العامة أو الهدف العام الذي اقتضى مجيء الخطاب، ككون القرآن الكريم نزل لهداية الناس وإرشادهم إلى طريق الحق"[3].

فالكلام الوارد في مقام خاص هو الذي يحتاج إلى قرائن حالية لفهم معناه، أما الكلام المفيد التام المعنى الوارد في مقام عام، على سبيل التوجيه والإرشاد العامين، فإنه يمكن أن يفهم معناه من غير حاجة إلى قرائن حالية، كما هو الحال فيما نزل من القرآن الكريم من غير سبب خاص، وما ورد في السنة كذلك"[4].

ومن هذا التنبيه يمكن استخراج ضابط يتعلق بعلاقة النصوص الشرعية بالمقام، وهو أن "أغلب نصوص الشارع تميل إلى التجرد عن المقام الخاص، والاعتماد على المقام العام،

---

[1] - نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:102.

[2] - المرجع نفسه، ص:103.

[3] - المرجع نفسه ، ص:103.

[4] - المرجع نفسه ، ص:102.

وإن كان ولا بد من مقام خاص فغالبا ما يكون مما يمكن أن يتكرر في مختلف الظروف والأزمان"[1].

فمثلا فيما يتعلق بتجرد نصوص القرآن عن المقام الخاص، والاعتماد في الغالب على تعميم الخطاب، بالرغم من الحالة الخاصة التي استدعت تشريع الحكم، تشريع حكم السرقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[المائدة:38].

وتشريع التوبة بعدها في قوله تعالى:﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ ﴾[المائدة:39] فإن هذه الآيات نزلت في حادثتين مختلفتين"[2] ،

ولكن الآيات لا تلتفت إلى خصوص هذه الحادثة، وإنما وردت بصيغة عامة ومطلقة تجنبا لتأثيرات المقام التي قد تؤدي إلى حصر النص في شخص معين أو تقييده بمقام معين."[3]

ونصوص السنة أيضا تميل إلى التجرد عن المقام الخاص، وتعتمد في الغالب على تعميم الخطاب، بالرغم من الواقعة أو الحالة الخاصة التي دعت إلى ذلك الخطاب أو الحكم، بحيث يعمم الحكم مثلا بصيغة : (ما بال أقوام) أو (أيها الناس) ومن أمثلة ذلك:

---

[1] نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع ، ص:103.

[2] – فآية حكم السرقة، نزلت في طعمة بن أبيرق، سارق الدرع. ينظر: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ط:01، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، (1425هـ-2004م)، ص:116. وأما آية تشرع التوبة فنزلت في امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقطعت يدها اليمنى فقالت: هل لي من توبة يا رسول؟ فأنزل الله في سورةالمائدة ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾. جلال الدين محمد بن احمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت لبنان، ص:292.

[3] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع ، ص:103.

1- أخرج أبو داود عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:«كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إِذَا بَلَغَهُ عَنْ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ وَلَكِنْ يَقُولُ مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا».[1]

2- أخرج عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلَانٌ فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»"[2]

3- أخرج البخاري عن قَتَادَةُ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ. »"[3]

فبمقدار نقل القرائن الدالة يكون الوضوح في فهم الكلام والدلالة على المعنى، وبمقدار النقص في نقلها يكون الخفاء في الدلالة، إلى درجة فوات فهم الكلام جملة أو شيء منه. إذا تبينت أهمية وفائدة القرائن الحالية والمقالية في توجيه وإزالة الاحتمالات التي تعرض للمخاطب في مقصود المخاطب من خطابه، وأنه بمقدار ما يكون استحضار القرائن التي تحف بالكلام أشمل، يكون فهم مراد المتكلم من كلامه أدق، فإنه -كما تم ضبط أنواع

[1] -ينظر: السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، كتاب الأدب، باب: في حسن العشرة، رقم: 4156، ج04، ص:250.

[2] - صحيح البخاري: كتاب: العلم، باب: الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، رقم: 88، ج:01، ص: 46.

[3] - صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب: رفع البصر إلى السماء في الصلاة، رقم: 708، ج:01،ص:261.

القرائن المقالية–، ينبغي أيضا ضبط أنواع القرائن الحالية من حيث اقترانها بالنص، حتى لا يفوت فهم الكلام جملة أو شيء

الحالية من حيث اقترانها بالنص:

منه، وبهذا يتم حشد كل ما يحيط بالخطاب، والذي له علاقة بفهم النص وتحديد المراد من كلام المتكلم.

3– أنواع القرائن باعتبار أن القرائن الحالية لا تكون متضمنة في الخطاب، بل تكون بكلام أو نقل مستقل عن الخطاب، فإن هذا الكلام أو النقل المستقل، إما أن يكون مقارنا لنفس الخطاب، أو غير مقترن.

أ – القرائن الحالية المقترنة بالخطاب:

الكلام أو النقل المستقل يذكره الراوي مقترنا ومتصلا بروايته، بحيث يذكر بعض القرائن الحالية التي صاحبت الخطاب، والتي يراها مهمة في تحديد المقصود منه"[1]. فمثلا ما ورد في تفسير الهرج، فيما رواه البخاري عن أَبَي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: «يُقْبَضُ الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْهَرْجُ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا كَأَنَّه يُرِيدُ الْقَتْلَ.»" [2]

[1] – ينظر:نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:105.

[2] – صحيح البخاري :كتاب العلم،باب:من اجاب الفتيا باشارة اليد و الراس ،رقم:83،ج:01، ص:44.

فعبارة: «فقال هكذا بيده فحرفها كأنه يريد القتل» نقل من الراوي للقرينة الحالية التي صاحبت كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فهذه العبارة مقترنة بنص الحديث أولا، وأبانت عن مقصوده بالهرج ثانيا."[1]

ب– القرائن الحالية المنفصلة عن الخطاب:

فالكلام أو النقل المستقل يرد ذكره في نصوص أخرى غير مقترنة بالنص، ويكون هذا عادة في أسباب النزول، وأحيانا في أسباب الورود"[2].

1/ أسباب النزول وأهميته في فهم النصوص:

سبب النزول هو بيان الحادثة أو الواقعة التي وقعت في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكانت سببا في نزول الآية، وعلم الأسباب من العلوم التي يكون العالم بها عالما بالقرآن."[3] وهذا ما يشير إليه عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: "وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ

[1] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:105.

[2] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع ، ص:106.

[3] – ينظر: وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ج:01، ص:445-446؛ ينظر: نعمان جغيم: المرجع نفسه، ص:109.

كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْه»[1] .

ومنه فإن معرفة أسباب النزول من المهمات في فهم النصوص بلا بد كما قرر الشاطبي، بل واعتبر معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، خاصة في الكلام الذي لا يدل على معناه المراد إلا الأمور الخارجة، كالقرائن المنفصلة عن الخطاب. وتظهر أهمية معرفة أسباب التنزيل بنقيضها وهو أن الجهل بها "موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الإختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع"[2].

كما أن "الغفلة عن أسباب النزول تؤدي إلى الخروج عن المقصود بالآيات"[3].

ومن فوائد معرفة سبب النزول ما يلي:"[4]

1- معرفة وجه الحكمة الباعثة على التشريع.

2- تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

---

[1] - صحيح البخاري: كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم-، رقم: 4618، ج:04، ص: 1912.

[2] - الشاطبي: الموافقات، ج:03، ص:277- 278.

[3] - المصدر نفسه، ج:03، ص:279.

[4] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص: 22-23. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: أحمد بن علي ، دار الحديث ، القاهرة، (1427هـ- 2006م)، ج:01، ص:108.

3- أن اللفظ قد يكون عاما، ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف سبب النزول قصر التخصيص على ما عدا صورته.

4- الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال. بحيث يعين على فهم الآية.

وقد ذكر السيوطي قول الواحدي أنه"لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها "[1].

وحقيقة قول الواحدي تتضح بالاستدلال بالنماذج التالية:

1- يوضح هذا المعنى المثال الذي في قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾[البقرة:115] ". فإنا لو تركنا مدلول اللفظ لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا، وهو خلاف الإجماع، فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها، وذلك أنها نزلت لما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته، وهو مستقبل من مكة إلى المدينة، حيث توجهت به، فعلم أن هذا هو المراد"[2].

2- ما روي في الصحيحين أنه أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ

[1] - السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، ج:01، ص: 108.

[2] - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:01، ص:29.

ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾]ال عمران:188]. فقال: لئن كان كل امْرِئٍ فَرِحَ بما أُوتِيَ وَأَحَبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال: ابْنُ عباس وما لكم ولهذه إنَّما دعا النَّبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– اليهود فسألهم عن شيء فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بغيره فَأَرَوْهُ أَنْ قَدْ اسْتَحْمَدُوا إليه بما أَخْبَرُوهُ عنه فيما سَأَلهم وَفَرِحُوا بما أُوتُوا من كتمانهم "[1].

وهنالك زال الإشكال عن مروان بن الحكم، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده."[2]

3- ومن ذلك أيضا قوله تعالى:﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾[الطلاق:04]. فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة، حتى قال الظاهرية بأن الآيسة لا عدة عليها، إذا لم ترتب. وقد بين ذلك سبب النزول، وهو أنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء، قالوا: قد بقي عدد من النساء لم يذكرن: الصغار والكبار، فنزلت"[3] .

[1] – صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب: لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أَتَوْا، رقم:4202، ج04، ص: 1665؛ صحيح مسلم: كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، رقم: 4982، ج04، ص2143.

[2] – ينظر:الزرقاني محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، ط:01 دار الفكر، بيروت (1996م)،ج:01، ص: 79. وينظر: وهبة الزحيلي: اصول الفقه الاسلامي، ج:01، ص:446.

[3] – رواه الحاكم النيسابوري، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الطلاق، رقم:3821، ج:02، ص: 534؛ أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (1414هـ، 1994م)، كتاب: العدد، باب: عدة التي يئست من المحيض، رقم: 15193، ج:07، ص:420.

علم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة وارتاب: هل عليهن عدة أو لا؟ وهل عدتهن كاللاتي في سورة البقرة أولا؟ فمعنى﴿**إِنِ ارْتَبْتُمْ**﴾ إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن، فهذا حكمهن."[1]

4- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:158].

فإن ظاهر لفظها لا يقتضي أن السعي فرض، وقد ردت عائشة على عروة في فهمه ذلك بسبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثموا من السعي بينهما، لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت"[2].

ففي هذه الأمثلة بيان أنه لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ومن ثم كانت أسباب النزول مما يعين على فهم المراد، وتصحيح الفهم الخارج عن المقصود، وأن هذا هو "شأن أسباب النزول في التعريف بمعاني المنزّل، بحيث لو فقد ذكر السبب لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص، دون تطرق الاحتمالات وتوجه الإشكالات"[3].

[1] – الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج:01، ص: 28- 29. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج:01، ص:109.

[2] – ينظر: السيوطي، الأشباه و النظائر، ج:01، ص:110.

[3] –الشطيبي الموفقات، ج:03، ص:280.

2- أسباب ورود الحديث وأهميتها في فهم النصوص.

الأحاديث النبوية من حيث أسباب الورود على نوعين: أحاديث قيلت لسبب خاص، وأخرى ليس لها سبب خاص.

فالأحاديث التي وردت في سبب خاص تحتاج إلى معرفة سبب الورود لفهمها وتحديد المقصود منها، أما الأحاديث التي جاءت من غير سبب خاص فإنها تكون عامة لجميع الأمة، ولا تكون في حاجة إلى معرفة سبب الورود لفهم المقصود منها، ولكنها مع ذلك قد تحتاج إلى معرفة نوع آخر من أسباب الورود، وهو المقام الذي صدرت فيه، أي بأي وصف صدرت عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، هل بوصفه مبلغا، أم بوصفه إماما مدبِّرا لشؤون الأمة، أم بوصفه بشرا عاديا يجتهد في أمور الدنيا كما يجتهد غيره؟ "[1]

تشترك السنة مع القرآن في أن كثيرا من الأحاديث وقعت على أسباب، ولا يحصل فهمها إلا بمعرفة ذلك"[2].

وقد يكون الجهل بسبب ورود الحديث مورثا للغلط في تحديد معناه، لذلك نجد الرواة يهتمون–عادة– بنقل سبب ورود الحديث، خاصة إذا رأوا فيه أهمية لمعرفة المقصود منه. وقد يغيب أحيانا سبب ورود الحديث –الذي يكون مخصصا لعموم الحديث، أو

[1] – نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص:122.

[2] – ينظر: الشاطبي الموافقات ، ج:03، ص:281.

مقيدا لإطلاقه، أو صارفا للأمر فيه عن الوجوب إلى الندب أو غير ذلك –عن البعض فيؤدي ذلك إلى التحير في فهم الحديث أو إلى سوء فهمه، وربما يطلع بعض العلماء على السبب ويخفى ذلك على البعض الآخر فيؤدي إلى الاختلاف بينهم"[1]

ومن هنا يتقرر ضابط فهم النصوص في ضوء أسباب النزول بالنسبة للقرآن وأسباب الورود بالنسبة للحديث النبوي، ذلك أن الكثير من النصوص في الكتاب والسنة أحاطت بها ظروف وأحوال ومناسبات، لا بد من إدراكها أثناء عملية التنزيل للنص على الواقع.

وعليه يتبين أن معرفة سبب النزول والورود يعتبر من الأهمية البالغة في توجيه فهم النصوص، إذ تجعل الفقيه يدرك حقيقة معنى النص وأبعاده، ويدرك وجه الارتباط بين النص والحكم والحكمة التي تكون في هذا الارتباط، وتزيل الإشكال عند الوقوف أمام المعاني في بعض النصوص، فهي تبين مدلول النص من جهة، وتزيل الاختلاف والتعارض من جهة أخرى"[2]. ولذلك كانت معرفة سبب النزول وسبب الورود من أهم الأمور المطلوبة لفهم النصوص الشرعية، ومعرفة مراد الشارع.

[1] – نعمان جغيم: أصول الفقه الإسلامي، ص:122.

[2] – ينظر: حسن مقبل الدوسي: مجلة الشريعة والقانون، العدد:19، جامعة الإمارات العربية المتحدة، (ربيع الثاني1424هـ، يونيو 2003م). ص: 88.

والعلاقة بين سبب نزول الآية، أو سبب ورود الحديث وبين النص الشرعي" علاقة أمر كلي(نص) بأمر آخر جزئي(سبب) في معظم الأحيان، يعني أن النص الشرعي كلي في مضامينه، ولكن نزوله وورودة ارتبط بأمر جزئي في مضامينه، فلئن نزلت آية أو ورد حديث بسبب حادثة أو نازلة، فإن الأصل أن الآية أو الحديث لا يقصدان توجيه هذه الحادثة بعينها وحدها، ولكنهما يقصدان في نهاية المطاف توضيح مراد الله في هذه الحادثة وفي مثيلاتها القادمة"[1].

وبالتالي فأسباب النزول والورود لا تعتبر قيودا للنص تحمده في زمان أو مكان أو في نطاق مناسبة، بل تكشف معنى النص ومراد الشارع ومقاصده، وهو فقه للتنزيل على الواقع في كل زمان ومكان وفي كل قضية مستجدة لها علاقة بمضمون النص

[1] – حسن مقبل الدوسي: مجلة الشريعة والقانون، العدد:19، جامعة الإمارات العربية المتحدة، (ربيع الثاني1424هـ، يونيو 2003م). ، ص:89- 90.

الفصل الثالث:

وجوه الإعجاز في الخطاب القرآني.

* وجوه الإعجاز من حيث العموم.
* الإعجاز والإخبار عن الغيوب.
  - غيوب الماضي.
  - غيوب المستقبل
* الإعجاز البلاغي.
* الإعجاز العلمي.

وجوه إعجاز القرآن من حيث العموم

اقتضت حكمة الله تعالى أن يؤيد رسله بالمعجزات، لتكون تصديقاً لهم فيما يبلغون من رسالاته، إذ ما دخل الشك قلوب أقوامهم، وأنكروا عليهم دعواهم، والمعجزة هي أن تكون أمراً خارقاً للنواميس المعروفة، وأن تشذ عن السنن المطردة في حوادث الكون، وأي محاولة في تفسيرها بما يطابق المعهود من السنن الطبيعية يبطل حكمتها، ويلحقها بالحوادث الشائعة التي لا دلالة لها في هذا المعنى، ولن تكون أمراً خارقاً للمعهود من براعة القوم إلا بما فيها من حسن ورجحان، وأن التفوق فيها راجع إلى قدرة الله وحده لا لأحد سواه"[1].

والمعجزات أما حسية وأما عقلية وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال إفهامهم ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر"[2].

وقد كانت حال العرب في جاهليتهم جهلاً بالدين مع بقايا ملة إبراهيم وليسوا جهالاً في البيان، ومعرفة أسرار البلاغة يدركونه بلحظ الحال، لا بإمعان عقل وطول تفكير، يدركونه بنغماته ومعانيه في لمح الفكر، من غير طول المكث. لذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وخاطبهم القرآن الكريم ابتداءً أن المعجزة من النوع الذي يحسونه ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة، فالمعجزة بلا شك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزمانها وخلودها إلى يوم القيامة.

---

[1] – إسماعيل أحمد الطحان، دراسات حول القرآن الكريم، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط02، 1998م ص: 78- 88.

[2] – السيوطي: الإتقان في علوم القران ج:02، ص:116

فالقرآن معجزة للخليقة كلها، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين، فهو إن جاء بلسان العرب، وفيه أعلى درجات البيان العربي، يشتمل في ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين، فإذا كان قد أعجز العرب ببيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه، وشرائعه، وما اشتمل عليه من علوم، بل بمبانيه أيضاً.

قال منزِّله عز من قائل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الاسراء:88]، تعالت كلمات الله تعالى.

تتعدد جوانب الإعجاز القرآني: بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء مثله بتعدد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله ومن هذه الجوانب:

الإعجاز اللغوي، الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي، الإعجاز العقدي "الاعتقادي".. الإعجاز التعبدي "العبادي".. الإعجاز الأخلاقي، الإعجاز التشريعي.. الإعجاز التاريخي، الإعجاز التربوي، الإعجاز النفسي، الإعجاز الإقتصادي. . الإعجاز الإداري. . الإعجاز التنبؤي. . الإعجاز العلمي. إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله في اسلوبه، أو مضمونه أو محتواه، دون أن يتمكن أحد من ذلك.

ولما ثبت كون القرآن معجزة نبينا –صلى الله عليه وسلم– وجب الاهتمام بمعرفة وجوه الإعجاز، ونقصد بوجوه الإعجاز : الأمور التي اشتمل عليها القرآن، وهي تدل على أنه من عند الله، وما كان في استطاعة أحد أن يأتي بمثله، وما كان في استطاعة الجن

والإنس أن يأتوا بمثله"[1]. وللعلماء أقوال في هذه الوجوه نذكرها على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر، فقد أورد العلماء في ذلك آراء كثيرة منها ما يأتي :

- قد حصر القاضي أبو بكر الباقلاني (ت 403هـ) وجوه الإعجاز في ثلاثة هي كما يأتي :

1- إخباره عن الغيوب.

2- تضمنه قصص الأولين وسير المتقدمين، إذ كان معلوماً من حال النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأنبائهم وسيرهم.

3- إنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"[2].

- وأما القرطبي (ت671هـ) فقد ذكر في تفسيره، أن أوجه إعجاز القرآن عشرة هي:

1- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء، ولذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[يس:69].

2- الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

[1] - ينظر: السيوطي: الإتقان في علوم القران ج: 02، ص:118، أبو زهرة : المعجزة الكبرى، ص: 65.

[2] - ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، على هامش الإتقان في علوم القرآن ص47، 51.

3- الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق:01] إلى آخرها، وقوله سبحانه : ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إلى آخر السورة. [الزمر:67]

4- التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، حتى يقع منها الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

5- ومنه الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أميّ ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية في دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه، وتحدوه به في قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر، فجاءهم –وهو أمي من أمة أمية، ليس لها بذلك علم– بما عرفوا من الكتب السالفة صحته، فتحققوا صدقه.

6- الوفاء بالوعد، المدرك بالحس في العيان، في كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله –صلى الله عليه و سلم–، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيد بشرط كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:03].

7- الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلّع عليها إلا بالوحي، فمن ذلك ما وعد الله نبيه –صلى الله عليه وسلم – أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾[الفتح:28] .

8- ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام، في الحلال والحرام وفي سائر الأحكام.

9- الحِكَم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

10- التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً أو باطناً من غير اختلاف، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:82] ،

أي مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة منسقة المعاني، منتظمة المباني.

وذكر القرطبي وجهاً آخر للإعجاز، قاله النظام (ت 224هـ) وبعض القدرية: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصرفة عند التحدي بمثله، وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن"[1].

ويقسم الإمام محمد أبو زهرة في كتابه المعجزة الكبرى وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن إلى قسمين هما :

أولا : ما يتعلق بالمنهاج البياني، وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب، لأنه نزل بلغتهم، ولأنهم كانوا بمقتضى بداوتهم مع استقامة تفكيرهم اللسانية وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس إدراكاً لمعنى الإعجاز في القرآن من ناحية بيانه، ونغمه، وجزالته، وكذلك كان الأمر منهم، وكانوا هم المخاطبين أولاً به، وبعجزهم قام البرهان الأول.

[1] - ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج1 ص:52-54.

ثانيا: الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين، ولأخبار مستقبلية، وقعت كما ذكر، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمد –صلى الله عليه وسلم–، وقد أتى بها القرآن، وتقررت حقائقها من بعد، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة، وأن هذا النوع معجزة للأجيال كلها، وهو يحتاج في بيانه إلى مجلدات ضخام"[1].

فالإمام أبو زهرة اتخذ موقفاً مقارباً لموقف العلماء الذين اهتموا بدراسة الوجوه الكثيرة في بيان إعجاز القرآن الكريم. والقرآن هو الحجة التي أظهرها الله سبحانه وتعالى على يد نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم– وتحدى الناس أن يأتوا بمثله، وتحداهم أخرى أن يأتوا بعشر سور مثله، وتحداهم ثالثة أن يأتوا بسورة مثله، وتحداهم رابعة أن يأتوا بحديث مثله، وما استطاعوا ولن يستطيعوا.

ولن نذهب يمنة ويسرة لتأصيل الإعجاز، أو لإطالة الحديث عنه هنا، فليس هذا بمقام ذاك، ولا هو بمستوعب له، فالإعجاز أجلى من أن يطال في بيانه، وأوعب من أن تستقصى أطرافه.نزل القرآن على أمة أمية في العقيدة، وأمية في الفكر، وأمية في الصناعة، وفي الزراعة، وأمية في العلاقات الاجتماعية والسياسية، وأمية في كل شؤون الحياة، إلا الكلمة وتذوقها، فهم أربابها وأصحابها، يمتطونها ويحكمون صنعتها، يطربون لجميلها، ويمجون قبيحها، ملكوها بقدر ما ملكتهم، يسيرونها وتسيرهم، ترفع فيهم وتضع.

بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلم تكن معجزته في شيء لا يتقنونه، أو فن لا يحذقونه، بل تحداهم فيما يدركون، وفيما هم فيه بارزون. جاءت المعجزة قرآناً يقرأونه

[1] – أبو زهرة : المعجزة الكبرى، ص: 69.

بألسنتهم، ويسمعونه بآذانهم، ويزنونه بموازين كلامهم، فإذا به أبلغ من بليغ الكلام، وأفصح من فصيحه، لا يرتقي إليه بيان، ولا يدركه لسان، فمَلَكَ البلاغة بألوانها، وحَازَ الفصاحة بأركانها. وجاءهم بما لا قبل لهم برده، ولا قدرة لهم في دفعه، لا يملكون من أنفسهم معه إرادة، وليست لهم معه مشيئة، إلا أن يضع المعاند أصابعه في أذنيه، ويستغشي ثيابه ويلغو فيه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصِّلت:26]، أما من لم يفعل فقد حيل بينه وبين خلافه، فلا يملك إلا أن ينعقد قلبه عليه وهو يجهد في نقضه، ويستقيم لدعوته، وهو يبالغ في رفضه، فلا مفر منه إلا إليه، فقد أخذ بمجامع القلوب، واستولى على جهات النفوس، فما أعجب شأنه، وأعظم أمره. ويزيدك عجباً لا ينفد أن هذا الكلام لم يأخذ من اللغة صنعتها، ومن الأسلوب جماله، ومن الفصاحة رونقها، ومن البلاغة سموها فحسب، بل أخذ مع هذا كله من المعاني أسماها، ومن المقاصد أعلاها.

جاء بالدين بأصوله، وحججه، وبراهينه، وشريعته، وآدابه، وسائر مقومات الأمة على أكمل وجه، وأحسنه، فهو والله إعجاز في إعجاز.[1]

ولقد كانت للعرب عدة ميادين يركضون فيها جواد بلاغتهم وبيانهم، ويتسابقون فيها مع أقرانهم وهي القصائد، والخطب، والرسائل والمحاورات، ولم يكونوا يعرفون غير أساليب هذه الأصناف الأربعة، ولا كانت عندهم قدرة على إبداع غيرها من الأساليب، فكان

[1] – ينظر: أحمد بن عبد الرحيم: الفوز الكبير في أصول التفسير، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، الناشر: دار الصحوة – القاهرة، ، ط : 02- 1407 هـ - 1986 م، ص:167.

إبداع أسلوب جديد يختلف عن أساليبهم على لسان نبي أمي – عليه أفضل الصلاة والسلام – إعجازا قائما برأسه."[1]

وكان من هذه الوجوه إخبار القرآن الكريم عن القصص الماضية وأحكام الشرائع السابقة على وجه يصدق الكتب السابقة ويهيمن عليها من دون أخذ عنها وتعلم منها.

كذلك من هذه الوجوه تلك الذروة السامقة من البلاغة القرآنية التي تعلو على قدرة البشر وتخرج عن طوقه، ونحن إذ نشأنا بعد العرب الأولين لا نستطيع أن نصل إلى كنه هذه البلاغة وحقيقتها، إلا أن القدر الذي نعلمه هو أن استعمال الكلمات والتراكيب العذبة الجزلة التي وردت في القرآن الكريم بما تمتاز به من لطف وجمال وعدم كلفة وصنعة لا نجد شيئاً منها في أي قصيدة من قصائد المتقدمين والمتأخرين، وهذا أمر ذوقي لا يدركه كما ينبغي إلا المهرة المفلقون من الشعراء، وليس في وسع العامة أن يتذوقوه."[2]

ومن العلوم كذلك أن القرآن الكريم في موضوع التذكير بآلاء الله وأيامه، والجدل، يكسو المعاني المتقاربة في كل موضع لباساً جديداً حسب أسلوب السورة التي تعرض فيها في جمال وطرافة لا تستطيع أن تتطاول إليها أعناق البشر.

فإذا تأملنا في أساليب قصص الأنبياء والمرسلين في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء، ثم ليرجع إلى هذه القصص في سورة الصافات ثم ليقرأ هذه القصص نفسها في سورة الذاريات يتجلى له الفرق كوضح النهار"[3].

---

[1] – ينظر: عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط09، 1417هـ/1997م، ص: 95.

[2] – ينظر: أحمد بن عبد الرحيم: الفوز الكبير في أصول التفسير ، تعريب: سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، القاهرة، ط02، 1407هـ/1986م ص:166.

[3] – المصدر نفسه، ص:167.

كذلك ورد ذكر ما يتعلق بتعذيب العصاة الظالمين، والإنعام على المطيعين الصالحين بلون جديد في كل موضع من مواضع ذكره في القرآن الكريم، وهكذا جاء تخاصم أهل النار بعضهم مع بعض في صور جديدة وأساليب متنوعة في كل مكان، والكلام في هذا يطول.

نعلم كذلك أن مراعاة مقتضى الحال الذي يتكفل فن المعاني بتفصيله والحديث عنه، واستعمال الاستعارات والكنايات التي يحتوي عليها فن البيان، مع مراعاة حال المخاطبين الأميين الذين يجهلون هذه الصناعات، قد توفرت في القرآن الكريم وتحققت بوجه لا يتصور أحسن منها وأروع، وذلك أن المطلوب في القرآن الكريم هو أن تودع بعض اللطائف البيانية التي لا تستعصي على العامة ويتذوقها الخاصة في تضاعيف المخاطبات المعروفة والحوار العام وهذا هو نوع من الجمع بين النقيضين (الذي لا يتيسر مثله لأي واحد من البشر) .

ومن وجوه الإعجاز القرآني ما لا يتيسر فهمه إلا للمتدبرين المتأملين في أسرار الشرائع، ودقائقها، وذلك أن هذه العلوم الخمسة – من جهة أنها لهداية النوع البشري وإرشاده – حجة قائمة بذاتها على أن هذا الكلام منزل من عند الله الحكيم العليم، كما أن طبيباً حاذقا لو نظر مثلا في القانون (لابن سينا) وتأمل في بيانه لأسباب الأمراض وعلاماتها ووصفه لأدويتها وعلاجها لما اعتراه أدنى شك في أن مؤلف هذا الكتاب من كبار الأطباء الحاذقين في صناعة الطب، كذلك العالم بأسرار الشرائع الذي يعرف ما هي الأشياء التي يمكن تعليمها وتلقينها للناس لتهذيب نفوسهم وإصلاح قلوبهم، ثم يتأمل في هذه العلوم الخمسة التي اشتمل عليها القرآن الحكيم لعلم العلم اليقين أن هذه العلوم قد وردت بمعانيها ومطالبها في القرآن على وجه لا يتصور أفضل منه ولا أدنى ولا أجمل وعلى

كل فإن الشمس الساطعة دليل من نفسها على نفسها، فإذا كنت في حاجة إلى الدليل فلا تشح بوجهك عنها"[1].

كذلك من هذه الوجوه ما ذكره بعض العلماء في أمور منها:

الأول:"ما فيه من الإيجاز والبلاغة وحسن التركيب، بحيث وصل في كل منها إلى الرتبة العليا لفظا ومعنى، ولهذا اعترف عقلاؤهم وفصحاؤهم أنه لا يقوله بشر. وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فسجد، وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخر رجلا يقررأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ ، فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام." [2]

والثاني: "أنه مع كونه من جنس كلام العرب قد جاء في نظمه وأسلوبه مخالفا لسائر فنونه من النظم والنثر والخطب والشعر والرجز والسجع؛ فحير عقولهم، حتى لم يهتدوا إلى مثل شيء منه؛ إذ لا مثال له يحتذى عليه، ولا إمام يرجع عند الاشتباه إليه، وقد حكي عن غير واحد ممن تصدى لمعارضته أنه اعترته روعة وهيبة كفته عن ذلك." [3]

"وحكي أن ابن المقفع –وكان أفصح أهل زمانه– طلب ذلك ورامه، ونظم كلاما، وجعله مفصلا، وسماه سورا، فاجتاز يوما بصبي يقرأ في مكتب:﴿ وَقِيلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا

[1] – ينظر: أحمد بن عبد الرحيم:الفوز الكبير في أصول التفسير، ، ص:167/168.

[2] – ينظر: عبد العزيز بن ا حمد: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، ج:02، ص: 432.

[3] – المصدر نفسه، ج:02، ص: 435.

لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44] . فرجع، ومحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبدا، وما هو من كلام البشر"[1]

الثالث: "تأثيره في النفوس والقلوب، بحيث تجد من اللذة والحلاوة عند سماعه ما لا تجد عند سماع غيره، ولذلك كان قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة وطلاوة." [3]

قال القاضي عياض: وأما غيره من الكلام – ولو بلغ من الحسن والبلاغة ما بلغ – يمل مع الترديد، ويعادى إذا عيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك حتى أحدث لها أصحابها لحونا وطرقا، يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها" [2].

ولهذا وصف النبي – صلى الله عليه وسلم – القرآن: بأنه "لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل وليس بالهزل، لا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء".

الرابع: "[3] ما فيه من الإحاطة بعلوم الأولين والآخرين، والإخبار بالغيوب الماضية والآتية، وجمعه لعلوم كثيرة لم تتعاط العرب الكلام فيها، ففيه من الإخبار بالغيوب الآتية شيء كثير، فوقع على ما أخبر كقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

[1] _ ينظر:عبدالعزيز بن احمد، منحة القريب المجيب في الرد علي عباد الصليب المصدر نفسه ، ج:02، ص: 436.
[2] _ المصدر نفسه، ج:02، ص: 436.
[3] _ المصدر نفسه ، ج:02، ص: 437-438.

[الفتح:27] وقولـه: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 03] وقولـه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[الفتح: 28]. والآيات في هذا كثيرة.

وفيه – أيضا – من أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية مما لم يكن يعلم القصة الواحدة منه إلا الفرد من أحبار أهل الكتاب، فيأتي به على وجهه، ويعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان، وأشباه ذلك من الأنبياء.

ومن وجوه إعجازه ايضا كونه آية باقية ما بقيت الدنيا، محفوظا من التغيير والتبديل الواقعين في الكتب قبله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:09]. وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت :42].

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها، ولم يبق إلا خبرها. والقرآن العزيز، الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته، الذي هو أعظم من كل معجزة، وأبهر من كل آية باق على ما كان، غضا طريا لم يتغير منه شيء، بل كأنه منزل الآن، وجميع وجوه إعجازه التي ذكرناها ثابتة إلى يوم القيامة، بينة الحجة لكل أمة تأتي.

لا يخفى وجه ذلك على من نظر إليه، وتأمل وجوه إعجازه. وما أخبر به من الغيوب يقع كل وقت على الوجه الذي أخبر به، حتى كأنه يشاهد عيانا، فيتجدد الإيمان، ويتظاهر البرهان، وليس الخبر كالعيان. والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين، وإن كان كل عندها حقا" [1].

[1] – ينظر: عبدالعزيز بن احمد: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، ج:02، ص: 447.

وإلى هذا المعنى – كما قال القاضي عياض – أشار النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما ثبت عنه في الصحيحين من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا قد أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ ما آمَنَ على مثله البَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُه وحيُهُ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أن أكون أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ "[1]. وهذا لفظ ملم.

ومما يلحق بإعجازه إخباره بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا، ولا قدروا على ذلك"[2].

الإعجاز والإخبار عن الغيوب:[3]

ومن وجوه الإعجاز القرآني أنه اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد – صلى الله عليه وسلم – بها، ولا سبيل لبشر مثله أن يعلمها، وهذا مما يدلّ على أن القرآن كلام الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنعام:59].

والإخبار عن الغيوب أنواع:

غيوب الماضي: وتتمثل في القصص، الرائعة وجميع ما أخبر الله به عن ماضي الأزمان.

---

[1]– البخاري في صحيحه (كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة، باب:قول النبي صلي الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم)، ج9 رقم7274.

[2] – ينظر:عبد العزيز بن احمد: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، ج:02، ص: 448.

[3] – ينظر: القحطاني: العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، مطبعة سفير، الرياض 2012م ص:53.

وغيوب المستقبل التي أخبر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – فيها بأمور لم تقع، ثم وقعت كما أخبر، فدلّ ذلك على أن القرآن كلام الله، وأن محمداً – صلى الله عليه وسلم – رسول الله، وتفصيل ذلك كالآتي:

النوع الأول: غيوب الماضي:

لقد نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم من عند علام الغيوب بواسطة جبريل عليه السلام ليكون دستورا سماويا ارتضاه الله تعالى للبشرية جمعاء من غير تمييز، لقد حوى القرءان قصصا كثيرة عن الغيب سواء تعلقت بأمور وحوادث أخبر عنها وقد سبقت نزوله أو بأمور لم تحدث بعد، كل ذلك داخل في موضوع الإعجاز الكبير، ومؤيد لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومدعاة إلى تصديق بهذا الدين الجديد، وما جاء فيه من شرائع وأحكام، حتى كأن حاجز الزمن يكاد ينعدم، فالقرءان يتحدث عن الأزمنة الغابرة ويربطها بالحاضر، يتحدث عن الأنبياء منذ آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، عما وقع لهم مع أقوامهم وما أصاب الكافرين منهم من مصائب جزاء كفرهم وعنادهم، ويتحدث عما لاقاه الأنبياء من مشاق في سبيل تبليغ رسالات ربهم ونشر الدين والهداية بينهم ودعوتهم للإيمان ...

وفي هذا السياق واجه الرسول صلى الله عليه وسلم أسئلة محرجة من مشركي مكة على وجه الخصوص بإيعاز من النصارى واليهود على وجه الخصوص لأنهم كانوا أكثر عنادا ومعاداة للإسلام ونبي الإسلام، ولقد ترسب في عقولهم ضغائن وأحقاد قديمة ضد العرب المسلمين وكانوا يعتبرون أنفسهم أهل كتاب يعرفون أخبار السماء حاملين لما جاء في التوراة

والإنجيل عاملين به، ولما أخبر القرءان الكريم عما هم فيه من زيغ وضلال أخذتهم العزة بالإثم وازدادوا كفرا وعنادا لذلك قال فيهم الله عز وجل﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ ﴾[الجمعة:05]؛ أي أنهم حَمَلُوها ظاهرا وادعوا معرفتها والعمل بها ولكنهم في الحقيقة حرَّفوها، لذلك كانوا يؤلبون مشركي مكة ويدلون إليهم بآراء وأفكار عن الدين ليجادلوا بها الرسول صلى الله عليه وسلم ويختبروا نبوته.

وفي هذا السياق تندرج الأسئلة التي كانوا يطرحونها على الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس في مقدور الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم إلاّ بما يوحى إليه، لأن الأمور التي أجابهم عنها غائبة عنه سابقة لزمانه وعصره، ولكن القرءان أخبر عنها وحكى عن اعتقاداتهم وما أصابها من زيف فيكشف عن عقيدة النصارى المبنية على الزيف والتحريف في اعتقادهم في عيسى عليه السلام أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠ ﴾[التوبة:30] وكذلك عقيدة اليهود في أن عزير ابن الله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) ويقرر الإيمان الصادق والصحيح المبني على التوحيد ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾[الاخلاص:1-4].

واستنادا إلى أقوال المفسرين لسورة الإخلاص يمكننا استنباط ثلاثة حقائق عظمى ينعقد عليها الإيمان بل هي رأس الإيمان، وبدونها لا يصح ولو كان مشفوعا بأعمال ظاهرها ما جاء به الشرع:

الحقيقة الأولى: (هو الله أحد) أي الإقرار بالوحدانية وما يتبعها من عبودية وخضوع لله تعالى وإيمان مطلقا لثبوت قدرته على الخلق والتسيير والتقدير فهو الأول والآخر بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير (الله الصمد) الفرد الصمد الدائم لا يحده زمان ولا مكان، ولا تسري عليه أحداث الزمان ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمان:26-27] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾[النساء:48].

الحقيقة الثانية: (لم يلد ولم يولد) أي (ليس كمثله شيء) ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ ۝٩١﴾[المؤمنون:91] ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾[الجن:03]فهو منزه عن الأب والزوجة والولد، وهذا إبطال لمزاعم النصارى واليهود الذين نسبوا له الولد كما سبق ...(ولم يولد): كما قال أو سيقول كفار قريش ليخالفوا بمقالتهم في الكفر مقالة من سبقهم فيأتوا بكفر جديد.

الحقيقة الثالثة: (ولم يكن له كفؤا أحد) أي ليس له شبيه ولا نظير ولا مشارك في الملك، فهو الذي يحي ويميت ويحاسب ويغفر ويجازي ويعاقب فعال لما يريد، ولو لم يرد في

القرءان الكريم ما يدل على التوحيد إلاّ هذه السورة لكفت العقلاء، بهذا الأسلوب الموجز والألفاظ الدّالة الموحية المعبرة عن حقيقة الله تعالى وتنزيهه عن التبديل والتشبيه ومما جاء في مناسبة هذه السورة أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد ...) فالصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلاّ سيموت، وليس شيء يموت إلاّ سيورث، وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث ..."[1] لذلك قال تعالى ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴿٢٢﴾﴾[الأنبياء:22] ومفاد الآية أن الله تعالى هو الله الذي لا إله إلاّ هو يدبر الكون كيف يشاء.

ولقد توقف العلماء عند (إلاّ) في هذه الأية ، والشائع في كلام العرب أنّ (إلاّ) تأتي للاستثناء وهي أم الباب كما يقول النحاة، وجعلها هنا للاستثناء في هذه الأية يفضي إلى مخالفة التوحيد، أي لو كان فيهما آلهة ومعها الله لم تفسدا، يقول ابن هشام: (فلا يجوز في (إلاّ) هذه أن تكون للاستثناء من جهة المعنى. ولا من جهة اللفظ)[2] ليخلص إلى أنّ (إلاّ) في الأية مؤكدة الوصف، إذ المعنى حينئذ لو كان فيهما آلهة لفسدتا، أي أن الفساد يترتب على تقدير تعدد الآلهة، وهذا هو المعنى المراد"[3].

ومن دلالات الغيب على الماضي تلك الأسئلة التي كانت توجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمتصلة بأمور وقعت في الأزمنة الغابرة أي قبل محمد صلى الله عليه وسلم

[1] – السيوطي: أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1422هـ/ 2002م ، سورة الإخلاص ص 262.

[2] – ينظر:أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، دار الفكر، بيروت لبنان (1413-1993) ط/1، ج 01 ، ص 84-85.

[3] – المصدر نفسه ص 85.

كما جاء عن أصحاب الكهف ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٌ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ ﴿٢٢﴾ ﴾[الكهف:22]ذكر الزمخشري لهذه الأية مناسبة مفادها أن جماعة من اليهود قالوا لقريش: (سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: ايتوني غدا أخبركم ولم يستثني فأبطأ عليه الوحي حتى ضاق عليه وكذبته قريش لذلك قال تعالى بعد الأية السابقة ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ.... ﴿٢٤﴾﴾[الكهف:23-24] أي أن العزم على فعل شيء من الأشياء مما هو مشروع شرعا لا بد أن يكون مقرونا بالمشيئة الإلهية والتوكل على الله).[1]

ولقد بينت الآيات السابقة ما كانوا فيه يختلفون فبعضهم قال: ثلاثة رابعهم كلبهم. وبعضهم قال: أربعة خامسهم كلبهم، وبعضهم قال: خمسة سادسهم كلبهم، وكلا القولين رجما بالغيب من غير تثبت ولا دراية، والرجم بالغيب الظن بالغيب المفضي بصاحبه إلى الخطأ من غير معرفة دقيقة ولا تثبت لذلك قال : زهير بن أبي سلمى

وما الحرب إلاّ ما علمتم ودقتم وما هو عنها بالحديث المرجّم [2]

أما الواو في قول تعالى: (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فهي للتصديق مقالة المسلمين التي خالفوا بها النصارى واليهود، ودليل ذلك، أنه بعد ذكر القولين (ثلاثة رابعهم ... خمسة سادسهم كلبهم..) عقب عليها بقوله (رجما بالغيب) ثم قال (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) فأخرجه من دائرة الرجم بالغيب بذكر (الواو)، وجاء بعده (قل ربي أعلم بعدتهم ما

[1] ينظر : الكشاف ، تفسير سورة الكهف، ط : 03، دار المعرفة بيروت . 1981 م ج : 02 ص 480.

[2] – زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح أبو العباس تعلب، دار العراقية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (1415-1994) ، ص 19.

يعلمهم إلاّ قليل) إشارة إلى معارضة أقوال الفريقين (اليهود والنصارى) وتأييد مقالة المسلمين[1].

وأغلب ما جاء في القرءان الكريم بصيغة الفعل الناقص (كان) مستندا إلى ضمير المخاطب (كنت) كان موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في سياق الإخبار عن أمور غيبية كانت قد سبقته في الزمان، أو في سياق بيان فضل الله تعالى عليه بأن جعله نبيا مرسلا واصطفاه بالوحي وجعله سيد المرسلين، وجعل رسالته خاتمة للرسالات السماوية السابقة.

ومن عظائم القرءان الكريم وكله عظائم ما أخبر عنه من حقائق متصلة بالدين على العموم ومنها حقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام حيث ترسبت في عقائد النصارى منذ أزمنة غابرة أن عيسى ابن الله وبنو على هذا الزعم الباطل عقيدتهم التثليثية (الآب والابن وروح القدس) فأخبر القرءان الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم بأن عيسى عليه السلام نبي الله اصطفاه كما اصطفى غيره من الأنبياء وآتاه بالمعجزات ما تؤيد نبوته قال تعالى﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ [آل عمران:59] فهذه الأية تفندُ ما هو شائع عند النصارى عن عيسى عليه السلام وإبطال لزعمهم أن يولد بشر من غير أب حتى نسبوا أبوته لله تعالى لذلك ذكّرهم القرءان الكريم بهذه الحقيقة وأن لا مجال للاستغراب فآدم عليه السلام خلقه الله من غير أب ولا أم وهذا أشد استغرابا من خلق عيسى من غير أب فقط وإن شأن عيسى عليه السلام بالنسبة لقدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثال آدم عليه السلام حيث خلقه من غير أبوين، بل

[1] – ينظر: الكشاف : تفسير سورة الكهف ، ط : 03، ج 02 ، دار المعرفة، بيروت ، 1981 ، ص 480.

شأن آدم أعجب حيث خلقه من تراب يابس ، فمن آمن بقدرته تعالى في خلقه آدم من تراب كيف لا يؤمن بها في خلقه عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب.

وقوله تعالى: (خلقه من تراب) كلام مستأنف لبيان أن المشبه به أخرق للعادة وأغرب[1] ولعل من الأسباب التي جعلت النصارى يزعمون هذا الزعم هو أن حضارتهم القديمة أي الحضارة اليونانية مليئة بالأساطير والخرافات وبخاصة ما تعلق منها بجانب الاعتقاد: ولقد تعددت الآلهة وتنوعت عند المجتمع اليوناني القديم بحيث كان لكل بيت ومدينة أو جهة إلهها الذي تقدم له القرابين وتتوسل إليه لدفع ضرر أو جلب منفعة (واهتم الإغريق بمعرفة الغيب والرضوخ لمشيئة الآلهة عند حلول محنة أو قبل خوض معركة يتوجّه الأفراد إلى الهيكل ..وتجلس الكاهنة على مقعد مثلث القوائم فوق شق في الأرض تحت الهيكل)[2] والناس يستمعون إليها، وهي تردد ألفاظا في الغالب غامضة يتأولها كل مستمع حسب اهتمامه ووفق مزاجه الأمر هو شبيه جدا بما كان شائعا في المجتمع العربي الجاهلي حيث كان سجع الكهان شائعا لديهم.

والكهانة والعرافة كانتا مشهورتين قبل الإسلام وبعده ، ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم منها فقال: " مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً "[3].

والعراف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ، ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق .

---

[1] – ينظر الصابوني، صفوة التفاسير، شركة شهاب، (د ت)، ج01 ، ص 188 بتصرف.

[2] – ينظر لبيب عبد الساتر ، الحضارات دار المشرق، بيروت، لبنان،(1407– 1986) ط 07، ص 150.

[3] – ينظر أبو الحسين محمد بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان (1413–1992) كتاب السلام (39) باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (35) حديث رقم 2230، ج09، ص 76–59.

والمراد بالطرق: قيل الخط الذي يدعي به الإطلاع على الغيب، وقيل إنه الضرب بالحصى الذي يفعله النساء ، والزجر هو العيافة ، وهي التشاؤم والتيامن بالطير، وادعاء معرفة الأمور من كيفية طيرانها ومواقعها وأسمائها وألوانها وجهاتها التي تطير إليها .

ومنه قول علقمة بن عبدة التميمي[1]:

ومن تعرض للغربـــان يزجرهـــــا على سلامتـــه لابد مشـــؤوم

ولقد صدق من قال[2] :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ووجه تكفير بعض أهل العلم لمن يدعي الإطلاع على الغيب أنه ادعى لنفسه ما استأثر الله تعالى به دون خلقه ، وكذب القرآن الوارد بذلك كقوله ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ [النمل:65] وقوله هنا ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾[الأنعام:59] ونحو ذلك[3] .

ثم ما لبث المجتمع اليوناني أن اهتم بالفلسفة وثار على الآلهة، غير أنه لم يستطع أن يتحرر من اعتقاده فيها وإنما نزع عنها لباس التقديس فالإله عند اليونان ليس شيئا مقدسا، فهو خاضع للحتمية عاجزا عن إعطاء كل ما يطلب منه لذلك فإن المجتمع اليوناني قائم على فكرة الصراع والمحاداة والمغامرة، ومحاولة اكتشاف المجهول، قائم على التطور والتحول وعدم الاستقرار، وعندما انتشرت المسيحية في الغرب امتزجت تعاليمها ببقايا هذا الفكر

[1] – ينظر شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل الاعلم الشنتمري قدم له و وضع هوامشه و فهارسه حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، (1414هـ-1993م)، ص44.

[2] – ينظر ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر بيروت، ص90

[3] – ينظر الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، حققه محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،(1424-2003) ط/2، ج2، ص 300.

اليوناني فكانت عقيدة التثليث لونا من ألوان هذا الفكر الذي يعود إلى قرون خلت قبل المسيحية، ثم إن العداوة بين اليهود والنصارى والتي ترجع إلى صلب المسيح، جعلت النصارى يرون في المسيح المصلوب على حدّ زعمهم إلها مخلصا للبشرية من شرورها وآثامها، وأن صلبه كان تكفيرا عن ذنوب البشر جميعا، والقرءان الكريم يصحح هذا الخطأ الجسيم ويبين لنا أن الله هو الذي رفع المسيح عليه السلام فلم يقتل ولم يصلب كما يدعي النصارى قال تعالى:﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[النساء:156-157-158].

ووردت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن محاداة أهل الكتاب وعنادهم وبالخصوص اليهود، إذ يروي أن اليهود اختلفوا في قتل عيسى عليه السلام، حيث قال بعضهم قتلناه حقا وتردد فيه آخرون وكذلك اختلفت أقوال النصارى فيه لذلك قال فيهم القرءان الكريم (إلاّ اتباع الظن)[1].

وهكذا تتوالى قصص الإخبار عن الغيب في القرءان الكريم في مواضع شتى بأساليب متنوعة حسب مقتضيات المقام ومتطلبات السياق وبناء على الأحداث والمناسبات التي تستدعي التذكر والاتعاظ، أو رفع اللبس للتثبت واليقين أو تفنيد الكذب للتصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وكل ما جاء من هذا القبيل في القرءان الكريم لا يخرج عن الإطار العام الذي يبين أنه وحي يوحى من عند الله وليس للعقل البشري فيه دخل أو

[1]- ينظر:مخلوف حسنين، صفوة البيان لمعاني القرءان، دار المشرق، بيروت، لبنان، (د ت) ط:3، ص 138.

تصرف أو إرادة، وأهم ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو قصص الأنبياء كقصة آدم عليه السلام وخروجه من الجنة، وقصة ابني آدم قابيل وهابيل وكيف سولت لقابيل نفسه قتل أخيه هابيل قال تعالى:﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ ﴾[المائدة:27-30].

وقصة نوح عليه السلام والطوفان الذي أصاب الكافرين من قومه، ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ ﴾[القمر:09-15] وقصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وصالح عليه السلام مع قومه ثمود ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤ ﴾[الحج:42-44].

وإبراهيم وإسمـــــاعيل عليهمـا السلام ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾[مريم:54-55].

وذي القرنين ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا فَمَا ﴿٩٦﴾ ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:83-97].

ويعقوب عليه السلام ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[البقرة:133].

وكذا يوسف ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾[يوسف:01-04].

وموسى وهارون عليهم السلام ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٤٤﴾[القصص:44] وغيرهم ...﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ [النساء:164] قوله تعالى ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾[هود:49].

إنّ الإخبار عن هذه الأمور الغائبة والتي حدثت قبل محمد صلى الله عليه وسلم بقرون من الزمن لأكبر دليل على صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأنه الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن معاني الوحي الاصطلاحية أن يدل على القرءان الكريم وعلى الحق والصدق والأمر و الشرع عامة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحضر ولم يشاهد هذه الأمور ولم يقرأ عنها أو يخبر بها، وإنما أوحيت إليه وحيا من عند الله تعالى.

إن توارد هذه الأخبار والقصص في القرءان الكريم بذلك الأسلوب الرفيع والمعجز الذي يُنبئ بأنّ الفاعل هو الله تعالى لأكبر دليل لتفنيد أقوال المكذبين بالوحي، ولو كان ذلك كله من عند محمد صلى الله عليه وسلم كما يدعون لما جاء في هذا الأسلوب وبهذه الكيفية وبهذا التنوع وكذلك يبين الله تعالى لنبيه وللناس أن هذا الأمر من عند الله وليس لأحد فيه دخل قال تعالى﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا

كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾[القصص:45] وقوله تعالى﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[القصص:44] .وقوله تعالى﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا.....﴾[القصص:46] وقوله تعالى﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾[آل عمران:44].

وكذلك لا يقف القرءان الكريم عند هذا الحد من الإخبار والقصص وإنما يستمر مبينا الزيف والتحريف والمغالطات التي أحدثها أهل الأديان السابقة وخاصة اليهود والنصارى .. فالإخبار عن الغيب في القرءان الكريم وجه من أوجه الإعجاز بل أعظم حجة للإعجاز القرءاني.

النوع الثاني: غيوب المستقبل:

من أخبار الغيب في القرآن الكريم ما أفاد الإستقبال، وذلك في آيات عدّة أوحى الله تعالى بها إلى نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، ولعلّ المقصد والغاية منها هو إثبات أنّ هذا القرآن من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما أن طريقة الوحي في حدّ ذاتها ليست في متناول البشر ولا ممّا تأتى لهم أو يخطر في عقولهم؛ من ذلك مثلا الوعد بانتصار المسلمين وهيمنة الإسلام على جميع الأديان الأخرى؛ وذلك في وقت ما زال الإسلام فيه محصورا في جزيرة العرب ولم يعمّها بعد هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[التوبة33].

ولفظ المشركين هنا يطلق على عبدة الأوثان التي أشركوا بها الله وعلى النصارى واليهود معا باعتبار ما قالوه من أنّ عيسى ابن الله وعزير ابن الله وعدم تنزيه الله والإقرار له بالوحدانية والعبودية فمشركو مكة اتخذوا الأوثان آلهة ودأبوا على عبادتها ردحا من الزمن،

وأمّا النصارى واليهود فكان إشراكهم في عدم تنزيه العقيدة في حدّ ذاتها، والطوائف الثلاثة من المشركين كانوا قد اخذوا في التآزر والاتفاق على محاربة الإسلام والإحالة بينه وبين الانتشار و المسلمون يومئذ قليلو العدد ضعاف العدّة والجهاد لم يؤذن به بعد، ولكن الوحي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالغيب الآتي وهو انتصار للإسلام.

ولقد انتصر الإسلام فعلا وعمّ أقطارا عديدة لم يكن المسلمون قد تطلعت نظارهم إليها بعد؛ و جاء في هذا السياق أيضا من الإخبار بالغيب الآتي ما يثبت قلوب المؤمنين يطمئنهم و يواسيهم ويذهب الرّوع عن نفوسهم وهم يومئذ قلّة بين قوتين كبيرتين: المنافقين واليهود في المدينة وكفار قريش بمكة لذلك قال تعالى﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:55].

والآية كما نرى فيها وعد للمسلمين بالانتصار وبدخول الناس في الإسلام وتكثير عدد المسلمين؛ وفيها وعد بالاستخلاف في الأرض والاستخلاف أي جعلهم خلفاء فيها يخلفون من كان قبلهم، فتؤول إليهم أمور تسيير شؤونها (وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم) ولم يقل (ليمكننّهم) لأنّ التمكين في الأرض لدين الله وشرعه، وما المسلمون إلاّ حماة لهذا الدين وقائمون بأمره وفق ما أمر به الله، وليس وفق ما يريدون هم، لذلك كان التمكين للدّين، والملاحظ أنّ هذه الآية اشتملت على ثلاثة أساليب قسميّة (ليستخلفهم) (وليمكننّ) (ليبدلنّهم) والقسم عند العرب من أساليب التوكيد بل هو أكد المؤكدات.

ولا يكون القسم إلاّ بمقسم به تتعلّق به الهمة سواء كان عزيزا أو مقدسا أو محبوبا والعرب يومئذ يعطون قيمة القسم ويدركون دلالاته البلاغية و يميّزون استعمالاته الفصيحة؛ و أنّ من يقسم على شيء إثباتا أو نفيا لا بدّ أن يبّر بقسمه، ولا يقسم على باطل أو شيء لم يعلم على وجه اليقين صحة تحققه[1]؛ والأسلوب القرءاني بهذه الفصاحة المتناهية والبلاغة الرائعة قد جمع بين الشكل والمضمون؛ أي بين الأسلوب والمعنى المعبّر عنه.

ولئن كان الأسلوب جاريا في معظمه على المعهود والمحتمل في كلام العرب ممّا هو في متناول أفهامهم من غير أن يجري على ألسنتهم، فإن محتواه ومضمونه أبعد غورا وأعمق محتوى فيما أخبر به من أمور غيبية ؛ والفصيح حين يستمع إلى هذه الآية وأمثالها يدرك أنّ ذلك فوق طاقته؛ ويدرك أنّ القسم فيها لا يكون إلاّ صادقا وإنّ الاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا لابدّ أنه آت لا محالة، لأنه لا يملك دليلا قاطعا على تكذيبها أو مخالفتها، فلا يسعه إلاّ التصديق وبعد الإخبار بهذا الغيب الذي لم يحن وقته بعد شرط ذلك بالتزام العبادة وعدم الإشراك بالله حتى لا تتزعزع النوايا ولا تستبد الأهواء بالنفوس،كما فيه تحذير ضمني لما قد يصيب المنتصر من نشوة أو كبرياء أو تباهٍ أو حيف عن جادة الصواب تحت طائلة النصّر.

وختمت الآية ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾، والفسوق في أصل اللّغة للنبات (يقال فسق النّبات) إذا شقّ التراب وأخد في الظهور، وتوسع في استعمال اللّفظ على سبيل المجاز؛ فكان منه الفاسق وهو الخارج عن الطاعة عموما؛ والفاسق الخارج عن طريق الدّين؛ ومنه قوله تعالى ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:50] ؛ أي خرج عن طاعته وعصاه، والتعقيب بقوله تعالى: (ومن يكفر..)

[1] – ينظر: ابن القيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (1414- 1993) ص 30.

بعد التأكيد على الاستخلاف والتمكين وتبدل الخوف أمنا؛ يفيد الوعيد والتوعّد للذين يرتدون بعد الإيمان وبعد أن رأوا من الآيات ما يدّل على قدرة الله وعظمته .....

وممّا أخبر به القرآن أيضا من أمور الغيب؛ انتصار المسلمين في غزوة بدر وكان المسلمون قلّة في العدد والعدّة؛ وكانوا يطمعون في الحصول على أرزاقهم ممّا توفره لهم قافلة قريش العائدة إلى مكة فأرادوا اعتراضها ولَمْ يكونوا يطمعون في التغلّب على صناديد قريش وكسر شوكتهم؛ ولكن الله أراد لهم الانتصار على قريش وكسر قوتها وإذلالها؛ قال تعالى:﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال:7-8].

فانتصار المسلمين في هذه الغزوة التي تعتبر أول مواجهة بين المسلمين والكفار فيه انتصار للإسلام على الشرك وتعزيز لدين الله على عبدة الأوثان وكسر لشوكة قريش التي عتت وتعالت وعذّبت المسلمين وقهرتهم وهجرتهم واستولت على أموالهم وممتلكاتهم ولنطرح السؤال: كيف ستكون الموازين وكيف ستنقلب الأحوال لو أنّ الدائرة كانت لقريش في هذه الغزوة، إلا يكون في ذلك زعزعة للإسلام والمسلمين وفرحة كبرى للكفار ولكن الله أراد أن يقطع دابر الكافرين فقطعه.

ومن ذلك وعد الله رسوله بلوغ مكة ودخول المسجد الحرام، وذلك بعد أن لبث المسلمون في المدينة عدّة سنين يحنون إلى رؤية مكة والبيت الحرام ولم يجدوا إلى ذلك سبيلا؛ فبشرهم القرآن الكريم بأنّ الله سيمكنهم من ذلك في القريب العاجل قال

تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح:26-27] فعلم الله ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا، وفي ذلك إشارة إلى هذا الأمر الغيبي الذي لم يكن مدركا لدى المسلمين؛ ولكنّ الله قدره.

ولقد ذكر الإمام الفخر الرازي[1] عدّة وجوه في تفسير لفظ الغيب، وذلك أثناء وقوفه على قوله تعالى:﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:03] منها "يتناول الإيمان بالغائبات على الإجمال ثم بعد ذلك قوله:﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة:04] يتناول الإيمان ببعض الغائبات فكان هذا من باب عطف التفصيل على الجملة وهو جائز كما في قوله تعالى :﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [2] والغيب عنده قسمان من المدلول به عليه فهو إمّا ما قام عليه دليل وهو في متناول البشر؛

[1] – **الفخر الرازي** هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر 544- 606 هـ/ 1150 - 1210 م. قرشي النسب،أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الري) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة.

أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها.كان يحسن الفارسية.من تصانيفه (مفاتيح الغيب في تفسير القرآن الكريم، و لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات وغيرها.

[2] – الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، (1405-1985) ط/3، ج02 ص 28.

وإمّا ما لا يقوم عليه دليل وهو الذي استأثر الله تعالى بعلمه ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام:59].

ثم أعقب بالإمام الفخر الرازي بقوله "ولذلك قال العلماء للاستدلال بالشاهد على الغائب أحد أقسام الدلالة وعلى هذا الاعتبار نجد المتكلمين يقولون هذا من باب إلحاق الغائب بالشاهد ويريدون بالغائب ذات الله تعالى وصفاته والله أعلم"[1].

أمّا الإمام أبو زهرة فبعد أن تناول قوله تعالى:﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة01-02] ويقرر أنها أربع جمل متناسقة متكاملة من غير حرف نسق بينها، ويخلص إلى قوله تعالى:(الذين يؤمنون بالغيب) ليقرر أن هذا أول وصف للمتقين فيقول: "الغيب كلّ ما يغيب عن الشخص، ويستتر .. فالغيب هو الله تعالى لأننا نؤمن به ولا نراه، فالبرهان يوجب الإيمان به وهو لا يرى بالحسّ بل يرى بالقلب،وفسّروه بأنّه القدر، وفسروه بأنّه الإيمان بالملائكة، وفسروه بالقرآن وما فيه من أخبار الملائكة واليوم الآخر والجنة والنار وقال آخرون الغيب:الغيب كلّ ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ممّا لا تهتدي العقول إليه من علامات الساعة والحشر والنشر والصّراط والميزان .."[2].

وهذه الأقوال في جميعها متكاملة تصّب في اتجاه واحد فالغيب هو ما ليس في متناول مدركاتها الحسّية والعقلية، وهو ثلاثة أقسام : قسم إطلاق: ولا يمكن أن نهتدي إليه أبدا إلاّ عن طريق الوحي: وهذا القسم تندرج تحته سائر الأمور التي دعانا الشرع إلى الإيمان بها

[1] – الرازي، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر، ط3، (1985/1405)، ج02 ص28.

[2] – أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة (1394-1974) ، ج01 ص104.

والتصديق بوقوعها كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره وما يلحق ذلك من أمور العبادات والمعاملات وإقامة الحدود والشرائع؛ قال ابن عاشر[1] في منظومته :

أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك .

والقسم الثاني من الغيب هو ما نستطيع إدراكه حسّا أو معنى فمنه ما نعلمه عن طريق الإخبار عنه أو نستدل عليه من خلال تتبع آثاره : ويندرج تحت هذا القسم سائر الأخبار والوقائع التي جاءتنا في القرآن الكريم كأخبار الأمم السابقة والحوادث الماضية ومنها قصة آدم وحواء وخروجهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض وقصص الأنبياء ؛ ومعلوم أنّ القرآن الكريم حينما أخبرنا بهذه الأمور الغائبة عنا إنما تناول فيها ما يثبت الدليل وتقوم به الحجّة على قدرة الله تعالى في تصريف شؤون خلقه وسريان حكمته على سائر مخلوقاته؛ وقسم ثالث من الغيب يتناول أمورا لم تقع بعد مع أنها في متناول الإدراك الحسي والعقلي ومن هذا القسم أيضا ما أخبر عن بعضه القرآن الكريم.

وللغيب علاقة وطيدة بالإيمان وذلك أنّ من الناس الماديون الظّالون الذين لا يؤمنون إلاّ بالمادة وحدها مدعين أنهم : عقليّون ومنهم المؤمنون الذين مدحهم الله تعالى ولذلك قال فيهم﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:33] كما قال أيضا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

[1] – هو **عبد الواحد بن أحمد بن عاشر** صاحب المرشد 484 – 567 هـ / 1091– 1172م رأس المفتين في زمانه بالأندلس ولد في حصن ينشتة وسكن شاطبة، وولي خطة الشورى ببلنسية، ثم قلد قضاء مرسية، وحمدت سيرته. واستمر إلى انقراض الدولة اللمتونية، في آخر سنة 539 هـ، فصرف صرفا جميلا. وعاد إلى شاطبة، فدرس بها الفقه. وألف في شرح المدونة كتابا سماه (الجامع البسيط) توفي قبل إكماله، وقد كف بصره أنظر الأعلام للزركلي ج 03 ص 247.

تَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك:12] ومن معاني الغيب في الآية السابقة (الباطن) أي يؤمنون باطنا كما يؤمنون ظاهرا ليفارقوا أهل النفاق الذين يؤمنون بألسنتهم فقط.[1]

ولقد جعل الله تبارك وتعالى الإيمان بالغيب أوّل صفة للمتقين عندما قال ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:01-04] فالغيب أول مرتبة في الهدى لأنّه أساس الإيمان كلّه؛ ولا تقبل العبادات من دونه أفرأيت لو أنّ أحدا عمل أعمالا ممّا أمر به الشرع وأتى بها على أكمل وجه فهل تقبل منه عند الله وهو غير مؤمن بالله ورسوله وسائر متطلبات الإيمان الأخرى.طبعا لن يقبل منه شيء منها إلا إذا كان ذلك مسبوقا بالإيمان لذلك كانت أول آية نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق:01-05].

يستفاد من هذه الآيات الحثّ على التعلم وطلب المعرفة عامة انطلاقا من الإيمان بالله تعالى وما يلحق هذا الإيمان من الإذعان له تعالى والخضوع له وطاعته ؛وهذه كلّها أمور غيبية؛ وحين تناول الإمام الشعراوي الغيب، فرق بين الإدراك بالحواس؛ والإدراك بغير الحواس وكلاهما معلوم ويتوصل إلى معرفة الأشياء المدركة، فهناك ملكات في النفس هي

[1] – ابن العدوي، التسهيل لتأويل التنزيل، دار ابن كثير، مصر،(1416- 1996) ط 01، ج 01 ص 172.

الحواس الظاهرة ؛وهناك إدراكات في النفس وهي حواس لا يعلمها إلا خالقها، وعندما يتوصل العلماء إلى حقائق علمية كانت مستورة عنّا، فلا يقال إنهم اطلعوا على الغيب، بل إكتشفوا موجودا له مقدمات فتوصلوا إلى هذه النتائج العلمية الباهرة فاكتشافهم هذا ليس غيبا، ونحن نجد في القرآن الكريم عددا كبيرا من الآيات التي تحثنا على التعلّم وطلب المعرفة وانتهاج طرق البحث العلمي الجاد للوصول إلى حقائق كانت غائبة عنا، ومجهولة لدى ملكاتنا النفسية، فهذه الآيات تدعو ملكاتنا النفسية إلى الاستيقاظ والتنبه إلى الظواهر الكونية للبحث فيها والانتفاع بها وتسخيرها أو تدعونا إلى الإيمان بالخالق انطلاقا من ملاحظتها، ولذلك قال الشاعر[1] :

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري حتّى أريك صنعت البـــاري
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيـــــات والآثــار
دلت على ملك الملوك فلم تدع لأدلة الفقهـــــاء والأحبــار

وانطلاقا ممّا سبق، فالغيب هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل إليه علم خلق من خلق الله.

فالغيب بهذا المفهوم هو ما اختفى الله تعالى بعلمه دون سائر مخلوقاته من ملائكة وإنس وجن لذلك جاء في القرآن الكريم على لسان الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة:32] وانظر إلى المؤكدات في هذه الآية (أنت العليم الحكيم) فالضمير المنفصل (أنت) تأكيد للمتصل (ك) وصيغة فعيل في (عليم وحكيم) تفارق (عالم وحاكم) فالعالم ومن علم على وجه عام ، والحاكم من بيده

[1]- الشوقيات: أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر القاهرة 2012م ،ص421.

الحكم (والعليم) من اختفى بالعلم على وجه الدّقة بحيث لا يجاريه في علمه غيره، ولا يصل إلى مرتبة علمه سواه، كما أنها تفيد أيضا القدرة على التعرف وتسيير المعلوم.

وكذلك حكيم أي الحاكم بتدبر وعناية بحيث لا يفلِت عن دائرة حكمه شيء ولا ينافسه فيه أحد؛ وقد نصّت الآية صراحة على اعتراف الملائكة بجهلهم الغيب الذي هو من صفات الله وحده ،وكذلك الجّن في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ:14].

إنّ الإخبار عن الغيب المتصّل بالمستقبل يأخذ أبعادا شتى واتجاهات عدّة، منها :

ما هو واضح الصفحة بادي الدّلالة جلّي المعنى نتوصل إلى فهمه وتقبله عقولنا ومنها ما هو عميق المعنى بعيد الغور تختلف الأفهام في الوصول إلى حقيقته، تتبدّى معانيه بحسب الملابسات والظروف الطارئة على البشرية واجتهادات ذوي العقول منهم على مرّ العصور، كما أنّ الأخبار الغيبية منها ما هو قريب الوقوع ومنها ما هو بعيد.

ومن أخبار الغيب القريبة:

الإخبار بهزيمة قريش يوم بدر قبل حدوثها، قال تعالى ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر:45] وكان المسلمون حينئذ في مكة قلّة مستضعفة يخافون أن يتخطّفهم الناس حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :"كنت لا أدري أي جمع سيهزم ؟" ثم جاءت وقعة بدر فهزم الكفار وولّو الدّبر.

وكذا الإخبار بأنّ أبا لهب عمّ الرسول صلى الله عليه وسلم سيموت كافرا وسيعذب، قال تعالى ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ ﴾ [المسد:01-03] ولقد أسلم كثير من المشركين من نظراء أبي لهب؛ فما الذي منع أبو لهب أن يسلم ولو نفاقا كما فعل كثير من المنافقين، ولو فعلها لأبطل بالكلية ما نزل فيه من قرآن ولوجد المشككون والكافرون السبيل واضحا للطعن في القرآن الكريم، ولكّن الله حال دونه ودون ذلك ليبقى القرآن صادقا معبّرا عن الحقيقة الأزلّية التي لا تدركها أفهام البشر ولا تحيد عنها.

وكذلك تحدى القرآن العرب وهم أهل فصاحة أن يأتوا بمثل القرآن، أو أن يأتوا بعشر سور،قال الله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾ [هود:13] ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، قال تعالى :﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ [يونس:38] ثم ختم ذلك التحدي بقوله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ ﴾ [الإسراء:88] ولم يسجل لنا التاريخ أن واحدا منهم أو جماعة ممّن هم أهل لسان وفصاحة حاولوا أن يفعلوا ذلك.

والسؤال الذي قد يتبادر إلى الأذهان، هل كان بإمكان فصحاء العرب أن يقلدوا أسلوب القرآن؟ وهل كان بإمكانهم أن يقلدوا أسلوب القرآن سواء في طريقة نظم ألفاظه أو في سبك معانيه؟. ممّا لا شك فيه أنّ القرآن بهرهم بنظم ألفاظه وسبك معانيه إلى الحد

الذّي جعلهم يقفون أمامه عاجزين غير قادرين، فهو يتحدث عن الأمور الغيبية التي لا قبل لهم بها كأخبار الماضي من الأمم والسابقين من الأنبياء، كما يتحدث عن أمور لم تقع بعد، ويبشر المتقين بالجنة التي وعد الله، والكفار المنافقين والجاحدين، يتوعدهم بالعذاب المقيم ويسترسل القرآن الكريم في أسلوبه العجيب المعجز، وفي معانيه السامية الرفيعة التي لا قبل لأفكار البشر بها ولكنهم إذا سمعوها لم يعدموا فهمها بالكلية؛ ولم تنغلق معانيها أمام أفهامهم إنغلاقا كليّا وإنما يأخذون قسطهم منها كلّ حسب قدراته واستعداداته هذا فيما يتصل بالمتشابه والغريب، ولكن لا أحد منهم يجرء على المساءلة والنقاش فيما انغلق فهمه وقصرت الهمم عن إدراكه، وأمّا المحكم الذي وضحت معانيه وظهرت مراميه فالكلّ في فهمه سواء إلاّ من كابر وجحد وكان إلى اللجاجة والخصام أميل، فانظر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:01] فقال صلى الله عليه وسلم: (لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا)[1].

وإجمالا لما سبق فإنه ليس غريبا أن يمزق القرءان حواجز الغيب، فهو منزل من عالم الغيب والشهادة، أو من علام الغيوب سبحانه وتعالى، فاخترق حاجز المكان وحاجز الزمان، بماضيه ومستقبله، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور غيبية أسهم المكان والزمان في حجبها وتغييبها، فالله تبارك وتعالى يملك زمام العالم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا

[1]- صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير (32) باب صلح الحديبية في الحديبية (24) حديث رقم 1786 ج08،ص 458 ورقم 3341 ج 09 ص 262.

يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الانعام:59]

وهذه الآية التي ذكر المفسرون بصددها بأن لها اتصال بالآية التي قبلها والتي ختمها الله تعالى بقوله: ((والله أعلم بالظالمين)) فالله يعلم خزائن الغيب ومفاتيحها، وبعلم كلّ دقيق وجليل.

ولكن معنى الحصر لا يتماشى والسياق القرآني ((لا يعلمها إلا هو)) فالأولى أن يوجه الاتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين، أعني قوله ((قل إني على بيّنة من ربي إلى قوله ..... والله أعلم بالظالمين)) حيث يدل المجموع على أنّ ما كانوا يقترحونه من الآية وما سيتبعه من الحكم الفصل والقضاء بينه وبينهم إنما هو عند الله لا سبيل إليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به، ولا يخطئ في حكمه الفصل وتعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم الغيب لا يشاركه فيه أحد، وعالم بكل ما جلّ ودقَّ لا يضل ولا ينسى، وعندما جاءت الآية (وعنده مفاتيح الغيب) كما يتبين به اختصاصه تعالى بعلم الغيب وشمول علمه كلّ شيء.

والمفاتيح جمع مفتح يفتح الميم وهو الخزينة، وربما قصد به مفرد مفتاح ويؤيده قراءة شاذة وعنده مفاتيح الغيب، ومراد المعنيين واحد فإن من عنده مفاتيح الخزائن هو عالم بما فيه قادر على التصرف فيها كيف شاء عادة كمن عنده نفس الخزائن، يؤيد هذا الكلام قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور:37] وقوله تعالى: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ [الانعام:50] وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:21]

وقوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المنافقون:07] والأقرب إذن أن يكون المعنى القريب لمفردة مفاتح الغيب هي خزائنه .

وصدر الآية وإن أخبر عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن آخر الآية لا يختص بعلم الغيب بل ينبئ عن شمول علمه تعالى بكل شيء وهذا أعمّ من أن يكون غيبا أو شهادة فإن كلّ رطب ويابس لا يختصّ بما يكون غيبا وهو ظاهر فالآية بمجموعها تبيّن شمول علمه تعالى لكل غيب وشهادة إلا أنّ ذيلها يخبر على أنّ علمه –جزئيات وكليات– أعمّ من الغيب والشهادة.

وقد تحدثت الآية السابقة عن الغيوب التي هي واقعة في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء وأقفال الإبهام، وقد ذكر تعالى في قوله ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:21] إن أسرار الغيب عند الباري أمور لا يحيط بها الحدود المشهودة في الأشياء ولا يحضرها الأقدار المعهودة، فالأمور الغيبية المخزونة لا تخضع للحكم والحد والقدر،لأن الإنسان لا يحيط علما إلا بما هو محدود ومقدور وأما التي في خزائن الغيب من الأشياء فهي قبل النزول في عالم الشهود"[1] ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:85] فالروح من الأمور الغيبية التي لا يدرك ماهيتها إلا الباري تعالى .

كذلك الأمور الواقعة في هذا الكون المشهود والحبيسة في سجن الزمان هي من قبل وقوعها وحدوثها موجودة عند الله ثابتة في خزائنه نوعا من الثبوت مبهما غير مقدر وإن لم

[1] – ابن طباطبا: الميزان ، بيروت، دار الأعلمي للمطبوعات (1392–1973) ، ج 07: ص 125.

نستطع أن نحيط بكيفية ثبوتها فمن الواقع في مفاتيح الغيب وخزائنه الأشياء قبل حدوثها واستقرارها في منزلها المقدر لها من منازل الزمان، ولعل أنّ ثمة أشياء مخزونة لا تتماشى وما عندنا من الأمور الزمانية المشهودة، ولنسم هذا النوع من الغيب غير الخارج إلى عرضة الشهود بالغيب المطلق.

وأما الأمور والأشياء التي تُلبس لباس التحقق والوجود ونزولها منزلة للجبر والقدر، والذي داخل لحدودها يعود بالحقيقة إلى ما في خزائن الغيب ويرجع إلى الغيب المطلق، وأما التي تخضع للجبر والقدر، فهي التي يتعلق بها علمنا ويقع عليه شهودنا، فعندما نعلم بها تصير من الشهود وعندما نجهلها تصير من علم الغيب، ومن الضروري أن نسميها عندما تصير مجهولة لنا غيبا نسبيا، لأن هذا الوصف الذي يطرأ عليها عندئذ وصف نسبي، يختلف بالنسب والإضافات،كما أن ما في الدار مثلا من الشهادة بالنسبة إلى من فيها، من قبيل الغيب بالنسبة على ما هو في خارجها، والتي عدها المولى عز وعلا بقوله: ((ويعلم ما في البر و البحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس)). من هذا الغيب النسبي فإنها جميعا أمور محدودة مقدرة لا تأبى بحسب طبعها أن يتعلق بها علمنا ولا أن يكون مشهودة لنا فهي من الغيب النسبي .

لقد ختمت الآية بقوله تعالى: ((في كتاب مبين)) فما هو هذا الكتاب المبين؟. هل هو هذه الأشياء من جهة شهادتها وغيبها؟. أم هي أمر هي الكون المشتمل على أعيان هذه الأشياء لا يغيب عنه شيء منها وإن غاب بعضها عن بعض؟. أم هو ما وراء هذا الكون مكتوبة فيه الأشياء نوعا من الكتابة مخزونة غائبة عن شهادة الشهداء من أهل هذا العالم، فيكون ما في الكتاب من الغيب المطلق؟.

إن نسبة الأشياء الواقعة في الكون، في الآية أهي واقعة بنفسها في الكتاب المبين كما تقع الخطوط بأنفسها في الكتب التي نملكها عادة أم هي واقعة بمعانيها فيه كما تقع الأفكار التي تكتبها في الصحف والرسائل، ثم تطابق الخارج مطابقة العلم لليقين وقوله تعالى:﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد:22]. يدل على أن نسبة هذا الكتاب إلى الحوادث الخارجية نسبة للكتاب الذي يكتب فيه برنامج العمل إلى العمل الخارجي ويقرب قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:61]. وما الكتاب المبين هو غير تلك الأمور الخارجية من الأشياء، فهو كالبرامج المكتوبة للأعمال التي تشمل على مشخصات الأعمال قبل وقوعها ثم تحفظ المشخصات المذكورة بعد الوقوع.

على أن هذه الموجودات والحوادث في عالمنا متغيرة متبدلة تحت القوانين الحركة العامة والآيات تدل على عدم جواز التغيير والفساد فيما يشتمل عليه هذا الكتاب كقوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد:39].

وأما الغيب المطلق الذي لا سبيل إلى معرفته والإطلاع عليه فإنما وصفه بأنه في خزائنه والمفاتح التي عنده لا يعلمها إلا هو بل وربما أشعرت أو دلت بعض الآيات على جواز إطلاع غيره على الكتاب دون الخزائن كقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة:79]

فما من شيء خلقه الله تعالى إلا والكتاب المبين يحصيه قبل وجوده وعنده وبعده غير أن الكتاب أقل درجة من الخزائن التي تشتمل على الأشياء قبل خضوعها للقدر، وهي تشتمل على غيب كل شيء على حد ما يدل عليه قوله تعالى:﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:21].

وأما المراد بالكتاب المبين فنسبته إلى الأشياء كنسبة برنامج العمل إلى العمل ذاته ففيه نوع تعيين وتقدير للأشياء إلا أنه موجود قبل الأشياء ومعها وبعدها،وهو المشتمل على علمه تعالى بالأشياء وتحققها بالخارج والذي لا سبيل للتغيير فيه. وهذا الكتاب يحصي جميع ما وقع في عالم الصنع والإيجاد مما كان ويكون وما هو كائن من غير أن يشذ عنه شاذ إلا أنه مع ذلك إنما يشتمل على الأشياء من حيث تقديرها وتحديدها، وراء ذلك ألواح وكتب تقبل التغيير والتبديل، وتحتمل المحو والإثبات كما في قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فإن المحو والإثبات أن يكونان في الكتاب.

إن مفاتيح الغيب هي من قبيل العلم وهي الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها وتقدرها بالأقدار ومفاتح الغيب هو علم بالأشياء وهي غير موجودة ولا تقدر بأقدارها الكونية أي علم غير متناه[1].

ومنهم من اعتقد أن الغيب هو الوحي فلا يظهر الله على غيبه أحد، والمراد فلا يكشف الله على وحيه أحد إلا من اختاره من نبي، ومن ثم فإن الغيب هنا يعني الوحي أي الرسالات الربانية التي يجب على الأنبياء إبلاغها وفي هذا قال تعالى:﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا

[1]. إبن طباطبا، الميزان، بيروت، دار الأعلمي للمطبوعات (1392- 1973) ج 07 ص 128 .

يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن:26-28].

فالإنسان يعلم الغيب من خلال أخبار الأنبياء وذلك عن طريق الوحي قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود:49] والدليل على عدم العلم قبل الوحي قوله تعالى ((ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا)). فالعلم حصل بعد الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم.

وقد يرى الكثير أن هناك مخلوقات تعلم الغيب أي المجهول فبين الله أن تلك المخلوقات لا تعلم الغيب (العلم) كما قي قول تعالى عندما أمات سليمان مثلا ولم يعلم الجن أنه قد مات حتى أكلت الأرضة عصا سليمان عليه السلام فسقط على الأرض عندها أدركت الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب (وهو المجهول) ما ظلوا في العذاب المهين طول فترة بقاء سليمان عليه السلام على الكرسي دون سقوط، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ:14].

والغيب من حيث الزمان والمكان في القرءان الكريم من ثلاثة وجوه : وجه حال الحاضر، ووجه الزمن الماضي ، ووجه الزمن المستقبل.

أما وجه حال الحاضر أو الغيب الحاضر هو ما اتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك ، مما لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى رؤيته ولا العلم به ،

فضلا على أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح الذي أيده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام.

ومن وجه حال الحاضر ما فضح الله به المنافقين في عصر محمد صلى الله عليه وسلم مما كان قائما بهم وخفي أمره كقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ ﴾ [البقرة:204-205]

وكقوله في مسجد ضرار الذي بناه المنافقون : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ ﴾ [التوبة:107-110]

ووجه الزمن الماضي أو الغيب الماضي ، يحجبه عدم الإطلاع والسماع كقوله تعالى : ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩ ﴾ [هود:49]

ومن أمثلة هذا الغيب القصص الرائعة التي لم يشهدها رسول صلى الله عليه وسلم زمان وقوعها ولم يكن له صلى الله عليه وسلم سبيل للعلم بها بأي وجه من الوجوه.

ونذكر منها قصة ابني آدم عليه السلام إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ...وكيف سولت لقابيل نفسه قتل أخيه هابيل.

وكذا قصة نوح عليه السلام و وقوع الطوفان وكيف نجاه الله ومن آمن معه.

وقصة هود عليه السلام وقومه عاد وما حدث معهم .

وقصة صالح عليه السلام وقومه ثمود وقتلهم الناقة التي أكرمهم الله بها وكيف أنتقم منهم.

وقصة إبراهيم عليه السلام وما كان معه من أحداث كبناء الكعبة المشرفة ونحوها.

وقصة إسماعيل عليه السلام وتسليمه لأمر الله.

وقصة لوط عليه السلام وقومه وفراره إلى الله تعالى.

وقصة أيوب عليه السلام وما حدث معه من ابتلاء وكيف عافاه الله منه.

وقصة موسى وهارون وعيسى عليهم السلام وغيرهم.

إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يحضر هذه الحوادث، والله عز وجل هو من أخبره بها وبتفاصيلها.

ووجه الزمن المستقبل، حيث تحدث القرءان عن المستقبل بتمزيق حاجبه وكان ذلك على مراحل:

مرحلة المعاصرة، التي مزق فيها القرءان حاجب المستقبل لثبات أصحاب الرسالة والمؤمنين على طريقهم، ومعرفة غيرهم أنه الحق الذي جاءت به الرسل والأنبياء.

مرحلة المستقبل البعيد ، لكي يعرف كل عصر سيأتي أن كتاب الله حق .

ومن نماذج أنباء القرءان بالمستقبل:

- هزيمة الفرس وانتصار الروم:

فقد أخبر القرءان النبي محمد صلى الله عليه وسلم بهزيمة الفرس أمام الروم حتى يزيل الحزن عن قلوب المؤمنين بسبب الهزيمة النكراء التي تلقها الرومان المسيحية من دولة الفرس الوثنية، فنزل القرءان يَعدُ المؤمنين بانتصار الروم بعد سنوات بالرغم من الحالة المزرية التي آلت إليها دولة أهل الكتاب بسبب الحروب والغزو الذي شهدته في عقر دارها فكانت شماتة المشركين الوثنيين قاسية على المسلمين، حيث سخروا منهم فقالوا إن الروم يشهدون أنهم أهل الكتاب وقد غلبهم المجوس فكيف لكم أن تغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فنزلت الآية الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هذه الهزيمة يعقبها انتصار قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم:01-04]

- إنباء القرآن بأن الله يتكفل بحماية نبيه صلى الله عليه وسلم .

أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٦٧﴾ [المائدة:67]

لقد تحققت هذه النبوة ولم يتمكن أحد من المشركين أن يقتله عليه الصلاة والسلام بالرغم من كثرة ووفرة تعدادهم فبعد نزول هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من حراسه الانصراف عنه فقال: (أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ) [1]

[1]- محمد أبو عيسى الترمذي، سنن الترمذي (ت279هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط2، 1395 هـ - 1975 م ، ج 5 ص 251 رقم 3046.

- عجز الناس عن الإتيان بمثل هذا القرءان:

تحدى القرءان العرب بفصاحتهم وبلاغتهم أن يأتوا بمثله، أو أن يأتوا بعشر سور من سوره، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، وفي معرض هذا التحدي قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة:24] وقوله : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الاسراء:88].

- إنباء عن فتح مكة :

وقد وعد الله تعالى المؤمنين بدخول المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون فقال تبارك وتعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[الفتح:27] وقد كان لصلح الحديبية الأثر الكبير في نفوس المسلمين، فنبذوا شروط الصلح القاسي الذي منعهم أداء مناسكهم فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح:01]

- النبوءة بانتصار المسلمين على المشركين يوم بدر:

قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر:45] ولقد نزلت هذه الأية والمسلمون في مكة وهم قلة يتربص بهم المشركون،حتى قال عمر بن الخطاب: (كنت

لا أدري أي جمع سيهزم؟)[1] ثم جاءت موقعة بدر بالهزيمة وولوا الأدبار منهزمين، وصدق الله وعده.

- النبوءة بالمستقبل الأسود للمشركين:

عندما تمرد المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بالجوع والقحط حتى يتوبوا ويؤمنوا بالله ورسوله فأجابهم الله بهذه الآيات، قال سبحانه: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾ [الدخان:10-16]

والبطشة الكبرى[2] هو يوم بدر، لقد حقق ذلك كله فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وعطشه.

- النبوءة بمقتل الوليد بن المغيرة المخزومي:

يقول الله تعالى في حق الوليد بن المغيرة المخزومي: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ

[1] - ينظر: السيوطي : الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور، دار المعرفة، بيروت ، لبنان، (1406-1985) ط/1، ج 09 ص 346.

[2] - ينظرر: الطبري،جامع البيان عن تأويل القرآن . تفسير الطبري . ، تحقيق أحمد شاكر مؤسسة الرسالة، (1420 هـ - 2000 م) ط/ 1، ج22 ص 14.

ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم:10-16]

فقد كان المشرك العدو اللذوذ للإسلام يتمادى في غيه وعناده، فأتى يوم بدر لمحاربة المسلمين فأصيب بضربة سيف على أنفه فأردته قتيلا، وهو الذي نزلت فيه هذه الآيات.

- الإخبار بموت أبناء النبي صلى الله عليه وسلم :

أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الاحزاب:40] وقد تحقق هذا النبأ الغيبي فقد رزق النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم والطاهر والقاسم وماتوا جمعا قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال.

- الإخبار بموت أبي لهب وزوجته كافرين:

لقد أخبر القرءان الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بموت عمه كافرا، فبالرغم من إسلام الكثير من المشركين الذين حاربوا الإسلام والمسلمين كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم إلاّ أبى لهب فإنه أبى أن يسلم هو وزوجته ولو نفاقا، فجاء قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد:01-05]

- إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بمن يتربص به من الكفار والمشركين:

بعد أن وصف الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم بأنه شاعر وغيرها من الصفات النابية التي لا تليق بمقام النبوة، إنتقل الكفار إلى نوع آخر من الإذاية، إذ اجتمع رؤوسهم

بدار الندوة مجمعين أمرهم على التربص بالنبي صلى عليه وسلم وقتله، فقال أحدهم : (إحبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله ثم انتظروا موته) فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ ﴾ [الطور:30-31] ثم جاء يوم بدر فنزل العذاب بالسيف على هؤلاء المتربصين وحفظ الله نبيه صلى الله عليه وسلم.

- إخبار القرءان بكذب وعود المنافقين لليهود:

وعد المنافقون بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول يهود بني قريضة والنضير أن ينصروهم ويخرجون معهم إن أخرجوا ، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢ ﴾ [الحشر:11-12]

وفي هذا الإخبار دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب، حيث قاتل النبي صلى الله عليه وسلم يهود بني قريضة وبني النضير وأخرجهم، وجاء الدليل على صحة الإخبار بخذلان المنافقين لهم، ويكشف علم الحديث أنباء الغيب وهو نوع طريف كان مخبوءا في الزمن، وحول أعداء الأمة هذا الحق إلى شبهة ولفقوا تهمة إلى دين الله فهم من قال فيهم الله عز وجل: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩ ﴾ [يونس:39]

ومن أنباء الغيب التي كشف عنها العلم في العصر الحديث، قوله عز وجل : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة:30].

لقد ردت اليهود على القرءان أنه يقوِّلُنا ما لا نقول في كتبنا ولا في عقائدنا، لكن التاريخ الحديث كشف اسم عزير لم يكن معروفا عند بني إسرائيل إلى بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها واتصالهم بمعتقداتهم الشائعة، واسم عزير هو أوزيرس أو أوزر كما ينطق به القدماء المصريين، وكانوا يعتقدون في عوزر أنه ابن الله حتى صار اليهود يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه كفرا وضلالا، لقد كشف العلم الحديث هذه الدسيسة التي حاول أعداء الأمة الإسلامية أن يشوهوا من حقيقة القرءان.

كما كشف العلم الحديث عن فوائد الصيام الذي توهم البعض من الناس المضرة في هذا الفعل (الصيام) فجاءت الحقيقة وكذبت هذا التوهم حيث كشفت أبحاث طبية عن فوائد الصيام ومن بينها:

تطهير الأمعاء ، إلتهاب الكلى ، أمراض القلب ، إلتهاب المفاصل ..إلخ.

كما كشفت العلوم الفيزيائية[1] عن ظاهرة طبيعية تكلم عنها القرءان ، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانشقاق:16-19] لقد أفادت الأبحاث الفيزيائية الضوئية أن للضوء إذا لاقى جسما ما ترتبت عنه الأحوال التالية:

[1] ينظر : القاقلي،كشوف جديدة في إعجاز القرءان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر (1427-2006)، ط1، ص:30

أولا: إذا كان الجسم شفافا ذا شكل معين كالموشور فإن الضوء يجتاز الجدسم بعد أن ينكسر عن خط سيره الأصلي بزاوية معينة[1] ومن المعلوم أن الضوء أبيض كضوء الشمس ليس ضوء واحدا، بل هو مركب من عدة ألوان مندمجة معا، فعندما يقع على جسم شفاف كالموشور فإن ظاهرة الانكسار تجعله يتحلل إلى ألوانه الأصلية، أدناها الأحمر وأعلاها البنفسجى، وهو ما يحدث تمام لضوء الشمس حين يلاقي قطرات الماء التي في الغيوم فيتحلل إلى ألوان قوس قزح المعروف وهو ما يسمى بالطريق الشمسي.

ثانيا : إذا لم يكن الجسم شفافا وكان عاتما فهو إما يمتص الضوء بكامل ألوانه عندما يكون الجسم أسود ، وإما أن يعكس الضوء بكامل ألوانه عندما يكون الجسم أبيض، وإما يعكس بعض الألوان ويمتص البعض الأخر فيظهر لنا باللون الذي يعكسه، أي أن الظواهر الضوئية ثلاث: انكسار ومعه تحلل ، وامتصاص ، وانعكاس.

والآيات القرءانية الكريمة تشير إشارات واضحة إلى هذه الظواهر الثلاث،وبهذا الترتيب:

أ- انكسار الضوء وتحلله (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) إن الشفق الأحمر اللون هو حادثة ضوئية ناتجة عن انكسار أشعة الشمس بعد الغروب بسبب تعرضها إلى طبق الهواء الشفافة ، فيتحلل ضوء الشمس إلى ألوانه المتعددة ، فيكون الضوء الأحمر أقلها انكسارا، لذلك يكون أقرب إلى الأرض من الألوان الأخرى التي تنكسر مبتعدة كثيرا عن الأرض فلا نراها بينما نرى اللون الأحمر وهو الشفق ، فالآية تشير إلى انكسار الضوء وتحلله.

ب- امتصاص الضوء (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ):

[1]. ينظر : القاقلي،كشوف جديدة في إعجاز القرءان، ص،31

فالليل أسود لأن الألوان جميعا تنعدم فيه لغياب أشعة الشمس ، واللون الأسود إشارة واضحة إلى امتصاص الألوان.

ج ـ انعكاس الضوء (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ):

إن الشمس منبع ضوئي مولد للضوء ، بذاته، أما القمر فلا يولد الضوء ، وإنما يتلقى الضوء من الشمس فيعكسه إلى الأرض ، وخاصة عندما يكون بدرا (إذا اتسق) وهذه إشارة واضحة إلى ظاهرة الانعكاس الضوئي.

إن إشارة القرءان الكريم واضحة إلى الظواهر الفيزيائية الضوئية التي لم تكتشف إلاَّ في العصور الأخيرة.

يرى علماء الاجتماع وعلى رأسهم مالك بن نبي[1] أن من بين مظاهر الانحطاط في المجتمع طغيان عالم الأشخاص وعالم الأشياء على الصعيد النفسي والأخلاقي والفكري وأن يقيم الفرد في ضوء الأشياء التي يملكها ويقيم الكتاب مثلا بعدد الصفحات، كما يعاني من طغيان الأشخاص وفي ذلك خطر كبير إذ أن أخطاء الشخص الذي يتجسد فيه المثل الأعلى يحسب على المجتمع الذي جعل منه المثل الأعلى والقدوة، وأن جميع انحرافاته تقع نتائجها على هذا المجتمع .

ويرى مالك بن نبي أن استبدال لمشكلة الأفكار يشكله الأشخاص قد يلحق ضررا كبيرا بالفكرة الدينية الإسلامية عندما تجسدت في أشخاص لم يكونوا أهلا لحلها، ولذلك

[1] – ينظر : نورة خالد السعد ،التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي،دار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة السعودية (1418-1997) ط/1، ص90.

يقول مالك بن نبي : (نجد القرءان الكريم يحذر المسلمين من خطر هذا التجسيد عندما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران :144] وكان المقصود بذلك بيان خطورة تجسيد الأفكار في شخص معين إذ في غياب الفكرة يظهر الوثن أو الصنم ، وقد حققت مقاومة الفكر بالوثن أو الصنم نجاحا باهرا في الخدع السياسي التي مارسها في بلادنا مستغلا الأشخاص مفكرين أنفسهم وفي حال طغيان مقياس الأشياء على مقياس الأفكار في المجتمع فإن هذا مؤشر للتخلف والانحطاط)[1].

الإعجاز البلاغي

القرآن الكريم معجزة جليلة تخاطب العقول بالبرهان المقنع، وتبهر القلوب بالأدب الممتع، وتدعو ركب الحيارى إلى حظيرة الهُدى بالحكمة والموعظة الحسنة والبلاغة المعجزة، يقول الله لنبيه الكريم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء:63].

فما أجمل أن يجعل الله البلاغة معجزة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن قومه كانوا على جانب كبير من البيان والفصاحة والبلاغة يعقدون للقول المجامع، ويقيمون له الأسواق، وقد

[1]. مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة الدكتور بسام بركة، دار الفكر، دمشق، (1409-1988) ط/1، ص 105.

دلت أشعارهم وخطبهم على براعتهم في ذلك، فلما استمعوا إلى القرآن الكريم سُحروا به لعذوبة لفظه وبديع نسجه، وإحكام اسلوبه، وأيقنوا أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام، قال سادتهم: إن هذا إلا سحر يؤثر – وأساطير الأولين، ونهوا قومهم عن الاستماع إليه فقالوا لهم ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:26]، وقالوا﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الانفال:31]، تحداهم بألوان التحدي أن يأتوا بمثله، وقد سلك معهم في هذا التحدي طريق الإعجاز الذي لا مناص منه[1].

أما وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم فيرى عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) أن الإعجاز في القرآن كائن في نظمه وتأليفه، وليس النظم عنده ضم الشيء إلى الشيء، وإنما أن يراعى فيه ترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعاني، ويُعد الجرجاني الألفاظ خدماً للمعاني، فمتى ما ترتبت المعاني في الذهن جاءت الألفاظ لتعبر عن هذه المعاني دون عناء، وإجهاد فكر، فيقول الجرجاني في ذلك :"((وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها))"[2].

ويقول أبو سليمان محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي (ت388هـ) : "(وأعلم أن القرآن إنما صار معجزاً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن

[1] – ينظر: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة:، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط04، ص:17.

[2] – ينظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني – دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2015م ، ص 36.

نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني)، واعتبر المعنى ركناً في الإعجاز، وكذلك اللفظ والنظم"[1].

ويبين أبو زهرة في كتابه المعجزة الكبرى الذي عدّه مقدمة لتفسيره وجوه الإعجاز البلاغي بقوله : "((نرى إعجاز القرآن من نواحٍ شتى، ربما تعز على الاستقراء، ففي موسيقاه لا يسع سامعه إلا أن يصغي بقلبه، وقد رأيت كيف كان العرب يتفقون على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه ثم يذهب إليه المتفقون فرادى فيلتقون جماعة، وقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع، حتى من لا يفهم العربية، فإن لكلماته ونظمه ومده وغنه، ونهاية فواصله ووقفه– ما يسترعي من لا يفهم العربية، وإذا كان لا يفهم معنى الكلمات فإن النغم يعطيه صوراً رائعة... ثم يقول : وإنه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتي بكل وجوه الإعجاز البياني ولكنه يقارب ولا يباعد) "[2].

وإن القارئ لتفسير زهرة التفاسير يلاحظ اهتمام محمد أبي زهرة الشديد ببيان الإشارات البيانية والمباحث البلاغية واللغوية عند تفسيره للآيات القرآنية لإظهار بلاغة التعبير القرآني وإعجازه، فنجده يهتم بترتيب الآيات وتحليلها، وبيان أسباب مجيئها على صورتها والاستدلال بذلك على إعجازها، ومن شواهد ذلك قوله في تفسير قوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:01-02] : "في تنسيق هذه الآيات كلمات طيبة محققة مفادها: (أن قوله تعالى : (الٓمٓ) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و(ذلك الكتاب) جملة ثانية، و(لا ريب فيه)

[1] – ينظر: عبد الفتاح لاشين، بلاغة القرآن في أثار القاضي عبد الجبار،دار الفكر العربي، مطبعة دار القرآن، القاهرة، مصر، ص: 448، 451.

[2] – ينظر : أبو زهرة المعجزة الكبرى ص: 72.

جملة ثالثة، و(هدى للمتقين) رابعة، وقد أصاب بترتيبها من البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث هي متناسبة هكذا من غير حرف نسق (أي عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذة بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلُم جراً إلى الثالثة والرابعة"، ثم يبين أبو زهرة هذه بلاغة هذا الترتيب قائلاً : "لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق.

ونظمت هذا التنظيم السَّري (الشريف)، من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفي الثانية، ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة، الحذف ووضع المصدر الذي هو موضع الوصف الذي هو هادٍ، وإيراده منكراً، والإيجاز في ذكر المتقين، زادنا الله إطلاعاً على أسرار كلامه، وتبيناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه"[1].

ويدرس أبو زهرة قضية التركيب القرآني، ويبرزه بلاغياً، وهذه المسألة مهمة جداً، لأن صحة التركيب القرآني إثبات كماله، إنما يقوم دليلاً على الإعجاز، الذي يهتم أبو زهرة بإثباته وإظهاره قوياً في تفسيره، ففي قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ....﴾[البقرة:177]،

قال : "وهنا يسأل سائل، إن الجمل السابقة متعاطفة فقوله : (وآتى المال على حبه) عطف عليها (وأقام الصلاة وآتى الزكاة)، فلماذا كان عند الكلام على الوفاء والصبر عبر بالوصف دون الفعل؟ والجواب عن ذلك فيما يظهر لي –والحقيقة عند منزل القرآن فعنده

[1] – ينظر :أبو زهرة :زهرة التفاسير، دار الفكر العربي القاهرة 1394هـ /1974م، ج:01 ،ص:102.

سر البيان الذي لا تسمو إلى إدراكه– وهو أن إعطاء المال وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة أفعال مطلوبة في ذات، وهي تتجدد أناً بعد آن وإن كانت واجبة على الدوام، أما الوفاء فالفضيلة فيه أن يكون صفة دائمة لا أن يكون فعلاً ثم ينقطع، بل يكون حلية يتحلى بها المكلف، وكذلك الصد المطلوب فيه أن يكون ضمنه مستمرة تظهر في كل أعماله من عبادات ومعاملات وأعمال"[1] ،

وبيّن أبو زهرة الأسرار البلاغية في قوله تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[البقرة:246]، إذ يقول : ((خلاصة المعنى : لقد عرفت هذه القصة بالخبر القرآني اليقيني معرفة واضحة جلية بيّنة كأنها في تعينها ووضوحها معرفة بطريق الرؤية البصرية والنظر، وهذا على أن رأى بمعنى أبصر، وإن كانت بمعنى علم فالمعنى : تأمل وانظر بعين بصيرتك وأدرس حال تلك النفس الطاغية التي تحمل الناس على الظلمات بطغيانها وإذا تأملتها علمت أيها المكلف أو أيها القارئ إلى أي مدى يصل الطغيان من الظلمات والضلالات))"[2].

ويهتم أبو زهرة كثيراً بالحديث عن مواقع الكلمات وأسباب مجيئها في القرآن في شكل معين، لأن النسق القرآني بهذا الشكل معجز، فلابد من حكمة وراء هذا التناسق ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالاً أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:239]، قال : ((في الآية الكريمة بعض إشارات لفظية

[1] – ينظر:أبو زهرة: زهرة التفاسير ج:01 ،ص:528.

[2] – ينظر: المصدر نفسه ج: 02 ، ص:956.

نذكرها : ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال في حال الخوف : (فإن خفتم) معبراً سبحانه بأن الدالة على التعليق في موضع الشك أو القلة، وفي حال الأمن قال : (فإذا أمنتم) معبراً بإذا الدالة على التحقيق والكثرة، وفي ذلك إشارة إلى أن حال الأمن هي الكثرة، وهي الأمر المحقق الثابت، وإن حال الخوف هي القلة وهي ليست أمراً مؤكداً ثابتاً، وفي ذلك بيان لنعم الله على الإنسان أنه وهبه الأمن والدعة والاطمئنان وما يكون من اضطراب وجزع وقلق فمن فعل الإنسان))"[1] ،

وفي تفسير الآيتين الكريمتين : ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾[البقرة:12-13]، قال في آخر هذه الآية (لا يعلمون) وفيما قبلها (لا يشعرون) : (نجد أنهم عند قصرهم في النص القرآني على الفساد، قال: (ولكن لا يشعرون)، لأن الفساد والصلاح حسيان، فناسبهما أن يكون عنهم شعور حسي، أما حكم السفه فأمر فكري فناسبه نفي العلم لا نفي الحس)"[2].

ويعقد أبو زهرة مقارنة بين الكلام البليغ، الذي صدر عن البلغاء من العرب وبين ما جاء في القرآن الكريم حتى يظهر تفوقه وإعجازه، ومن شواهد ذلك ما ذكره من الموازنة بين المثل السائر : (القتل أنفى للقتل)

[1] – ينظر: أبو زهرة : زهرة التفاسير ج:02 ص:845.

[2] – ينظر : المصدر نفسه ج01 ص:133،.

وكلمة الله السامية : ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾[البقرة:179]، بأنها اشتملت على إيجاز القصر"[1] البليغ إلى ما لا يصل إلا كلام رب العالمين، ولقدكان هناك مثل سائر في العرب ، يقولون إنه أبلغ الكلام في إيجازه، وأعمقه في ادائه، وهو قولهم : ((القتل أنفى للقتل))، وعقد بعض العلماء موازنة بينها وبين تلك الجملة السامية، وقد استنكر ابن الأثير الجزري (ت 632هـ) هذه الموازنة، لأنه لا يوزن كلام الله تعالى بكلام أحد من الناس.

وإن هذه الموازنة انتهت بأنه لا يمكن المماثلة بين كلام العرب وكلام الله تعالى، وأنه بالنظرة العابرة نرى كلام الله تعالى في مكانة وكلام العرب في دركه، فنجد أولاً التكرار في لفظ ((القتل أنفى للقتل)) ولا تكرار في قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) ونجد أن الآية تدل على القصاص العادل، والمثل لا يدل على القتل العادل، بل يدل على مجرد القتل، ونجد أن القصاص يشمل القتل وقطع الأطراف، بينما كلمة العرب لا تدل إلا على القتل فقط، ونجد أن لفظ العرب لا يدل على حياة الجماعة، بينما النص القرآني السامي لا يدل فقط على نفي القتل بل يدل على قيام الحياة الكريمة من هذا القصاص العادل، وأن المقابلة بين القصاص والحياة الكريمة تبين منزلة العدالة في القصاص"[2].

ولذلك فقد شكل النص القرآني قيمة جمالية عند المتلقين منذ بداية نزوله، خاصة وأنه تحدى البشر في أن يأتوا بمثله، وقد جاء هذا النص حاملاً لأبعاد دينية عقائدية، وفي الوقت ذاته حاملاً قيمة جمالية لغوية تؤكد الإعجاز فاجأت العرب؛ لأنها من جنس لغاتهم، وفي

[1] – إيجاز القصر : أحد قسمي الإيجاز وهما : إيجاز الحذف، وإيجاز القصر الذي هو ما كان لفظه قصيراً يسيراً ومعناه كثيراً دون حذف، ينظر الإيضاح 105؛ معجم البلاغة العربية 556.

[2] – ينظر:أبو زهرة، زهرة التفاسير ج:01ص:539.

الوقت ذاته اخترقت هذه اللغة بنمط جديد يحقق الإعجاز، وقد كانت هذه المفارقة حافزاً قوياً لأن يقترب من هذا النص المخاطبون به حتى يمكن لهم الوقوف على حقيقته الإعجازية الجمالية.

إن النص القرآني حمل جوامع الكلم فافتن الناس به نصاً تحداهم وانتصر عليهم عقيدة وتركيباً تجاوز تلك الحدود الجمالية التي رسموها للنص الفصيح البليغ، حتى أصبح من الصعوبة الفصل بين المستوى العقائدي والمستوى اللغوي للنص القرآني، بل لقد تشاكل المستويان لتحقيق الإعجاز عبر مزاوجة الإسلام واللغة، فأنتج كتابة جديدة لم يكن للعرب عهد بها، وفي الوقت ذاته، تنتمي إلى لغة اعتقدوا أنهم وصلوا فيها إلى القمة والرفعة والعلو. ومن هنا كان طرحهم للسؤال المهم أين تكمن مزية الإعجاز في النص القرآني؟ فقدّمت قراءات متعددة للنص تعلل الظاهرة الإعجازية.

واهتم الدارسون العرب بالقرآن الكريم وبدراسته وبيان إعجازه ووضعوا لذلك دراسات ومؤلفات تكشف عن نظرتهم إلى الموضوع، والتي تصل إلى حدّ التباين لتفسير الإعجاز الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحدي والمعارضة، فجاءت هذه القراءات لتثمين النص القرآني، وهو نزوع نحو التغير والاستمرار وإعادة تشكيل الثابت. ومع ذلك كله، فقد نتساءل ألا يؤدي هذا في مقام لاحق إلى نظرة ثابتة معيارية للقرآن الكريم عند بعض الدارسين المحدثين؟ فالقرآن ثابت متغير، فهو كتاب ثابت عبر الزمان، ولا يختلف في ذلك اثنان، وهذا لا يعدم كونه يحمل خاصية التحول؛ لأنه يصلح لكل زمان ومكان، ولأنه يتصف بخاصية التأويل والتفسير وتعدد القراءة.

والنص الجيد هو ذلك الذي لا يرضى بأن يقرأ قراءة واحدة تزعم لنفسها أنها القراءة الوحيدة الممكنة، بل هو ذلك الوجود الذي يتحقق عبر قراءات متعددة قد تتباين وتتمايز، ومن هنا كان للثبات والتحول أهمية في قراءة النص القرآني عند الإعجازيين الذين حركتهم خلفية ذهنية طابقت الخلفية الذهنية الماثلة وراء الأثر، فأنتجوا أدوات إجرائية خاصة لفك استغلاق النص للوقوف على القيم الجمالية التي تحقق الإعجاز. والذي يهمنا هاهنا هو الوقوف على تلك الأدوات التي قُرِأ بها الإعجازيون النص القرآني الذي مثل في بداية ظهوره خروجاً عن المتعارف عليه، بل إنه كان في الكثير من مستوياته التركيبية والتوزيعية انزياحاً عن اللغة المألوفة. وقد قدم هؤلاء الإعجازيون مستويات حديثة لقراءة نص حديث معجز، فوقفوا عند ظواهر تركيبية نصية مختلفة، اهتموا ببنية الجملة داخل النص القرآني.

كما اهتموا بالبنيات الصغرى المكونة للنص، والتغير الذي يطرأ عليها من حذف أو تقديم أو فصل أو اضمار أو خروج. كما بحثوا في علاقة هذه التحولات بالمستويات السياقية التي تحكم النص، وذلك رغبة منهم في استجلاء غوامض النص القرآني، والكشف عن خصوصيته التي تنبع من خصوصية التعبير العربي، وقد اعتمدوا في ذلك على التقابل بين اللغة في استعمالها الإنساني واللغة في استعمالها المقدس المعجز.

لقد اعتمد الإعجازيون على مبدأ الاختيار والانتقاء من النص القرآني والوقوف عند عينات من الآيات الكريمة والتي شكلت لهم نموذجاً جمالياً راقياً، ومثالاً أعلى لمستويات البناء اللغوي، وفي الوقوف عليها كشف للقدرات التعبيرية لهذا البناء.

لقد كانت هذه القراءات فتحاً جديداً في مجال الدراسة العربية للنصوص؛ لأنها قدمت تصوراً عاماً للخصائص التعبيرية لدلالة اللفظ في مجالات الاستعمال المتعددة، والتي يمثل

القرآن الكريم أرقى هذه المستويات الاستعمالية. إن موضوع النقد والإعجاز يحتاج إلى الكثير من الجهد والتعب لكثرة مضامينه وتعددها وتنوعها، ولصعوبة اختيار النموذج الأصح للدراسة التي تلزم الحيطة والحذر من الوقوع في الخلط والغلط في القراءة والتأويل.

ثم إن لِهَؤلاء الإعجازيين باعاً طويلاً في الدرس العربي، وتكاد أسماؤهم تتكرر في أغلب حقول الدرس العربي، وقد ضمنوا دراساتهم هذه الكثير من معارفهم التي يصعب على الإنسان استخراج الآراء النقدية منها والتعليق عليها. إنها في الواقع تطرح مشكلة اختيار النموذج الجمالي في القراءة.

ومن الإعجاز القرآني ما اشتمل عليه من البلاغة والبيان، والتركيب المعجز، الذي تحدّى به الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الاسراء:88]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:33-34].

وبعد هذا التحدّي انقطعوا فلم يتقدّم أحد، فمدّ لهم في الحبل وتحدّاهم بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: 13]، فعجزوا فأرخى لهم في الحبل فقال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:38]، ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة، فقال

تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[البقرة:23-24].

فقوله تعالى:﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾؛ أي: فإن لم تفعلوا في الماضي، ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل، فثبت التحدّي وأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بسورة من مثله فيما يستقبل من الزمان، كما أخبر قبل ذلك، وأمر النبي وهو بمكة أن يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الاسراء:88].

فعم بأمره له أن يخبر جميع الخلق معجزاً لهم، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي لجميع الخلق، وقد سمعه كل من سمع القرآن، وعرفه الخاص والعام، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوا، ولا أتوا بسورة مثله من حين بُعِثَ – صلى الله عليه وسلم – إلى اليوم والأمر على ذلك"[1].

والقرآن يشتمل على آلاف المعجزات؛ لأنه مائة وأربع عشرة سورة، وقد وقع التحدي بسورة واحدة، وأقصر سورة في القرآن سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، والقرآن يزيد بالاتفاق على ستة آلاف ومائتي آية، ومقدار سورة الكوثر من آيات أو آية طويلة على ترتيب كلماتها له حكم السورة الواحدة، ويقع بذلك التحدي والإعجاز ؛ ولهذا كان القرآن

[1] – ينظر: القحطاني: العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، مطبعة سفير، الرياض ص:52.

الكريم يغني عن جميع المعجزات الحسّيّة والمعنوية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

لقد رافقت فكرة الإعجاز في القرآن الكريم نزول أول آية على المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي قوله تعالى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق:1-5]

لقد بينت هذه الآيات ثقل الوحي على المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو لم يكن يعرف قبلها القراءة ولا الكتابة ولا التعليم...لذلك تلقى هذه الأيات في وجل وخوف لشدة وقعها على سمعه وقلبه (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا فهو النبي المهيأ لتلقي الوحي من علاّم الغيوب وهي في حقيقتها غيب، بل هي كل الغيب لأنها تأمر بالإيمان بالله تبارك وتعالى والاستعانة به في سائر الأعمال فهو الذي خلق الإنسان وعلمه ما لم يعلم.

والوجوه المتعلقة بالإعجاز في القرءان الكريم منها ما يرجع إلى طبيعة الجملة العربية التي لم تخرج عن المعهود من كلام العرب، مع كونها في الذروة من الاعجاز حيث أصبح لها أسلوب خاص في النص القرءاني تتميز به عن نظيرتها في الكلام العربي الفصيح، وذلك أن الجملة القرآنية لها وقع خاص وطريقة معينة في النظم والسبك، فالكلمات في الأية يأخذ بعضها بطرف بعض لا انفصام بين أجزائها ولا تفاوت بين أطرافها، والكلام البليغ مهما علت درجته وتألقت همته بأسباب البيان فإنه لا محالة تعتريه الهفوات والسقطات وتطرأ عليه الهنات والغلطات، والقرءان منزه عن ذلك، متعال في جميع أطرافه لذلك قال تعالى:(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ومنها ما يتعلق بالمحتوى.

فالقرءان معجز في محتواه أيضا، بل إن إعجازه الموضوعي هو المعول عليه ،وذلك لأن الفصاحة والبلاغة ارتبطتا بزمن معين محدود بفترة العصر الجاهلي وصدر الإسلام تقريبا، وأما الإعجاز المتصل بالمضمون فباق على مر العصور واختلاف الأحوال ومن هذا النوع الإعجاز المتصل بما أخبر به القرآن الكريم من الأمور الغيبية، بل لقد جعل القرآن الكريم الإيمان بالغيب أساس الإيمان بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى : (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) فالإيمان كله مبدأه الإيمان بالغيب، بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خير وشره ...وعطف عليه بإقامة الصلاة، لأن الصلاة قائمة على أساس الغيب أي على التلفظ بما يدل على التوحيد والاعتقاد في الله بأنه الواحد الأحد الأكبر.

ولقد حصر الباقلاني الوجوه التي ثبت بها الإعجاز في ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه .

الوجه الثاني: ويتضمن الإخبار عن أحوال الأزمنة المتقدمة منذ آدم عليه السلام وابتداء خلقه ثم قصص الأنبياء من بعده وكبريات الأحداث التي وقعت لهم مع أقوامهم ولم يكن ذلك معروفا لدى العربي في الفترة التي نزل فيها القرآن الكريم، ولا كان محمد صلى الله عليه وسلم يقرأ ويكتب ويدرس قبل نزول الوحي عليه، لذلك قال الله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت:48]

الوجه الثالث :أنه بديع النظم عجيب التأليف ،متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلَمُ عجزُ الخلق عنه ... [1]

والملاحظ أن علماءنا القدماء الذين تحدثوا عن الإعجاز في القرءان الكريم لم يكونوا يريدون فقط الجانب البلاغي منه كما هو الحكم عليهم شائع عندنا اليوم وإن كان هذا الجانب البلاغي اللغوي هو الذي انسلكت فيه أغلب رسائلهم وآرائهم، ولكنهم في الراجح اتخذوا البلاغة عنوانا لسائر أوجه الإعجاز الأخرى سواء ما اتصل منها بالأمور الغيبية الماضية منها والآتية كأخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء، أو ما سيأتي من حساب وجزاء في الدار الآخرة أو ما اتصّل منها بالتشريعات وإقامة الحدود وتنظيم المجتمعات وغيرها ..... فالبحوث في مجال الإعجاز البلاغي اتخذت آفاقا واسعة لترسم معالم حضارة جديدة هي الحضارة العربية الإسلامية القائمة على قدسية النص القرآني واتخاذه عنوانا للنشاط الفكري العربي الإسلامي، لأن الفكر العربي قبل الإسلام كان يدور نشاطه في مجال محدود رسمته له جملة من العادات والتقاليد الجاهلية ولقد تمثل ذلك في أنماط من السلوك اليومي يتبع قوالب جاهزة لا يتعداها.

أما الفكر العربي في ظل الإسلام فقد أصبح فكرا خلاّقا باحثا مفكرا، له أسس يرتكز عليها وينطلق منها، أعلى هذه الأسس هي الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى وبمتطلبات هذا الإيمان.

[1] – ينظر الباقلاني: إعجاز القرآن، ت: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط 5، 1997م، ص33– 35.

ويكاد عبد القاهر الجرجاني[1] يقترب من هذه الحقائق التي عبّر عنها الباحثون في الإعجاز، يقول:"أعجزتهم مزايا ظهرت لهمّ في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه،وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل ومساق كلّ خبر وصورة كلّ عظة وتنبيه وإعلام ، وتذكير وترغيب وترهيب،ومع كلّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان .... بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما وإلتئاما واتفاقا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حكّ بيافوخه السماء – موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول ...)[2].

وإن كان ظاهر كلام الجرجاني يوحي بأنه يتحدث عن الإعجاز الذي أساسه النظم القرآني إلا أنه في حقسقة الأمر يشير إلى مضمون الآي القرآني كله وفي سائر أحواله وما يتعلق منه بالأمور الغيبية التي يجري تصويرها في القرآن الكريم تصويرا بلاغيا راقيا.

هذا ما استخلص عبد القاهر الجرجاني من تأملاته في القرآن الكريم.

فالبلاغة إنما هي وجه من الوجوه التي يحصل بها الإعجاز والأداة التي صيغت بها محتويات القرآن الكريم، سواء تعلقت تلك المحتويات بالأحكام والشرائع أو بالمواعظ والعبر أو بأخبار الآخرة ووصف مشاهدها من نعيم أو جحيم في كل ذلك إخبار عن غيوب ما كان الإنسان يدريها ولا يسمع عنها شيئا لولا هذا القرآن العظيم، من هنا فإنه يمكننا أن نقسم ما جاء في القرآن الكريم من كلام عن الغيوب إلى ثلاثة أقسام :

---

[1] – **عبد القاهر الجرجاني** (ت471 هـ = 1078 م) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة،كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان بين طبرسات وخراسان من كتبه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والجمل في النحو، وغيرها، أنظر الأعلام للزركلي ج 04 ص 48 .

[2] – الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت (1403-1982)ص 23.

1. قسم لا يعلمه إلا الله كقيام الساعة والبعث وكيفية الخلق والقضاء والقدر والحكمة من العبادات قولا وعملا وكذا الحكمة من تحديد أوقاتها، ومهما اجتهد العلماء في ذلك فإنهم ولاشك لا يعلمون إلا قليلا منها، لذلك قال ابن جني[1] وهو يتحدث عن علل الفقه"وليس كذلك حديث علل الفقه، وذلك إنها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام، ووجوه الحكمة فيها خفية عنّا غير بادية الصفحة لنا، ألا ترى أن ترتيب مناسك الحج وفرائض الطهور وغير ذلك إنما يرجع في وجوبه إلى ورود الأمر بعمله ... "[2]

2. وقسم من الغيوب قرّبه القرآن الكريم إلى أفهام العباد بأوصاف مشابهة لنظائره في الدنيا كأوصاف الجنة والنار والحساب والعقاب وأحوال المؤمنين ومهاوي المشركين، ولقد حاول علماء التفسير قديما وحديثا أن يقربوا هذه المعاني إلى أذهان الناس مستعينين بالصور البيانية التي صيغت بها تلك المعاني والمضامين، مثلما فعل الزمخشري قديما، والشعراوي وسيد قطب وبكري شيخ أمين حديثا،الذي يتوقف عنه قوله تعالى:﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾[الحجرات:12] فيقول:"إنّ من يغتاب الآخرين كمن يأتي إلى ميت خنزت روائحه،وامتلأ بالدود لحمه،وسالت منه الأقذار من كل ثغرة وفتحة في جسده، فاقتلع منه جانبا، وراح يقتطع

[1] – **ابن جني** (392 هـ = 1002 م) هو عثمان بن جني الموصلي، أبو الفتح: من أئمة الأدب والنحو، له شعر. ولد بالموصل وتوفي ببغداد، عن نحو 65 عاما.وكان أبوه مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي.من تصانيفه رسالة في من نسب إلى أمه من الشعراء وشرح ديوان المتنبي والمبهج في اشتقاق أسماء رجال الحماسة، والمحتسب في شواذ القراءات، وسر الصناعة الأول منه في اللغة، والخصائص وغيرها أنظر الأعلام للزركلي ج 04 ص 204.

[2] – ابن جني : الخصائص، تحقيق محمد علي النجـار دار الكتـاب العربي، بيروت، لبنـان (1385-1965م)، ج 01 ص 48.

من لحمه قطعا فينهشها ثم يعلكها وطبيعي أن حيوانا يأنف من هذه القاذورات، فكيف بالإنسان الذي كرّمه الله وأعلى مكانه، وما المغتاب إلاّ كناهش لحوم الموتى.."[1].

فانظر إلى بشاعة هذه الصورة، وكيف صوّرها القرآن الكريم تصويرا بليغا يوفى بالمعنى المقصود، وهو بشاعة فعل الفتنة وسوء عاقبة المغتاب، وقد جاءت في صيغة سؤال (أيحب أحدكم ....) لا ينتظر منه الجواب لأنه يفيد النفي مسبقا، وذلك كأن تقول للرجل: أترضى أن يهينك أحد أو يُذلك وأنت تعلم مسبقا أنه لا يرضى لنفسه الإهانة أو الذّل فما الفائدة من السؤال إذن ؟ الجواب عن ذلك : أن هذه الآية قد تقدمها نهي الله تعالى لعباده عن أن يسخر بعضهم من بعض، أو يلمز بعضهم بعضا بما لا يرضى من الألقاب، ومن يفعل ذلك فكأنما يأكل لحم أخيه ميّتا، وما دام المرء لا يستطيع أكل لحم أخيه ميّتا لما أجمع فيه من قذارة ونتن وغيرهما، فالأولى له أن يكّف عن الغيبة، ويتقي الله، فالجزاء الذّي يناله المغتاب غائب عنّا لا ندريه ولا نعرف كيف يكون يوم القيامة، فالوجه الحقيقي غائب عنا وغير بادي الصفحة لنا، ولكن الأية الكريمة نقلت لنا هذه الصورة الغيبية إلى صورة حسيّة قريبة من أذهاننا .

وأما القسم الثالث من الغيب: فيتعلق بأمور سبقت زمان الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخبر القرآن الكريم بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كما هو الشأن في قصص الأنبياء وأخبار الأمم السابقة، ومن ذلك أمور أخبر عنها القرآن الكريم ولم تحدث بعد، ولكنها حدثت فعلا، وبكل هذه الأقسام حصل التحدي والإعجاز في أسلوب بليغ لا يضاهى وطريقة من الرصف والسبك لا تقارن بغيرها من أساليب العرب يومئذ، فانظر إلى

[1] – بكري شيخ أمين ،التعبير الفني في القرءان، دار الشروق، بيروت، (1400-1980) ، ط/04، ص 293.

قوله تعالى:﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم:1-6] توالت هذه الآيات في نسق من التعبير عجيب في أسلوبه وبلاغته، تشابهت فواصلها بحيث يمتد معها النفس صاعدا صعود معانيها وتواصلها، ثم أنها احتوت على معان (عظيمة) لها علاقة بما كان يدور في تلك البيئة الجاهلية، ولقد كان المعاندون من المشركين، كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا عنادا وطغيانا، وأخذتهم العزة بالإثم، وتعالوا وتكبروا، وادعوا أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، ولكنهم في الحقيقة لم يستطيعوا ولو أنهم قدروا على ذلك ما قصروا ولما توانوا حتى أقيمت عليهم الحجة لذلك قالوا:﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:31] وهذا دليل على عجزهم (ولذلك أورده الله مورد تقريعهم، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز، والضمان إلى الوفاء، فلما لم يفعلوا ذلك مع استمرار التحدي وتطاول زمان الفسحة في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه علم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط)[1].

وآيات النجم السابقة جاءت في سياق من القسم بل السورة كلها ابتدئت بقسم مثل عدد من السور المكية والقسم عند العرب كثير الاستعمال في كلامهم، فقد كانوا يقسمون بالعمر والسيف والرمح والفرس وغير ذلك، واستعمالات القرآن الكريم للقسم متنوعة ومتعددة فقد أقسم الله تعالى في كتابه العظيم بذاته الجليلة وبأشياء كثيرة من مخلوقات،

[1] - الباقلاني : إعجاز القرءان، ص 43.

كالجبال والشمس والقمر والنجم والليل والنّهار وغيرها، كما أقسم مرة واحدة بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:72] ولفظ القسّم مأخوذ من القسامة وهي الجماعة يحلفون على الشيء ويأخدونه لذلك يقال: حكم القاضي بالقسامة أي بالأيمان[1].

ولعلّ حاجة العرب إلى تأكيد مخاطباتهم بعضهم بعضا هي التي دعت إلى إيجاد هذا النوع من الأساليب في كلامهم لأن القسّم يفيد التوكيد والاطمئنان، ومعناه ما تعلق بالهمّة وصدق العزيمة، والذي لا يصدق في قسمه ليس له عهد ولا ذمة ولا مروءة وفي آيات النجم السابقة أقسم الله تعالى بالنّجم حالة هويه على نفي الضلال والغواية عن رسوله الكريم، ثمّ عطف عليه بنفي الخطأ والهوى عنه في قوله الذّي هو الوحي المنزّل عليه وليس له فيه أيّ تصرف أو تبديل أو تغيير، وإنما ينطق به مثلما أوحى إليه به، والملاحظ أنّ المقسم به في هذه الآيات وهو (النجم)، ممّا يصيبه الزّوال والاضمحلال والفناء، وفي ذلك إشارة ضمنيّة إلى أنّ كلّ معبود غير الله زائل لا محالة، والمعبود الذي لا يزول ولا يحول ولا يؤثر فيه شيء هو الله تعالى الذي ليس كمثله شيء.

ولقد كانت الأقوام قديما تتّخذ معبودات كثيرة كلّها مخلوقة وليست خالقة، ومنهم العرب قبل الإسلام فقد كان منهم من يعبد بعض هذه الأشياء ومنها النجوم لذلك يبيّن الله تعالى في هذه السورة أنّ هذا المعبود (النجم) زائل لا محالة أمّا هذا الوحي الذي يأتي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فهو الحّق الذي نزّله الحقّ، ليحقّ به الحّق في الاعتقادات

[1] – المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، (د ت) ، ط 21 ص 629.

والعبادات والمعاملات كما جاء ذلك كلّه في القرآن الكريم وفصّلته السّنة النبويّة الشريفة، والمقسم به في الآية السابقة (النجم) يحتمل دلالات عدّة وعظات شتى منها:

1-أن الله تعالى أقسم بالنجم باعتباره آية كونيّة عظمى، وفي ذلك دعوة للإنسان إلى التدبّر والتفكير في خلق الله تعالى عموما ومن ذلك ما ورد واضحا مباشرا في الكثير من الآي من مثل قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:17-20] وقوله تعالى:﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:21]، وقوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾ [فصلت:51] فالقسم إذن في هذا الموضع وغيره يدعو إلى التأمل والتبصّر في هذه الأشياء المقسم بها والتي كان يراها الإنسان ولا يفكر فيها، وفي كيفياتها وحركاتها، ومنافعها أو مضارّها لأنه ألفها بمرور الزّمان، وها هو ذا القرآن الكريم يدعوه إلى تأملها تأمّلا واعيا يقوده إلى الإيمان بالخالق.

2- و إنّ القسم بالنجم هنا حالة كونه يهوي لدليل عند العاقل على أنّ الذي يستحق العبادة لا يعتريه الهوى و الزّوال، و ما دام هذا النّجم ممّن يعتريه الفناء، فلا يعقل أن يعبد، إذ كيف يزول المعبود و يخلق بعده من عبدوه بدون إله .

3- و هناك دلالات بعيدة يمكن استنباطها من خلال هذا السياق القرآني العجيب وهي أنّ ظهور الإسلام و نزول الوحي على محمّد صلى الله عليه وسلم تضاءل أمامه كلّ اعتقاد فاسد لقوله تعالى ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

[الاسراء:81] وفي كلّ ما سبق يثبت الإعجاز للقرآن الكريم في نظمه ومحتواه، وتستقيم له الحجّة ويتضّح الدليل أمام العاقل، فلقد أثبت القرآن الكريم الزّوال إلى كلّ إعتقاد فاسد غير مبني على التوحيد، والحق للقرآن الكريم، فالمعبود المقدّس الذي لا يزول هو الله تعالى، ثمّ إنّ هذا الإعجاز البلاغي ينتظم في القرآن كلّه من أوّله الي خاتمته في ألفاظه وتركيبه ومعانيه ومضامينه،فانظر إلى قوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾[الحج:5-7].

فانظر إلى هذا النسج العجيب، وهذا الوصف البديع، الذي يبهر العقول، ويحرّك الألباب، ويوقظ الضمائر إلى تأمل هذه المضامين الغيبيّة التي ورد الإخبار عنها في هذه الآيات،ونستطيع أن نميّز هنا المقارنة بين ظاهرتين إحداهما محسوسة ملموسة، والأخرى غيبيّة لا تدركها العقول ولا تتوصل إليها الأفهام ونحن أمام ظاهرتين معا عاجزين عن معرفة كيفية الحدوث والأسباب فكلاهما متصل اتصالا وثيقا بالغيب الذي هو بيد الله تعالى.

الإعجاز العلمي:

إضافة إلى الإعجاز البلاغي الذي نستخلصه من الايات السابقة ، فهناك اعجازعلمي وله صورتان:

1- الصورة الأولى: هي رؤية الإنسان الأرض هامدة جرداء عارية قاحلة لا نبات فيها ولا اخضرار، حتّى إذا نزل عليها المطر من السماء، أعشوشبت بعد جدب واخضرت بعد

يبس ، وانبتت من النباتات ما يعجب النّفوس ويدخل عليها البهجة والسّرور، كلّ ذلك يمثل صورة حسّية طالما ألفها الإنسان مدّة وجوده حيّا، والذي لم يعرفه ولم يحاول أن يتبصّره حتى وقت نزول هذه الآية وهذا هو الجانب الغيبي الذي لا يهتدي إليه العقل عن طريق تعاليم السماء (الدّين) أي أنّ الله تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء، لذلك أسند العقل إليه تعالى(أنزلنا)... إنّ هذه الصورة في جانبها الحسّي متصلة بالجانب الغيبي الذي نحن نجهله، فإذا تمّ الإخبار عنه من خلال الآية بأنّ الله هو الذي أنزل عليها الماء فنقلها من حالة اليبس والجدب إلى حالة الاخضرار والابتهاج، سهل على العقول إدراك حقيقة البعث من غير أن نراها وهذا ما عبّرت عنه الصورة الثانية.

2- الصورة الثانية: هي التي ترسمها الآيات من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾[الحج:6-7] في خمس جمل اسمية متتابعة مؤكدة كلّها بإنّ، والجمل الاسمية كما يرى علماء اللّغة أنّها حالة على ثبوت الصّفة للموصوف، أي اتصاف الله تعالى بالحقّ وبالقدرة على الإحياء، وتقدير ما يريد ومجيء الساعة وقدرة الله على بعث الخلق للحساب...

وقد صدرت هذه الجمل الخمس بـ(ذلك) وهو اسم إشارة إلى أنّ المذكور[1] من خلق الإنسان وإحياء النبات شاهد بأنّ الله هو الحقّ[2].

[1] - إشارة إلى الآيات التي سبقت وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [سورة الحج: الأية 05].

[2] - ينظر: حسنين مخلوف ، صفوة البيان لمعاني القرءان، دار الشروق ،ط:03 ،ص: 424.

حتّى إذا تأمّل الإنسان في هذه الأمور العجيبة قاده تأمله إلى الإيمان بأن وراء هذا النظام العجيب الذّي يتحّكم في سنن الكون وقوانينه خالق ومنظم هو الله تعالى الفرد الأحد الذي يسيّر الأمور ظاهرها وغائبها وفق مشيئته وقدرته، فإذا أدرك العقل الإنساني ذلك سهل عليه أن يدرك أيضا بأنّ الله تعالى قادر على إحياء الموتى ومحاسبتهم، إنّ الصورة الأولى المتمثلة في إحياء الأرض بعد موتها واخضرارها بعد يبسها وتنويع ثمارها وازدهارها بعد أن كانت قاحلة لشبيهة من وجوه بالصورة الثانية الغائبة عن حسّنا ومشاهدتنا وهي إحياء الموتى ومجيء البعث والحساب والملاحظ أنّ آية الخلق السابقة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ [الحج:05] فآية الخلق هذه عدّدت الأطوار التي تمرّ بها النطفة في الرّحم إلى أن تستوي بشرا ذكرا أو أنثى وتزرع فيه الروح، فهذه كلّها غائبة عن حسّنا ومشاهدتنا وتتم في نظام عجيب دقيق: وإن كان علم الطّب في مجال علم (الأجّنة) قد توصل في ضوء الدراسات الحديثة إلى نتائج عجيبة: إلا أن هذه النتائج مبنية على اكتشاف هذه الظاهرة أمّا كيفية حدوثها وأسباب مجيئها على هذا النحو أو ذاك فهو من علم الله: فلا يستطيع الإنسان أن يخلق، والملاحظ أن هذه الآية قد وردت في أسلوب شرط محذوف الجواب، وقد ذكر النحويّون أن حذف الأجوبة يقع في مواقع التفخيم والتعظيم ولعلم المخاطب بها[1].

[1] – ينظر: عبد الفتاح أحمد، التأويل النحوي في القرءان الكريم، ،مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، (1405-1984) ط/1، ج:01 ص633.

وهذا كثير في كلام العرب ولعلّه راجع إلى الإيجاز؛والإيجاز من البلاغة وكذلك ذكر الفراء أنّ العرب تحذف جواب الشرط إذا كان معلوما إرادة الإيجاز[1] والشائع عند النحويّين أيضا أن الأصل في جواب الشرط أن يكون مسببا عن الشرط[2]. أي أن الشرط سببا في الجواب، وهذا ما يقتضي في الآية الكريمة أن يكون ارتياب الناس من البعث سببا في أن الله خلقهم من تراب ثم ... ولا يستقيم فهم الآية على هذا النحو ؛ لذلك فإنّ جواب الشرط محذوف؛ وأما قوله تعالى (فإنّا خلقناكم ...) قائم مقام الجواب ودال عليه وكأنّ التقدير : يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث، فتأملوا خلقكم، فإنّ الله خلقكم من تراب ثمّ.. فإذا فكرتم في خلقكم، حيث لم تكونوا شيئا يذكر، ثم مررتم بمراحل دقيقة وفق نظام معيّن واتقان عجيب حتّى أصبحتم على ما أنتم عليه من القوة والقدرة لو فكرتم في هذا كلّه و غيره لسهل عليكم إدراك حقيقة البعث الغائبة عن حسّكم ومشاهدتكم؛ كما كنتم أنتم غائبين عن عالم الحسّ والمشاهدة؛ وحذف جواب الشرط في هذه الآية وفي غيرها ؛ أبلغ مقاما وأرفع دلالة من ذكره؛ وذلك لأنه لو ذكر الجواب لوقع الاكتفاء به؛ أمّا حذف وإقامة ما يدلّ عليه مقامه أتاح للكلام أن يطول بحيث ذكرت مراحل الخلق كلها.

فكان ذلك زيادة في العبرة وتقوية في الرّدع و قرع أسماع الجاحدين بكلام ما هم قادرون على ردّه أو إيجاد البديل المكافئ له، كما أنه تثبيت لقلوب المؤمنين وتقوية في إيمانهم بالخالق القدير، و هكذا فإنّ ظاهرة الغيب في القرآن الكريم تعمّق فكرة الإعجاز؛ ولقد

[1] – أبو زكريا يحيا الفراء، معاني القرءان، تحقيق عبد الفتاح شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (1405-1984) ج1 ، ص 649.

[2] – ينظر : عبد الفتاح أحمد، التأويل النحوي في القرءان الكريم ج:01 ص: 649.

درس علماؤنا القدماء الإعجاز في القرآن الكريم مقرونا بالجانب البلاغي، وإن كان الإعجاز يأخذ اتجاهات شتى ويتشعب بحيث يتناول أمورا كثيرة سواء تعلقت بالجانب اللّغوي أو الكوني أو العلمي وغير ذلك؛ إلا أنّ الجانب البلاغي هو النسق الذي صيغ فيه الإعجاز واللّون المهيمن على أسلوب القرآن كلّه؛ وانظر إلى قوله تعالى ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس :40].

لقد تطورت وسائل العلم الآن واتسعت مجالات التخصصات وتفرّعت؛ فكان منه علم الفلك، الذي يبحث في الظواهر الكونية ويسعى إلى تعليلها ومعرفة كيفية حدوثها وما زالت البحوث جارية (الشمس والقمر يتحركان، ولكلّ منهما حركته الخاصّة فكل منهما له مساره، وله زمن معيّن لحركته، وهناك نهاية لهذه الحركة في مكان يعلمه الله سبحانه و تعالى) [1].

لذلك جاء في القرآن الكريم ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾[يس:38]؛ هذه بعض نتائج العلم في هذا المجال ولكنّنا إذا تأملنا الآية السابقة (لا الشمس ...) أو التي بعدها وتوقفنا قليلا عند ألفاظها: (تدرك، سابق، النهار، فلك، يسبحون) لوجدنا لهذه الألفاظ معانيها في الكلام العربي سواء من حيث وضعها اللّغوي وما أطلقت عليه أو باستعمالاتها المجازية الواسعة التي لا يمكن حصرها وإنما تظهر من خلال السياق الكلامي؛ وإنما الذي تغيب عنّا دلالته الدقيقة هو مجيئها في السياق القرآني؛

[1] – ينظر : محمد خير،الكون والنسبية بين القرآن الكريم والنظرية، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا (1415– 1994) ص: 21.

ومهما حاولنا التعمّق في ألفاظها وسبر أغوارها فلا تظهر إلاّ بأفكار عامة يلقّها الغموض لكنها تبهر عقولنا وتنبه أفكارنا وتحثنا على المزيد من التفكير ومن هنا تنشأ لدينا فكرة الملاحظة التي هي أساس كلّ علم؛ ومن آيات الإعجاز القرآني في أيّ مجال كان، أنّك تجده يتخذ مستويات عدّة بالنظر إلى المتلقي فكلّ دارس ومتأمل في القرآن الكريم يأخذ منه بحسب قدراته الفكريّة ومستواه العلمي ولا يستطيع أن يجزم ويغامر فيطابق مفهوم الآية لنتيجة علميّة معيّنة مطابقة تامة؛ ونحن نعلم أنّ النتائج العلمية في تحولات مستمرة، أما ما جاء به القرآن الكريم فثابت على مرّ الزمان قابل لأن يطابق ما توصل إليه العلم من نتائج مهما تطورت، وما ذلك إلا لأن الأسلوب الذي نزل به القرآن معجز، ومن علامات هذا الإعجاز أنه يتميّز بتعدد مستويات الإقناع وجعلها صالحة لكلّ زمان ومكان.

ولقد توصّل علم الفلك إلى نتائج باهرة واكتشافات مذهلة وما زال البحث جاريا؛ ومهما تضاربت الآراء وتطورت النظريات أو تناقضت فإن الآية الكريمة باقية في المصحف ثابتة في دلالتها ومضمونها لذاتها بغضّ النظر عن أفهام الناس المتناقضة أو نظريات العلماء المتضاربة، تدعو البصير إلى التأمّل في ملكوت السموات والأرض وتحثّ الباحثين على المزيد من البحث،فالعبرة في البحث وتعاطي العلم والمعرفة للانتفاع بما سخّر الله لنا في هذا الكون، ولقد أتاح لعقولنا البشرية أمورا تنتفع بها في الدّنيا فسخّرها لنا وأقدرنا عليها سواء بالوسائل العادية التي نملكها أو بوسائل أخرى ناتجة عن المعالجة الفكريّة وتعاطي العلم والمعرفة وهذه الجوانب من المعارف هي التي يتبارى فيها البشر ويتنافسون؛ ويستخدمون قدراتهم الفكرية أو ملكاتهم الإبداعية للوصول إليها والسيطرة عليها.

وهذه كلّها تخضع لفكرة التّسخير التي ذكرها القرآن الكريم في حدود ما يسمح به الإيمان الصحيح وهناك حقائق غيبية دعانا القرآن للإيمان بها، وقد سبقت عقولنا ولا نستطيع أن نتبيّنها انطلاقا من مقدرتنا الفكرية فهي حقائق غيبية مطلقة لا يعلمها إلا الله، فهو خالقها ومقدرها ومؤقتها فهو ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ ﴾[سبا:03] وهذه لا تدخل في دائرة العلم البشري المبني على الوصف والتعليل، أو ربط الأسباب بالمسببات ...وقد قال النَّظَّامُ[1]: (الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنّظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم)[2].

وإشارة النّظام هنا إلى أنّ القرآن معجز بما أخبر به من غيوب؛ تجعلنا نتوقف عندها كثيرا؛ لندرك أولا أنّ هذا العالم الجليل لم ينقص من قيمة الإعجاز؛ ولم يهوّن من نظم القرآن الكريم ليدّعي أنه في متناول البلغاء والفصحاء من البشر كما اتهمه من جاء بعده؛

[1] - **النظام** (231 هـ - 845 م) إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظام: من أئمة المعتزلة، قال الجاحظ: (الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فان صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك).تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه.وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة.وقد ألفت كتب خاصة للرد على النظام وفيها تكفير له وتضليل.أما شهرته بالنظام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام، وخصومه يقولون انه كان ينظم الخرز في سوق البصرة.وفي كتاب (الفرق بين الفرق) أن النظام عاشر في زمان شبابه قوما من الثنوية وقوما من السمنية وخالط ملاحدة الفلاسفة وأخذ عن الجميع.وفي (لسان الميزان) أنه (متهم بالزندقة وكان شاعرا أديبا بليغا). له كتب كثيرة في الفلسفة والاعتزال.ينظر الأعلام للزركلي ج 01 ص 43.

[2] - أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، القاهرة ،مصر (1401-1980)، ج: 01 ،ص:85.

ورأوا في قوله هذا إنقاصا من قيمة أسلوب القرآن ونظمه؛ ولكنّنا إذا تأملنا قوله مليّا نجده من جهة يرى الإخبار عن الغيوب في القرآن أعجوبة لا يستطيع أن يعرفها العقل البشري مهما أوتي من علم فكيف به من جهة أخرى يرى نظمه في مستوى نظم البشر؟ فلا يعقل أن يرى عاقل الإعجاز في محتوى وينكره في الشكل أو الأسلوب؛ ولكننا نحسب أن النظّام كان يريد أنّ الله تعالى جعل أسلوب القرآن الكريم فوق أساليب البشر، ولو شاء لأقدرهم على أن يأتوا بمثله ولكن حكمته سبقت فلم يركب في طباعهم اللّغويّة تلك القدرة التي أودعها في أسلوب القرآن الكريم ولعل الجاحظ قد فهم هذا الفهم من أستاذه وقد رأى الجاحظ أنّ القرآن معجز بنظمه وتأليفه وأنّ العباد عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله، وإن وردت كلمة (الصرفة) على لسانه فإنّما كان يريد بها نوعا من التدبير الإلهي لئلا يكون لأهل الشغب متعلق حين يحاول المعارضة محاول.."[1] والجدير بالذكر أنّ هذا العصر (عصر النظّام والجاحظ)كثرت فيه النزعات الإلحادية والمذاهب الفاسدة والزندقة، وكانوا يصنعون الآثار ويولدون الأخبار ويظنون في القرآن الكريم ويسألون عن الأمور الدقيقة التي تفتح أبواب الجدال كالمتشابه والخاص والعام وغيرها..."[2].

لذلك فإنّ النظام أراد أن يقع على شيء في القرآن لا يستطيع أحد أن يعترض عليه أو يمد يده إليه فكان موضوع الغيب؛ وذلك لأنّه يمكن أن تجري الكلمة من القرآن أو الكلمتين أو الثلاث في أسلوب أحد من الناس؛ كأن يقول؛ سبحان الله... أو بسم الله...

---

[1]- عبد العزيز عبد المعطي ، قضية الإعجاز القرءاني وأثرها في تدوين البلاغة العربيـة، عـالم الكتب، (1406-1985) ط/1 ص: 155.

[2]. ينظر:أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، القاهرة، (د ت)، ج:02 ، ص: 111.

أو الله أحد... وكلّها ألفاظ وردت في القرآن و لكنه لا يستطيع أن يحركها في نسق أسلوبيّ على غرار ورودها في القرآن.

فانظر إلى هذه الألفاظ مثلا ، وكلها من كلام العرب (الله، شهد، الملائكة، أولو العلم، القسط، العزيز، الحكيم) فهل يستطيع أحد البلغاء أن يصوغها على الشكل الذي جاءت به في قوله تعالى:﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:18]، ابتدأت بالإقرار لله تعالى أنه الواحد الأحد، وعقب على ذلك بالملائكة المقربين وهم أرواح نورانيّة يطيعون الله ما أمرهم، ثم أولو العلم باعتبارهم أقرب إلى خشية الله من غيرهم، ثم عقب على ذلك بـ(قائما) وهي حال دائمة ملازمة لذات الله تعالى كونه متصفا بالقسط أي العدل والحكمة فيما قدّر وقضى وتختتم الآية بتكرار (لآ إله إلاَّ هو) لإفادة دلالة التوحيد والتصرف والإرادة لذاته ، متلوة بـ (العزيز الحكيم) من العزّة التي بمعنى المنعة، والقوة التي لا تضاهى ولا يطمع أحد في مكافأتها فضلا على مضاهاتها أو محاداتها.... وكذلك في قوله تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[الرحمان:33] يقول الزمخشري: "إن استطعتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي فافعلوا، ثم قال: لا تقدرون على النفوذ إلاّ بسلطان يعني بقوة وقهر وغلبة وأنّي لكم ذلك...."[1] .

فالمخاطبون في هذه الآية الجن والإنس ، وقدّم الجن على الإنس ليعلم البشر أنه ربّ العالمين وكل ما في الكون مخلوق له ما يرى وما لا يرى، والبشر منذ القديم يعرفون أمورا عن الجن هذا العالم الخفي وفق معتقداتهم وعاداتهم ويولونها قوة خارقة نافذة في غيرها ومسخرة

[1] – ينظر : أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيوب الأقاويل في وجوه التأويل ، رتبه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، (1995/1415). ، ج 04، ص 47.

لها كذلك قدم الجن على الإنس في الآية السابقة ليعلم البشر أن الجنّ أيضا مخلوق لله، وأنهم مخاطبون بأصول الشريعة الإسلامية وفيهم المؤمن والكافر... وربّما كان في الأمم السابقة ومنهم العرب من يعزى إلى الجنّ القوى الخارقة والقدرة على التأثير في المخلوقات البشرية، فقدموا في الآية ليعلم الناس أنّ لا حول لهم ولا قوة أمام عظمة الخالق فشأنهم في ذلك شأن البشر، فهم ضعاف أذلة مفتقرون إلى العفو من الخالق كما البشر؛ لذلك قال تعالى : (... أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ...)؛ أي لو كانت تعلم الغيب لعلمت بموت سليمان عليه السلام قبل أن يسقط أرضا بعد أن تآكلت عصاه التي كان يتكؤ عليها.

ولعلّ في قوله تعالى (فانفذوا ..) أمر مفاده التحدي والتبكيت، وهو إعجاز للجن والبشر على حد سواء؛ أي أنهم مهما أوتوا من قوة فلن يستطيعوا الخروج عن طاعة الله وسلطانه فهم دائما في دائرة قدرته وجبروته؛ والملاحظ في الآية (من) في قوله تعالى (من أقطار...) ولم يقل (في أقطار...) لأنّ النفاذ في أقطار السموات والأرض يتأتى للبشر بل هو من العلم والاكتشافات ومن شأنه أن يهدي صاحبه إلى الإيمان والآيات الداعية إلى التأمل والتبصّر كثيرة ... أما النّفاذ من أقطار السموات والأرض أي إلى خارج دائرة هذا الكون هو محلّ التحدي.

ولقد ورد أيضا في القرآن الكريم عن سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام؛ عندما رأى قومه يعبدون الشمس والقمر والنجوم والأصنام وأشياء أخرى، فأجرى الله تعالى على لسانه هذا الحوار المبني على الاستدلال المقنع والحجّة الدامغة، وقال تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة:258-260]

هذه ثلاث حالات انسجمت في مسلك واحد ونسق واحد .

– الحالة الأولى: محاجّة إبراهيم الخليل –عليه السلام– نمرود الكافر الطّاغية الذي ادّعى القدرة على الإحياء والإماتة؛ بل ادّعى الربوبية، وتطاول بذلك على قومه؛ وأراد أن يحاج إبراهيم عليه، فقال له من ربّك فقال إبراهيم –عليه السلام– ربّي الذي يحيي ويميت فجاء النمرود برجلين فقتل واحدا وأبقى الآخر حيّا، وقال قد أحييت هذا وأمّت هذا زعما منه أن الإحياء والإماتة هكذا كما فعل أو تجاهلا منه واستعلاء، فما كان من سيّدنا إبراهيم إلاّ أن واجهه بحجة أعظم لا قبل له بردّها إذ قال له (إنّ الله يأتي الشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فبهت الله الكافر بهذا التدرج عن طريق الاستدلال والانتقال بالحجّة إلى ما هو أقوى منها لإفحام الخصم وبهته (فإذا قيل لم انتقل إبراهيم عليه السلام عن دليله الأول إلى هذا الدليل الثاني، والانتقال علامة الانقطاع؛ فالجواب أنه لم ينقطع ولكنّه لما ذكر الدليل الأوّل وهو الإحياء والإماتة كان له حقيقة، وهو فعل الله ومجازا فهو فعل غيره،

فتعلق نمرود بالمجاز غلطا منه ومغالطة، فحينئذ أنتقل إبراهيم إلى الدليل الثاني لأنه لا مجاز له)[1].

وقد يكون الأمر أن النمرود بطغيانه وجبروته قد عمي عن الحقيقة و اغتر بقوته وهوّن من الأمور بالقدر الذي يجعله يزداد اغترارا ومن عادة الطاغية الجبار أن يستبد به الجهل فكان في عقله يرى الإحياء والإماتة على النحو الذي فعله أمام إبراهيم الخليل من قتل رجل وإبقاء الآخر حيّا فكأنه أحياه، وختمت هذه الصورة الأولى بقوله تعالى:(والله لا يهدي القوم الظالمين) لتطابق المحتوى وهو تمادي النمرود في طغيانه بعد بطلان حجّته، ومن تمادى في الكفر والطغيان خرج من هداية الله، وليس المعنى أنّ الذي يظلم لا يهديه الله، فباب الهداية والمغفرة مفتوح، وكم من ظالم تاب وأناب ولكن المعاند المتمادي في الظلم والطغيان ما زال في ابتعاد عن الله إلى أن يكتب عند الله من أهل النار، فكأنه خرج عن الهداية لذلك قال تعالى: (والله لا يهدي القوم الظالمين) .

– الحالة الثانية: عطف على الصورة الأولى لأنّها في السياق نفسه سياق الحديث عن الإحياء والإماتة؛ وبدأت بقوله تعالى:(أو كالذي...) (أي أو رأيت مثل الذي مرّ على قرية)[2]. ويذهب أغلب المفسرين إلى أنه عزير أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصيرة كما طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه[3]، فجعله الله عبرة إذ أماته مئة عام ثمّ أحياه ولم تؤثر فيه تلك السنون الطويلة فكأنه لم يلبث إلا يوما أو بعض

[1] – ينظر:ابن جزي محمد بن أحمد : كتاب التسهيل في علوم التنزيل ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، (1402/ 1981م). ج: 01 ص: 90.

[2] – ينظر: مخلوف حسنين ، صفوة البيان لمعاني القرءان، دار المشرق، بيروت، ط03، (دت). ص:63.

[3] – ينظر المصدر نفسه، ص: 63 –64.

يوم؛ فأراه الله كيف تلتئم العظام وتعود إلى أماكنها من الجسم وتكسى باللّحم وتزرع فيها الحياة من جديد، كذاك البعث وليس ذلك على الله بعزيز وتنتهي هذه الصّورة بقوله تعالى:(قال أعلم أنّ الله كلّ شيء قدير) دلالة على إيمانه وعلى أنّ سؤاله (أنّى يحيي هذه الله بعد موتها) ليس هو سؤال الكافر أو المتعجب وإنما سؤال من يريد الإستزادة في الهدى والإيمان، لذلك قال أعلم... كذلك تقديم المفعول في(أنّى يحيي هذه الله...) فيه إشارة إلى الاهتمام بآية الإحياء وليس في قدرة الله على الإحياء لأنّ منظر القرية الخاوية على عروشها، المهدّمة جدرانها بعث فيه الاستشهاد وبعظمة الخالق فتاقت نفسه إلى معاينة الإحياء تقرّبا من الله وتوددا إليه فكان أن جعله الله آية هو نفسه.

– الحالة الثالثة: وهي قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم ...إلى قوله تعالى: وأعلم أنّ الله عزيز حكيم) يرى المفسرون أنّ هذه الحالة مرتبطة بالأولى وذلك أنّ النمرود عندما قتل رجلا وأبقى الآخر حيّا قال لإبراهيم عليه السلام قد أمتّ ذلك وأحييت هذا، قال له إبراهيم فإنّ الله يحيي بأن يردّ الروح إلى جسد ميّت فقال له النمرود هل عاينت هذا الذي تقوله ولم يقدر أن يقول نعم رأيته فتنقل إلى حجّة أخرى وهي قوله: (إنّ الله يأتي بالشمس...) ثم سأل ربّه إحياء الميّت لكي يطمئن قلبه عند الاحتجاج، فإنّه يكون مخبرا عن مشاهدة وعيان فكان قوله تعالى:(قال فخد أربعة من الطير...)، وذكروا أيضا أنّ ملك الموت جاءه فأخبره أنّ الله اتخذه خليلا فحمد الله عزّ وجلّ وقال ما علامة ذلك؟ قال أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك .. فقال إبراهيم (ربي أرني كيف...)[1].

[1] – الواحدي ،أسباب النزول، تحقيق عصام الحميداني، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، (1411-1990)، ط/1، ص51 – 52.

وإذا تأملنا خاتمة هذه الصورة نجدها ختمت بقوله تعالى (واعلم أنّ الله عزيز حكيم) وهو فعل أمر صريح موجّه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام: ليس من باب التأنيب أو العتاب، وإنما من الاستزادة في الإيمان والتقرب من الله تعالى؛ وذلك بعدما أراه ربّه تلك الآيات العظمى و في هذا السياق ما نجده على لسان ابراهيم عندما جنّ عليه الليل ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الأنعام:76-79].

لقد أراه الله ملكوت السموات والأرض وهداه إلى توحيد الله وأجرى على لسانه الحكمة والحجّة البالغة التي واجه بها قومه إذ كانوا يعبدون الشّمس والقمر والنجوم وغيرها... (فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم و أن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أنّ النظر الصحيح مؤد إلى أنّ شيئا منها لا يصحّ أن يكون إلها لقيام دليل الحدوث فيها...)[1] لذلك يبدوا من ظاهر الآيات أنه جارى قومه في كفرهم لينتقل بهم من حالة إلى حالة في أسلوب تدرجي استدلالي من غير تعصّب ولا تشدّد مبتدئا بالكوكب الذّي يبدوا بالعين المجردة أصغر من القمر ثم القمر الذي يبدوا أصغر من الشّمس ليبيّن لهم أنّ المعبود لا يطرأ عليه طارئ يغيّره من حال إلى حال ولا يعتريه الأفول، لذلك قال: (يا قوم إنّي بريء

[1]. ينظر : الكشاف،ج: 02 ، ص: 31.

ممّا تشركون) فألزمهم الحجّة وعلّمهم أنّ المعبود لا تناله الأبصار (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) وما فيها من قمر وكواكب وشمس هذه طريقة ناجعة في الاستدلال؛ وهي الانتقال بالخصم المعاند من حالة إلى حالة، ومجاراة أقواله ظاهرا للوصول معه إلى المنطق السديد والرأي الصحيح الذي لا يوجد ما يبطله أو يزيل حجّته.

فإبراهيم –عليه السلام– لما أراد أن يحاج قومه وهم يعبدون هذه الأشياء المذكورة في الآية لم يدعُهم مباشرة إلى الإيمان بالله لأنّ ذلك أمرا من أمور الغيب لا تتوصل إلى عقولهم و لا يقوم عندهم عليه وجه من الاستدلال العقلي، فكان أن ابتدأ محاجتهم بأمور محسوسة يرونها ويبصرونها، فلمّا نبَّههم إلى خطأ اعتقادهم فيها لِمَا يطرأُ عليها من تبدّل أحوال وانتقال من حالة إلى حالة قال لهم (إني وجهت للذي فطر السموات والأرض) أي الذي لا يأفل ولا يزول، أي الذي خلق كلّ هذه الأشياء بما فيها معبوداتهم هذه.

إنّ القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض، وبر وبحر، وحيوان ونبات، وخصائص وظواهر وسُنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها، والخبير بدقائقها، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أميّ نشأ في أمة أمية جاهلة، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها، ولا الإلمام لها بكتبها ومباحثها، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحي بقرون وأجيال، فأنى يكون لرجل أمّي كمحمد ذلك السجل

الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم[1]، قال مقرراً لهذا الإعجاز العلمي ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[العنكبوت:48-49].

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القرآنية يهتم أبو زهرة اهتماماً كبيراً بالمسائل العلمية والأمور الكونية، ويوسع معاني الاستدلالات القرآنية ويقرر أمرين يجب أخذهما بنظر الاعتبار لبيان الحقائق العلمية وهما :

أولاً: ألا تفسرّ الآيات الكريمات بنظريات وفروض لم يقيم الدليل القاطع عليها، لأنه قد تتغير العلوم الكونية بتغير النظريات حولها وقتاً بعد آخر، ولا يصح أن يفسر القرآن بنظريات قابلة للنقض والتغير، لأنه كتاب الله تعالى لا تبديل لكلماته وهو العزيز الحكيم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثانيا: ألا يكون الاتجاه إلى تحميل الألفاظ فوق ما تحتمل، فلا تجهد الآيات إجهاداً ليطبقوها على الحقائق أو ليطبقوا الحقائق عليها. بل لا يفكر أهل الخبرة في أسرار الآيات إلا ما يكون ظاهراً واضحاً، ويكون عمل الخبير العلمي تصويرها من غير إجهاد لألفاظها أو تحميلها ما لا تحتمل، وإن الأخذ بهذا المنهاج السليم فيه بيان للقرآن الكريم وصيانة له، وبعد به عن مواطن الشبهات.

[1] – ينظر الزرقاني :محمد عبد العظيم:مناهل العرفان في علوم القران ط:01 دار الفكر، بيروت1996م ،ص16-192.

وقد أخذ أبو زهرة برأي الإمام الغزالي الذي يقرر أن المعاني اللغوية، وما يشير إليه النقل والسماع هو المفتاح والطريق للمعنى العميق الذي يدركه الناس كلما تفتقت العقول واتسعت المدارك وأطلعت على حقائق الكون، وأدركت معاني الآيات الطالبة للنظر في الكون، فهو اللوح الذي كتبت فيه حقائق هذا الوجود، وفيه الدلالة على وجود الله تعالى، وإبداعه"[1].

ومن الشواهد على اعتماد أبو زهرة على التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم قوله في الآية الكريمة : ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾[المائدة:97] : ((إن ما شرعه الله تعالى لمكة وما حولها وما فيها دليل على أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض، لأن مكة في أرض جدبة لا ماء فيها ولا شجر، وأنها جبال لا ثمرة فيها، وأنه لا خير يرجى من طبعها، كما قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:37]، فالسماء لا تجود عليها بغيثها منتظماً والأرض ولا تجود عليها بإخراج إنزالها من معادن وفلزات سائلة وغير سائلة، فجعل الله تعالى الحج إليها، وحرّم على المحرمين ما حرّم من صيد ليبقى لهم ما عندهم من وفر في الحيوان المتأبد، ولتحمل من الأراضي الخصبة والغنية والتي فيها الثروات إلى تلك الأرض الجدبة، فينقل الله سبحانه من الفيض إلى الغيض ليعم الخير، وكانت بمكة كعبة للمسلمين، لأنها أرض لا ترام من غاصب، ولا تراد من ظالم،

[1] – ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير ج: 01 ،ص:3638.

ثم هي في وسط الأرض حتى قال علماء الأرضيين : ((إن بيت الله تعالى في وسط أرض الله الواسعة، فهي نقطة ارتكاز في قطرها))"[1].

ويقول في تفسير قوله تعالى ﴿ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[النحل:66] : (("من" للابتداء، أي تكون بين فرث ودمٍ والفرث فضلات الطعام، وقد قال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً، وهذا معناه أنه في الوسط بينهما اللبن، وقد يكون ذلك التفسير من الناحية العلمية مقرباً، ذلك أن أكل البهائم يهضم، ثم يتمثل جزء منه في الدم، وجزء ينزل لبناً درا))"[2]. ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥ ....﴾[يونس:05] :

((خلق الله الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، وهذا ما يقرره علماء الكون، وفي الواقع أن ضياء الشمس حقيقي، فهي كالمصباح والنور ينبثق منه، والقمر لا ضياء فيه وإنما نوره نسبي في انعكاس ضوء الشمس عليه، ولذا كان له منازل، وقد ينطمس على الأرض، قال تعالى : (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ)، فهي يبتدئ هلالاً يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً ثم يعود يصغر شيئاً فشيئاً حتى يكون المحاق))"[3].

---

[1] – ينظر:أ زهرة زهرة التفاسير ،ج: 05،ص:2366.

[2] ينظر:المصدر نفسه ج:08،ص:4211.

[3] المصدر نفسه ،ج: 07،ص:3516.

ويقول في تفسير الآية الكريمة : ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ﴾ [الانبياء:30] : ((إن هذه الآية تشير إلى أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً، وكانت السماء ومعها الأرض دخاناً، وهو ليس الدخان الذي نعرفه، لأن الدخان الذي نعرفه هو الناتج من اشتعال نار من حطب أو نحوه من أي حطام، وما كان ذلك قبل السماء والأرض، فإذا قلنا إنه الذي سماه علماء الكون السديم، لا نكون مباعدين، بل نكون مقربين غير مدعين على القرآن ما ليس فيه، وتكون الأرض قد خلقت في ستة أيام أي أدوار في التكوين بتدبير الله العزيز العليم))"[1].

و لقد مضى أكثر من ألف عام والباحثون في إعجاز القرآن يرون له أوجهًا مختلفة، وإن كانت جميعها –في رأيي– جاءت نتيجة لنظرهم إليه من زاوية واحدة هي لغة القرآن وما تشتمل عليه من ألفاظ ومعان ونظم. فالقرآن كلام من جنس كلام العرب ولكن قوته الإلهية فعلت بهم الأعاجيب إذ أحيتهم بعد موات وأخرجتهم من ظلمات شتى إلى نور الحق والحياة.

وإذا كانت عصا موسى واحدة من أفرع شجرة زيتون أو رمان، قطعها يومًا ليتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، فإذا بها تتحول بعد الرسالة في يده إلى شيء آخر معجز: حية تسعى، وقوة تفلق البحر فتضرب به طريقًا يبسًا وتفجر من الحجارة أنهارًا –فهكذا يمكن القول عن كلام القرآن بأن إعجازه الحقيقي يكمن في فيضه الإلهي الذي غلب العرب على

(1) ينظر :أبو زهرة ،زهرة التفاسير ج: 09 ص:4855.

أمرهم –وهم أهل الكلام– فأخذهم بروعته وأصاب منهم لباب الأفئدة ومجامع الأحاسيس. ولقد وفق قدامى الباحثين في بيان أوجه الإعجاز اللغوي للقرآن وكان من أمثلة ما قالوه في إعجاز نظمه .

والذي لا جدال فيه هو أن روعة القرآن كانت هي القوة القاهرة التي غشيت من ألقي إليه السمع من العرب. فلم يلبث أن استجاب له وتحمل في سبيله كل أذى وضيق ... والحق يقول في سورة الأنعام 36: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} .

ولا تزال روعة القرآن إلى الآن هي سر إلهي –يماثل الروح في الجسد– يفيض على الباحثين عن الحق فيخرون {لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا}. {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}.

"إن روعة القرآن هي التي فعلت –ولا تزال تفعل الأعاجيب– ليس فقط بين الذين ورثوا العربية لسانًا يتحدثون به، بل أيضًا بين ذوي الألسنة الأعجمية –غير العربية– الذين إذا سمعوا القرآن يرتل أو يتغنى به، اطمأنت به قلوبهم وجلسوا بين يديه خاشعين بعد أن شعروا أنه شفاء لما في صدروهم بصرف النظر عن أسباب تلك الحالة وتعلاتها.

الإعجاز العلمي ليس بمستحدث: من يقرأ قول الحق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: 12–14] .

ومن يقرأ قول الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: 43] .

ومن يقرأ قول الحق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت: 19-20] .

ثم أخيرًا –وليس آخرًا– من يقرأ قول الحق: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء: 30]

من يقرأ بعض أو كل هذه المجموعات الأربع من آيات القرآن الكريم –سواء أكان في عصر العلم الذي نعايشه، أو في اوةىلعصر الذي سبقه منذ قرون –سوف يعلم يقينًا أنها تتحدث عن ظواهر كونية بلغة جديدة على أسماع العالمين." [1]

لقد لاحظ شيوخ المفسرين منذ قرون عديدة وجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وسجلوا ذلك في كتبهم، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيره لقول الحق:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت: 53]

[1] – أحمد عبد الوهاب: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة وهبة، ص:227.

فقد قال ابن كثير: سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقًا منزلًا من عند الله على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بدلائل خارجية في الآفاق ودلائل في أنفسهم. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى.

حين نقول –إذن– إن الإعجاز العلمي للقرآن يمس ما نعرفه من علوم حديثه مسمياتها مثل علوم: الأجنة، والطبيعة الجوية، والجيولوجيا، ونشأة الكون، وبناء الخلية الحية –وهو ما تمثله المجموعات الأربع من الآيات السابق ذكرها على الترتيب، فإننا في الواقع لا نأتي بجديد من ناحية الشكل أو الإطار العام، وإنما الجديد هو المزيد من وضوح الرؤية وتعدد الآيات وتنوعها، ودقة التفاصيل.

وإذا كان لا يزال يوجد بيننا اليوم من كتاب المسلمين الذين يترددون في الحديث عن الإعجاز العلمي للقرآن اكتفاء بكونه معجزة أثبتت نفسها بما فعلت في العرب والعالم، فلا شك أن هذا الموقف الجامد لم يعد له ما يبرره بعد أن انفتحت أعين الكثير من العلماء – مسلمين وغير مسلمين– على حقائق من الإعجاز العلمي للقرآن." [1]

[1]– أحمد عبد الوهاب: النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة وهبة، ص:228.

الخاتمـــة

الخـاتـمة

إنّ طبيعة البحث العلمي تقتضي بأن كل ما يخوض فيه الباحث يدعو إلى مزيد من البحث والدراسة، والتحرير والتقرير...وحسب الخاتمة أن تنبه على بعض كبريات القضايا التي أنتجها البحث من جهة، ومن جهة ثانية الإشارة إلى بعض التوصيات التي يفرضها المقام هنا.

أما النتائج التي يمكن استخلاصها من خلال هذه الدراسة فهي:

أولا: ما يتحدث كتاب الله عز وجل عن القرآن إلا ويربطه باللسان العربي الذي تنزل به، وبفصاحته وببيانه، ولا تكاد هذه العلاقة تنفصل في وقت ما، والحكمة من ذلك أن ندرك قيمة اللغة العربية وأهميتها، وأنها اللغة الوحيدة التي تصلح أن تكون ترجمانا لخطاب الله سبحانه وتعالى ومراده، على مر الأزمنة، وتجدد القضايا والأحوال، مستمدة حفظها من حفظ الله عز وجل للقرآن، لقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحنُ نَزلنَا الذِكرَ وإِنَّا لَهُ لحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:09].

وأن القرآن الكريم قد بلغ من الفصاحة الغاية في إيصال المعنى والغرض من غير إخلال ولا اضطراب ولا اختلاف ولا معارضة. ومن ثم ثبت للشريعة في أصولها وفروعها أنها مبنية على ذلك، فثبت كمالها وتمامها، وهذا يقتضي رد الفروع إلى أصولها، والمتشابهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات، عند وجود ظاهر اختلاف أو اشتباه.

ثانيا: اللسان العربي هو الترجمان عن مقاصد الشارع ومراده، ولا سبيل لفهم المراد من غير هذه الجهة، وعليه؛ من جهل لسان العرب عجز عن فهم مراد الشارع سبحانه وتعالى، وكثر زلله، وتاه في أودية الضلال، ولعل التفاعل الساري ما بين القرآن الكريم واللغة العربية، يلفت إلى أنه كلما ازداد الباحث علما وعمقا في معرفة كتاب الله عز وجل، والتفقه في أسلوبه وخصائصه ومنهجه ازداد دراية وعلما بهذا اللسان العربي وبلغته، وكلما ازداد معرفة بلغة اللسان العربي وبقواعدها وتعمق فيها، ازداد دراية وعلما بكتاب الله عزجل وبمعانيه العميقة، وتبصر بمراده ومقصوده. ومن ثم فالعلم باللسان علم بأدوات البحث المفضية للمراد، والجهل به جهل بالأداة وبالمراد معا.

ثالثا: معرفة أساليب البلاغة وطرق الفصاحة مفتاح الولوج لكتاب الله عز وجل، وفهم مراده، ولا يحصل المراد والمعنى بغير اللفظ وما سبقه، وما لحقه، وما يحيط به من قرائن حالية ومقالية، ومقامات للأحوال. فلا بد من التأكيد على الأهمية البالغة للأدوات المعينة على حسن فهم النص وتطبيقه؛ من علل، وقرائن، ومقامات، وجمع النصوص الجزئية بعضها على بعض لتتضح الصورة الكلية، والإهمال في ذلك بالاقتصار في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ أو المعاني يوقع في الأغلاط ويسبب الاختلاف والنزاع.

رابعا: الفهم الصحيح لنصوص الكتاب والسنة، إنما يكون باتباع ما قرره علماء الأصول وعلماء اللغة في دلالة الألفاظ والأساليب على المعاني بعد استقراء ما أثر عن العرب من منثور ومنظوم، والاستفادة إنما تتفاوت بتفاوت الأذهان وممارسة واستعمال

أساليب اللغة –بمفرداتها وتراكيبها– وأساليب المتكلم ومنه: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله".[1]

خامسا: أصحاب الألفاظ والظواهر قصروا بمعانيها عن مراد الشارع، وأصحاب الرأي والقياس حملوا معاني النصوص فوق ما حمّلها الشارع؛ فالأخذ بقول الظاهرية على إطلاقه له آثار وخيمة على الاستنباط الفقهي، والاجتهاد المقاصدي، والقائل بذلك يتردد في أن يكون نافيا على الشريعة صلاحها لجميع الأزمنة والأمكنة، وموقع لنفسه في خضخاض من الأغلاط. فالواجب اعتبار الجزئيات بالكليات، شأن الجزئيات مع كلياتها؛ ذلك أن اعتماد الكليات التشريعية وتحكيمها في فهم النصوص الجزئية، هو طريق تحديد مراد الله تعالى من خطابه، وهو عين المقاصد ومنهجه؛ فاستقراء الأحكام الجزئية والربط بينها، ثم صياغتها في قانون كلي عنوانه مقصد من مقاصد الشريعة هي حقيقة فقه المقاصد.

سادسا: تقرير المنهج المنتخب لبيان المراد، وضبط معرفة مقصد الشارع عند أهل السنة والجماعة –من خلال النماذج الثلاثة؛ العز بن عبد السلام، والشاطبي، وابن عاشور– بالاعتماد على ركن اللسان العربي– الذي يدخل في النظر في الأدلة الجزئية–، وركن المقاصد –والذي يدخل في اعتبار الكليات–، جنبا لجنب، هو منهج شامل ودقيق للمجتهد والباحث، تُحشَد فيه كل العلوم الممكنة لأجل الوصول إلى غاية واحدة؛ وهي معرفة مراد الشارع ومقصوده، حتى يكون قصد المكلف في العمل موافقا ومتطابقا مع قصد

[1] – الشافعي: الرسالة، ص:51.

الشارع في التشريع، وهذا الحشد للقواعد والضوابط اللغوية والأصولية والفقهية والمقاصدية يُمكِّن الباحث من تحقيق الجزئيات في مظانها، وتحصيل الكليات من مجموع هذه الجزئيات، بنظر دقيق في آن، وبنظر واسع وشمولي في آن آخر، سيرا مع الواقع من جهة، وتنقلا من أحوال الفقه الظنية، إلى المقاصد القطعية، قدر المستطاع من جهة ثانية.

كانت هذه جملة النتائج المتوصل إليها، أما التوصيات فهي :

أولا: إن الدراسة العلمية تفرض على الباحثين –في هذا العصر– تقليب النظر في التراث العلمي الذي ورثه لنا الراسخون من أسلافنا، وإعادة صياغته صياغة تتوافق ومقتضيات العصر، من حيث إنها –أي هذه الدراسات– تبرز الكليات التي يقوم عليها فقه الشريعة، وتنزيل هذه الكليات على الجزئيات، حتى تكون الدراسة ثابتة الأركان، ومؤصلة تأصيلا علميا تواكب القضايا المستجدة .

ثانيا: إن هذا العصر بتطوراته السريعة ومشاكله المختلفة التي لم تكن تحصل من قبل، يفرض على الدارسين في المجال الشرعي الاهتمام بالمقاصد الشرعية، –في ضوء القواعد الأصولية والقواعد والضوابط الفقهية– باعتبارها الإطار العام والمسلك الشمولي لبيان أحكام تلك المشكلات والنوازل، لأن الإبقاء على بعض الأحكام الفقهية ثابتة زمنا طويلا مع اختلاف المكان والزمان والوسيلة، يجعل البعض يشعر بقصور اتجاه كل مستجدات الحياة، لذلك كان لابد من تحرير الأحكام الفقهية من جمودها.

والنظر في مقاصد الشارع والشريعة لإخراج أحكام ملائمة مع تطور الحياة، مستخلصة من الدليل والنص الشرعي، فكان لابد إذ ذاك؛ أن تتجه همة الدارسين إلى إبراز فلسفة التشريع الإسلامي ولغته –بمقوماته وكلياته– كتشريع سماوي غايته ومقصده الأسمى رفع الظلم والجور وتحقيق العدل والإنصاف على أن يكون الرائد الأعظم في هذا المسلك – كما يقول ابن عاشور– هو "الإنصاف ونبذ التعصب لبادئ الرأي أو لسابق الاجتهاد أو لقول إمام."[1]

ثالثا: من شاء أن يزداد معرفة بأسرار كتاب الله عز وجل، وسنة نبييه صلى الله عليه وسلم، فما عليه إلا أن يزداد معرفة بهذه اللغة العظيمة المباركة التي هي الترجمان عن مراد الله تعالى. وفي المقابل من شاء أن يزداد معرفة بأسرار وقواعد هذه اللغة العربية فما عليه إلا أن يزداد معرفة ودراية ودراسة لكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

رابعا: تكوين معاهد متخصصة لتدريس اللغة العربية مع توفير الميزانية اللازمة، كفيل بمعرفة كلام الله سبحانه وتعالى، وتصحيح المفاهيم الخاطئة في فهم مراد الله تعالى من كلامه. فلا يفهم الشريعة حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، فكلما كان الاهتمام باللغة العربية أكثر كان الخطأ والاختلاف أقل، وكلما كان الاهتمام بها أقل كان الاختلاف والفرقة والقول على الله بغير علم أكثر .

خامسا: قواعد اللغة العربية مبسوطة وثابتة، وكان ذلك لاهتمام أئمة اللغة بكتاب الله عز وجل، فالاهتمام بكتاب الله اهتمام باللغة العربية، والعكس لذلك فالتلاعب بقواعد

[1] – ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ص: 19.

اللغة العربية تحت غطاء التبسيط والتيسير لتعلمها إنما هو تلاعب بكتاب الله، ومحاولة لفصل أو إبعاد المسلم عن فهم مراد الله تعالى وعن شريعته .

سادسا: محاولة صياغة القرآن بمعان دون ارتباط بقوالب المعاني التي تنزل بها، وهي اللغة العربية؛ إنما هو تحريف لكلام الله، عواقبه وخيمة على وحدة المسلمين-كما في العصر الحالي-.

سابعا: بمقدار الاعتزاز باللغة العربية – هذا الموروث الحضاري الراقي- بمقدار ما يكتب الله لنا العزة والرقي والشخصية القوية، وبمقدار التبرم والتفريط فيها، بمقدار ما يلحق من الذلة والانحطاط والشخصية المتذبذبة التي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لا هي بلغتها، ولا هي بلغة غيرها.

والله تعالى أعلم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهـــارس

فهرس الآيـــات القرآنيـــة

سورة البقرة

الآيـــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ	04-01	188 -186 211
﴿ الذين يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ	03	185
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ	04	185
﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ۝١٢	13-12	214
﴿وَإِنۡ كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَى عَبۡدِنَا فَأۡتُوا بِسُورَةٖ مِّنۡ مِّثۡلِهِ.....	23	26-22-20 219- 37
﴿فَإِنۡ لَّمۡ تَفۡعَلُوا وَلَنۡ تَفۡعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ	24	202-26
﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ	32	189
﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ..	177	212
﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ	98	185
﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ	115	149
﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ	133	179
﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ	158	151
﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ	177	212-113
﴿وَلَكُمۡ فِي الۡقِصَاصِ حَيَاةٞ.....	179	215 -87
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا	-204 205	199
﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ.....	239	214-213

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ.....	246	213
﴿أَلَم تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ	258	238
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا..... ...	286	خ

سورة آل عمران

الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ.....	07	91
﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ	18	237
﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ.....	44	181
﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ	49	21
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ.....	59	174
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ..... ۚ	144	209
﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ.....	188	149

سورة النساء

الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ.....	48	171
﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللهِ وَالرّسُولِ	59	89
﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ	63	209
﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ.....	64	180
﴿أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ	82	86
﴿ وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ..	82	160

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا.....	156-157	177
سورة المـــائدة		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا.....	27-30	178
﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ..... ..	31	23
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ	38	144
﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ .. .	39	144
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ ...	67	201
﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ.....	97	245
سورة الأنعام		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ.....	36	248
﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ.....	50	193
﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ	59	168-176 186-193
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ	76-79	242
سورة الأعراف		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ.....	163	138

سورة الأنفال		
الآيـــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ.....	08-07	184
﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا	31	226-210
سورة التوبة		
الآيـــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿غَيۡرُ مُعۡجِزِي اللَّهِ.....	3-2	11
﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ	30	206-170
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ.....	33	181
﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدًا ضِرَارًا وَكُفۡرًا وَتَفۡرِيقَۢا	-107 110	199
سورة يونس		
الآيـــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا.....	05	246
﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ ﴿٣٨﴾.....	88	-191 -20 218
﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ	39	205
﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ	61	196
سورة هود		
الآيـــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ.....	13	-22 -20 216 -189

﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ.....	20	11
﴿وَقِيلَ يَأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ	44	76-75 166
﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ.....	49	198 -180
سورة يوسف		
الآيـــــــــة	**رقمها**	**الصفحة**
﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا.....	04-01	180
﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.....	101	56
سورة الرعد		
الآيـــــــــة	**رقمها**	**الصفحة**
﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ	39	196
سورة إبراهيم		
الآيـــــــــة	**رقمها**	**الصفحة**
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم.....	04	58
﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ	37	245
سورة الحجر		
الآيـــــــــة	**رقمها**	**الصفحة**
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون	09	252-167
﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ.....	21	194-193 197
﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾.....	72	227

سورة النحل		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ.....	46	11
﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ	47	113
﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا	66	246

سورة الإسراء		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ	81	225
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى	85	194
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ	88	أ- 10- 20- 21- 27- 33 – 35- 36-82-157 191 –202- 218 - 219 - 225

سورة الكهف		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ	22	173
﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا.....	23	173
﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ.....	50	183
﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا....	83-97	179

سورة مريـم		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ.....ذ	55-54	179
سورة طـه		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا. ...	20-17	21
سورة الأنبياء		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَكَم قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ... .....ذ.....	12-11	138
﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ	22	172
﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا	30	249-247
سورة الحج		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ.....	05	231-230
﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ	07-05	229
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ	07-06	230
﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ..... ...	44-42	178
سورة المومنون		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ	14-12	248

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ	91	171
سورة النور		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِلا ٱلَّذِينتَابُوا.....	05	134
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ	43	249
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ.....	55	182
﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ	57	11
سورة الفرقان		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا.... .	01	21
سورة الشعراء		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ....	193-195	61
سورة النمل		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ	65	176
سورة القصص		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ.....	44	181
﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ.....	45	181
﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا.....	46	181

سورة العنكبوت		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ	19	249
﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ.....	48	244 -222
سورة الروم		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ.....	04-01	201 - 167
﴿مِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ.....	22	130
سورة الأحزاب		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ	40	204
سورة سبـــأ		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ	03	235
﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ	14	198-190
سورة فـــاطر		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ.....	44	23
سورة يـــس		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا	38	234

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ.....	40	233
﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ	69	158
فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.....	76	67
سورة ص		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ.....	29	123
سورة الزمر		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ	28	61
﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ.....	67	159
سورة فصلت		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ	03	122
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.....	42	أ - 167
﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ.....	53	249 -228
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ	26	210- 162
سورة الزخرف		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ..	03	61

سورة الدخان		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ	16-10	203
سورة الأحقاف		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ..	32	23
سورة الفتح		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا	01	202-192
﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ.....	27-26	185
﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ	28	167
﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا	27	202-166
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ.....	28	159
سورة الحجرات		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ.....	12	224
سورة ق		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١	01	159
﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ	33	187

سورة الذاريات		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾	21	228
سورة الطـور		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ	31-30	205
﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ ..	34-33	218
﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ	37	193
سورة النجم		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾	01	226
سورة القمر		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ	17	122
﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ	15-09	178
﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ	45	202-190
سورة الرحمـان		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿الرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ.....	04-01	94
﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ..... ...	27-26	171

﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ	33	238
سورة الواقعة		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ	79	196
سورة الحديد		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ	22	196
سورة الجمعة		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ	05	170
سورة المنافقون		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ .... :	07	194
سورة الطلاق		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ	03	159
﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ.....	04	150
سورة الملك		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كبير.....	12	188

سورة القلم		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ	16-10	204-203
سورة الجن		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا	03	171
﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا	28-26	198
سورة الانشقاق		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ	19-16	206
سورة الغاشية		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧	17	228
سورة العلق		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ	05-01	220-188
سورة المسد		
الآيـــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ	03-01	204-191

سورة الإخلاص		
الآيـــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢	4-1	171

فهرس الأحاديث النبوية

- " أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى: لاتَحْسَبَنَّٱلَّذِينيَفْرَحُونبِمَآ 149
- " هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ 127
- " أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ 126
- " اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا كَتَحْرِيمِ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ 127
- " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ 145
- " خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَى خَيْبَرَ أَخْدُمُهُ 127
- " أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ 201
- " قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا قِسْمَةً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ 126
- " كَانَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –إِذَا بَلَغَهُ عَنْ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ مَا بَالُ فُلَانٍ 145
- " لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا 192
- " مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ 145
- " ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر . 29–168
- " مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً 175
- " وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ..... 147
- " يُقْبَضُ الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ 146
- " إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعَرِ لَحِكَمًا»..... 114
- " لَا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..... 67

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص

1. إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي أبو إسحاق الشاطبي: الاعتصام، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار أشريفة.

2. إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، وعليه شرح عبد الله دراز، ط: 01، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (1422هـ-2001م).

3. إبراهيم سلقيني، أصول الفقه الإسلامي، دمشق، (1425هـ-1426هـ)(2004م-2005م).

4. ابن طباطبا، الميزان، بيروت، دار الأعلمي للمطبوعات ، (1973/1392).

5. أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، القاهرة، 1401هـ/1980م.

6. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، تحقيق: عصام الحميداني، مؤسسة الريان، ط : 01 ، بيروت ، لبنان ،(1411ـ1990)

7. أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي، ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: محمد على الصباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

8. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار النهضة، (د ت).

9. أبو الفتح تاج الدين عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: أمير علي مهنا وعلى حسين قاعور، دار المعرفة، بيروت، 1993/1414م.

10. أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط:02، دار الكتب المصرية، (1371هـ- 1952م).

11. أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط:02، دار الكتاب العربي، بيروت، 1387هـ/ 1965م.

12. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، الملل والنحل، تحقيق: أبو محمد محمد بن فريد، مصر، المكتبة التوفيقية (د ت).

13. أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، بيروت – دار المعرفة (دت).

14. أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، رتبه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، (1995/1415).

15. أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي (الشهير بابن رشد الحفيد): بداية المجتهد ونهاية المقتصد، المكتبة العصرية، بيروت، (1424هـ- 2004م).

16. أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، (1995/1406).

17. أبو بكر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، قدم له: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، (1422هـ-2002م).

18. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان،

19. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق:رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، (1982/1403).

20. أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: سيد أحمد صقر، مصر، دار المعارف، ط 1383هـ/1963م ، ط1997.

21. أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، تحقيق: عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط01، 1987/1407م.

22. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، دار الفكر، (1988/1408).

23. أبو زكريا محي الدين بن شرف الدين النووي، صحيح مسلم بشرح النووي،

24. أبو زكريا يحيا الفراء، معاني القرءان، تحقيق عبد الفتاح شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (1405- 1984)

25. أبو طاهر مجيد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب التراث، مؤسسة الرسالة، 1998/1419م

26. أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي ، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر، ط3، (1985/1405).

27. أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي، نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز، مطبعة الأدب، 1317هـ.

28. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الإعلام لما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة.

29. أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عرفان العشا، بيروت، دار الفكر، (2003/1424).

30. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: خالد السبع العلمي، وزهير شفيق الكبي، (1425هـ-2004م).

31. أبو عبد الله مصطفى العدوي، التسهيل لتأويل التنزيل، مصر، دار ابن كثير، ط1، (1996/1416).

32. أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ط: 01، دار الكتب العلمية، بيروت، (1411هـ، 1990م).

33. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر ط: 03، المكتبة العلمية، (1401ﻫ-1981م).

34. أبو محمد عبد الله جمال الدين ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق: د/محمد علي حمد الله ، بيروت ، دار الفكر ، ط2 ، (1969/1390) .

35. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الباي الحلبي، ط2، 1952م

36. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط03، 1981م.

37. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، مصر، قرطبة الهرم، (د ت ط).

38. أحمد بن عبد الرحيم، الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب: سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، القاهرة، ط02، 1407هـ/1986م.

39. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي- محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (1379هـ).

40. أحمد شوقي، الشوقيات، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.

41. أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء واليهودية والإسلام والمسيحية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط02، 1413هـ/ 1992م.

42. أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة العربية، مصطفى الباي الحلبي،ط01، 1950م.

43. إدريس حمادي، المنهج الأصولي في فقه الخطاب، المركز الثقافي العربي، 1998م.

44. إسماعيل أحمد الطحان، دراسات حول القرآن الكريم، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط02، 1998م.

45. الأعلم الشنتمري، شرح ديوان علقمة بن عبده الفحل الأعلم الشنتمري، تحقيق: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، 1414هـ/ 1993م.

46. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 02، دار المعرفة، بيروت، (1391هـ ـ 1972)

47. بدران أبو العينين بدران، أصول الفقه الإسلامي، دار شباب الجامعة، الاسكندرية، 1996.

48. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، بيروت، دار الشروق، ط4، (1980/1400) .

49. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، ط04، 1400هـ/1980م.

50. بيسوني عبد الفتاح فيود، علم المعاني – دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2015م.

51. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني ابن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مكتبة الرباط: المغرب.مج: 07

52. حسان تمام ، اللغة العربية، معناها ومبناها، ط: 04، عالم الكتب، القاهرة، (1425هـ-2004م).

53. حسين مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن ، بيروت ، دار الشروق ، ط3، (د ت).

54. الحنفي: إظهار الحق، تحقيق : محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، ط:01، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية (1410 هـ - 1989 م)،

55. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت:1396هـ، الأعلام ، دار العلم للملايين، ط:15، أيار / مايو 2002 م.

56. زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح: أبو العباس ثعلب، القاهرة، الدار العراقية للطباعة والنشر، (1994/1415).

57. سعد حاتم مزري ، معجزة القرآن والطوفان بين العلم والإيمان

58. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسنة، مطبعة سفير، الرياض، 2012م.

59. سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر: بيروت.

60. سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن الكريم، دار المعارف، مصر، 1976م.

61. سليمان عشراتي، الخطاب القرآني:مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988م.

62. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، بيروتن دار المعارف، (1966/1386).

63. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلتي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1 ، (1993/1414).

64. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، لبنان.

65. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي: شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، دار الفكر بيروت لبنان، (1424هـ-2004م).

66. شوقي ضيف، البلاغة: تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط04.

67. صالح محمد أديب، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط03، 1404هـ/1984م.

68. الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار سحنون، تونس، ط02، 1428هـ/2004م.

69. عادل عبد الله القافلي ، كشوف جديدة في إعجاز القرآن، القاهرة، دار الثقافة للنشرر والتوزيع، ط1، (2006/1427).

70. عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر أبو زيد السيوطي ، الدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور، بيروت، دار المعرفة، ط1، (1985/1406).

71. عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين المشهور بجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، بيروت، دار الفكر، ط3، (2004/1424).

72. عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين المشهور بجلال الدين السيوطي، أسباب النزول المسمى لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1422هـ/ 2002م.

73. عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين المشهور بجلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، (1427هـ- 2006م).

74. عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: مقدمة؛ (من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، الطبعة الأخيرة، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت لبنان، (2000م).

75. عبد الرؤوف المناوي، التقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، 1990م.

76. عبد العزيز بن حمد بن ناصر، منحة القريب المجيب في الرد على الصليب، تحقيق: محمد بن عبدالله بن حمد السكاكر، دارة الملك السعودية، الرياض، 1999/1419م.

77. عبد العزيز عرفة عبد المعطي، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، بيروت، عالم الكتب، ط1، (1985/1406).

78. عبد الفتاح أحمد الحموز ، التأويل النحوي في القرآن الكريم، الرياض، مكتبة الرشد، ط1، (1984/1405).

79. عبد الفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، دار الفكر العربي، مطبعة دار القرآن، القاهرة، مصر.

80. عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، 1425هـ/2004م.

81. عبد المالك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، تحقيق: فوقية حسين محمود، عالم الكتب، لبنان، ط02، 1987/1407م.

82. عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، الزهراء للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 02، (1993م).

83. علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن النيسابوي، أسباب النزول، تحقيق: عصام الحميدان، بيروزت، مؤسسة الريان، ط1، (1990/1411).

84. علي بن حمزة الكسائي ، معاني القرآن، ترتيب: عيسى شحاتة عيسى، القاهرة، دار قباء للطباعة ولنشر ، 1418

85. علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت:384هـ)، النكت في إعجاز القرآن ، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976م.

86. علي حسب الله: أصول التشريع الإسلامي، دار الفكر العربي، ط:07، (1417هـ-1997م).محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ط: 02، دار سحنون، تونس، (1428هـ_2007م).

87. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم المشهور بـ"تفسير ابن كثير"، دار الأندلس، ط:03، (1401هـ-1981م).

88. فهد بن عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط09، 1417هـ/1997م.

89. القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب، (1318هـ).

90. لبيب عبد الساتر، الحضارات، دار المشرق، بيروت، ط07، 1407هـ/1986م.

91. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة:، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط04،

92. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: سامر بركة، دار الفكر ، دمشق، ط01، 1409هـ/1988م.

93. محمد أبو عيسى الترمذي، سنن الترمذي (ت279هـ) ، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2) ، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3) ، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5) ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط2، 1395هـ- 1975م.

94. محمد أحمد ابن جزي ، التسهيل في علوم التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، (1981/1402).

95. محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي الموريتاني المالكي الإفريقي: أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، حققه محمد عبد العزيز الخالدي ،دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان، (1424 ـ2003)

96. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس

97. محمد بن أحمد أبو زهرة ، زهرة التفاسير، القاهرة، دار الكتاب العربي، (1974/1394).

98. محمد بن أحمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، بيروت، 2010م.

99. محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، مؤسسة الخافقين، دمشق، 1982/1402م.

100. محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي البخاري: صحيح البخاري، المحقق: مصطفى ديب البغا، ط:03، دار ابن كثير: اليمامة، بيروت، (1407هـ، 1987م).

101. محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،تفسير الطبري، تحقيق:احمد شاكر،مؤسسة الرسالة بيروت (1420هـ ـ2006 م) ط :01

102. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، المحقق: أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، ط:03، دار المعرفة، (1414هـ، 1993م).

103. محمد بن عيسى أبو عيسى بن سورة بن موسى السلمي الضحاك الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت، دت.

104. محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، ط:06، دار صادر، بيروت، (1417هـ- 1997م).

105. محمد خير، الكون والنسبية بين القرآن الكريم والنظرية، مكتبة الأسد، دمشق، سوريا (1415- 1994)

106. محمد رجب البيومي، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1991م.

107. محمد زرزور، علوم القرآن: مدخل إلى علم التفسير وبيان إعجازه، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ط1، 1979م.

108. محمد سعيد رمضان البوطي، محاضرات غي الفقه الإسلامي المقارن، دار الفكر العربي، دمشق، ط05، 2008م.

109. محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ط:01، دار الفكر، بيروت، (1996م).

110. محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير، الجزائر، شركة شهاب ، (د ت).

111. محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.

112. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي ،الجزائر ، مكتبة الشهاب ، (دت)

113. محمد يعقوب، أسباب الخطأ في التفسير، دار ابن الجوزي، (1425هـ) .

114. محمد يونس علي، علم التخاطب الاسلامي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط01، 2006م.

115. محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ط1، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، (1978/1398).

116. مخلوف حسنين، صفوة البيان لمعاني القرآن، دار المشرق، بيروت، ط03، (دت).

117. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (1992/1413).

118. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط:01، مؤسسة المختار: القاهرة، (1426هـ- 2005م).

119. مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط: 08، مكتبة رحاب، الجزائر.

120. معروف الدواليبي، المدخل إلى علم أصول الفقه الإسلامي.

121. نصر حامد أبو زيد، الإتجاه العقلي في التفسير، دار اشويد، بيروت، لبنان، ط01، 1950م.

122. نعمان جغيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ط: 01، الأردن، (1422هـ-2002م).

123. نور الدين العنتر، القرآن والدراسات الأدبية، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1988م.

124. نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ط01، 1418هـ/ 1997م.

125. وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر،البرامكة، دمشق، (1416هـ-1996م

126. يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية،

الدوريات:

127. مجلة الفكر العربي، دمشق، عدد 25، فبراير 1982م، عدد خاص.

128. مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة، (ربيع الثاني1424هـ، يونيو 2003م)، العدد:19.

المعاجم:

129. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (د ت ط).

130. المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار الشروق، ط1، (د ت).

فهرس الموضوعات

قبس .....

كلمة شكر وعرفان .....

إهداء .....

مقدمة ..... أ

الفصل الأول: حقيقة الإعجاز القرآني 9

حقيقة الإعجاز والمعجزة 10

اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن 30

علاقة الإعجاز بالخطاب القرآني 46

أثر قواعد اللغة العربية في بيان وضبط الخطاب القرآني 59

أثر الفصاحة في بيان الخطاب القرآني وضبطه..... 70

الفصل الثاني: الضوابط المنهجية للخطاب القرآني وأثرها في بيان الاعجاز..... 97

طبيعة الخطاب القرآني 98

الضوابط المنهجية لأركان التخاطب وأهميتها في بيان المراد 106

أركان الخطاب 106

ضوابط حال الخطاب (لغة الخطاب) 107

ضوابط المخاطِب: (المتكلم) 121

ضوابط المخاطَب:(السامع) 128

ضوابط سياق الخطاب. (ما يحيط بالخطاب) 137

الفصل الثالث: وجوه الإعجاز في الخطاب القرآني. 155
وجوه الإعجاز من حيث العموم. 156
الإعجاز والإخبار عن الغيوب. 168
- غيوب الماضي. 169
-غيوب المستقبل 181
الإعجاز البلاغي. 209
الإعجاز العلمي. 229
الخاتـــمة 251
الفهارس 258
فهرس الآيـــات القرآنيـة..... 259
فهرس الأحاديث النبوية 274
فهرس المصادر والمراجع..... ... 275
فهرس الموضوعات..... 287

الملخص

القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز في بلاغته وأسلوبه ونظمه وفي تأثير هدايته، ولا يزال آية باقية تتحدى الأمم والأجيال على مرّ العصور، ونظرا لعظمته وقدسيته تفانى العلماء في دراسته، والبحث في خصائصه، من ذلك أهمية الخطاب القرآني في تأصيل النظريات اللغوية والإعجازية والأصولية، و المقاصدية، والفقهية. و لقد وقف البحث على حقيقة الإعجاز وبيان مدى أهمية معرفة ذلك تثبيتا وترسيخا لإيمان المؤمنين، ودحضا لشبهات المشككين في القرآن الكريم. كما تناول قضية الإعجاز وصياغتها صياغة علمية تتناسب مع قيمتها اللغوية والفكرية، ورصد البحوث الإعجازية التي تناولت النص القرآني في علاقاته بالإعجاز العلمي والبلاغي.

الكلمات المفتاحية :

القرآن؛ الإعجاز؛ التحدي؛ النص القرآني، الإعجاز العلمي؛ الإعجاز البلاغي؛ ضوابط الخطاب القرآني؛ الدراسات القرآنية، قضايا الإعجاز؛ المقاصد.

نوقشت يوم 30 سبتمبر 2020